
النسائيات
بقلم
ملك حفنى ناصف
باحثة البادية
١٥٨٨

النســائيات

••••••••••••

ملك حفنى ناصف

النسائيات (الجزء الأول والثانى) ١٩٩٨
طبعة أولى (النسائيات الجزء الأول) ١٩١٠
طبعة ثانية (النسائيات الجزء الأول والثانى) ١٩٢٥؟
****

ملتقى المرأة والذاكرة
٤ شارع عمر بن عبد العزيز ــ المهندسين
الجمع التصويرى: عائشة الخميسى
رقم الإيداع القومى بدار الكتب: ١٣٣٩٨ ـ ٩٨
ISBN: 977-5895-01-4
مطبعة: ماكس جروب
١٣ شارع المنتصر ـ العجوزة

إهـــــداء ٢٠٠٦
المرحوم / يوسف درويش
القاهرة



النسائيات

مجموعة مقالات نشرت في الجريدة فى موضوع

المرأة المصرية

بقلم

باحثة البادية



المحتـــويـــات

الموضوع	الصفحة

النســـائيـــات

باحثة البادية

بقلم: هدى الصدة

فى رسالة من ملك حفنى ناصف، أو باحثة البادية، إلى مى زيادة، كتبتها بعد مرض أقعدها عن الكتابة، تقول ملك:

كنت اعتزلت الكتابة، لا لنضوب مادتها عندى ولا اكتفاء بالقليل الذى كتبت من قبل، ولكنى كنت مللت المناداة بإصلاح المرأة المصرية، وثبط عزمى ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة، وما حركتهم التى ملأوا بها القطر صراخاً إلا عنوان لنهضة كاذبة. (النسائيات ص١٠٢)[1].

هذه الكلمات القوية تعبر عن موقف امرأة مصرية عاشت فى بدايات هذا القرن، وعاصرت فترة حيوية فى تاريخنا الحديث: فترة النهضة، أو فترة التحديث، كما درج على تسميتها، فكان لها وجهة نظر مستقلة من الأحداث والاتجاهات السائدة فى ذاك الحين، عبرت عنها فى كتاباتها. نقرأ لها فتتزاحم الأسئلة المطروحة فى عصرها وتتشابك مع أسئلة الحاضر. ماذا تعنى بالنهضة الكاذبة؟ وما أوجه الكذب فيها؟ كيف قدمت مسألة المرأة فى سياق خطاب النهضة؟ وهل هناك علاقة بين مشاكل الحاضر فى المجتمعات العربية وبدايات صياغة الأسئلة والهموم؟ وكيف يساعد هذا الكتاب على الإجابة عن بعض هذه الأسئلة؟

لماذا نعيد إصدار هذا الكتاب فى ١٩٩٨؟

يصدر هذا الكتاب لتكريم ذكرى ملك حفنى ناصف (١٨٨٦-١٩١٨) بمناسبة مرور ثمانين عاماً على وفاتها فى سن مبكرة. ويعد الكتاب الأول فى سلسلة إصدارات تذكيرية بالنساء يشرف عليها ملتقى المرأة والذاكرة من أجل إحياء الذاكرة الجماعية وتوثيق علاقتها بالإسهامات الغزيرة للنساء العربيات فى القرن العشرين. يهدف الملتقى

من إعادة نشـر هذه الكتابات إلى إبراز كتابات النسـاء فى هذا العصر الحديث، وتـأكيد حضـورها بعد أن طواها النسيـان. كما يهـدف إلى إتاحة مادة غـنية للقراء وللبـاحثين يصعب الحـصول عليها لغـير المتخصصين، أمـا الهدف الأساسى من هذا المشـروع فهو التفاعل النقدى مع هذه الكتابات وقراءتها من منظور هذا العصر واحتياجاته وربما تؤدى هذه القراءة إلى مراجعة مواقفنا، أو رؤيتنا لبعض القضايا التى تشغلنا فى الحاضر.

ونسـتهل هذه السلسلة بكتـاب ملك حـفنى ناصف: النسائيـات، وهو عبـارة عن مجـموعة من المقـالات التى نشرتهـا ملك فى مجلة الجريدة فـى أوائل هذا القرن تحت عنوان النسائيات. ولقد طبع هذا الكتـاب للمرة الأولى سنة ١٩١٠ فى مطبعة الجريدة، وقدم له أحـمد لطفى السيـد، وتضمن بعض التـقاريظ لشخـصيات عـامة طلب منهم التعليق على الكتـاب. وفى سنة ١٩٢٥ أعادت المكتبـة التجارية طبع الكتاب فى مكـتبة التقدم، وأضافت إليـه رسائل متبادلة بين ملك ومى زيادة ومقالـة عن ملك بقلم أخيها مجـد الدين ناصف، كان قـد قدم بها لكتـابه "تحرير المرأة فى الإسـلام" مع عدد من الخطب والقصائد التى ألقـيت فى تأبينها. وسميت هذه الطبعة "الـنسائيات الجزء الأول والثـانى"[٢] . وفى سنة ١٩٦٢ أعاد مـجد الدين ناصف نشر أعمال مـلك فى كتاب عنوانه: "آثار باحثـة البادية"[٣]. وتضمن: مقدمة لسهـير القلماوى، وسيرة لملك بقلم مجد الدين، وكـتاب النسائيات مع إضـافة بعض المقالات والمراسلات والتـعليقات على كتابة ملك. ولقد اخـترنا إعادة طبع نسخة النسائيات الصـادرة فى ١٩٢٥. لأنها تحتفظ بالترتيب الأصلى للنسائيات كما صدرت سنة ١٩١٠ فى حياة ملك.

ولكن، لماذا نستهل هذه السلسلة بملك حـفنى ناصف؟ هناك أربعة أسباب تؤيد هذا الاختيار؛ أولهـا، مكانة ملك المتميزة وسط رواد ورائدات النهضـة المصرية، التى قامت وعمت الواقع العربى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. فلقد كان لهـا آراء ومواقف مهمة تجاه مشروع النهضـة وإرهاصاته، كما كان لها خلافـات وجدالات عديدة وحامـية مع أقطاب التنوير من أمثال قـاسم أمين وأحمد لطفى السيد. ومن أشهـر الأمثلة على هذه الاختلافات، معارضتـها لدعوى قاسم أمين لنزع حجاب النساء وتبنيـها لمنهج مغاير فى سبيل تحقيق نهـضة المرأة المصرية. بالإضافة إلى ذلك، تعرضت ملك فى مقالاتها وخطبها لقضايا اجتماعية كثيرة ومتنوعة تمس حياة

المرأة ووضعها فى المجتمع، وفعلت ذلك بإسلوب يختلف قليلاً وأحياناً كثيراً عن غيرها من المتحمسين لهذه المسألة، الأمر الذى جعل لها صوتاً متميزاً ضمن الأصوات المسموعة شد انتباه القراء والكتاب على اختلاف توجهاتهم وأفكارهم.

والسبب الثانى؛ يرجع إلى أهمية هذا الكتاب فى تاريخ نشأة وشيوع دخول النساء مجال النشر والكتابة، وترسيخ دورهن ومساهمتهن فى المجال العام. ونحن إذ نحتفى بملك نحتفى أيضاً بكل النساء اللاتى كتبن وشاركن بخبراتهن وآرائهن للنهوض بوضع المرأة فى مصر. وكما فعلت نساء كثيرات فى هذا العصر، نشرت ملك مقالاتها فى مجلة يديرها قطب من أقطاب التنوير فى مصر هو أحمد لطفى السيد، كما نشرت أيضاً مقالات فى مجلات تديرها نساء، فساهمت بشكل مباشر فى تطور الصحافة النسائية والتأصيل لظهور وعى نسوى قوى فى الساحة العربية.

أما السبب الثالث؛ فهو مرتبط بالأدبيات الموجودة والمتعارف عليها الخاصة بالتأريخ لبدايات الوعى النسوى فى مصر والعالم العربى، وتحول مسألة المرأة، والمناقشات التى دارت فى بدايات القرن عن وضع المرأة فى المجتمع وسبل النهوض بها، إلى قضية أساسية ضمن القضايا الملحة المطروحة على الساحة العربية والمصرية. جرت العادة على إرجاع فضل تفجير موضوع المرأة إلى قاسم أمين والتيار الليبرالى القومى، وتم تأطير قضية المرأة فى سياق الرواد من الرجال، وإغفال الدور الحيوى الذى لعبته النساء الرائدات فى الدفاع عن قضيتهن، وفى عرضها من وجهة نظرهن. فنجد أن موقف المؤرخين لهذه الفترة يميل إلى التركيز على الموضوعات التى طرحها قاسم أمين، كما يميل إلى الاحتفاء به باعتباره الأكثر جرأة أو الأكثر ليبرالية فى الدفاع عن قضية المرأة. وفى هذا الإطار أيضاً، يتم تقييم مواقف النساء من أمثال ملك حفنى ناصف على أنها مواقف أقل شجاعة وأكثر محافظة على التقاليد والأعراف[٤]. والهدف من إثارة هذا الموضوع لا ينم عن محاولة التقليل من شأن طرف أو الإعلاء من شأن آخر، فمكانة الرواد محفوظة دائماً فى التاريخ، وإنما الهدف هو إعادة النظر فى رؤيتنا وعلاقتنا بتلك الفترة المهمة فى تاريخنا، وهى فترة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بواقعنا المعاصر وبالكثير من القضايا التى تشغلنا. ولكى نتمكن من الوصول إلى قراءة جديدة، يتعين علينا إلقاء الضوء على قضايا وشخصيات رائدة أغفلها التاريخ، ولم يعطها حقها فى سياق الرؤية

السائدة لنشأة الوعى النسائى.

والسبب الرابع؛ نابع من اللحظة التاريخية الراهنة التى تمر بها المجتمعات العربية بوجه عام، ومصر على وجه الخصوص. فلقد كثر الحديث عن التراجع الذى تشهده بعض البلدان العربية، وعن تعثر مسيرة النهضة التى نشطت وبلغت أوجها فى بدايات هذا القرن، وعن مظاهر الأزمة التى تعانى منها الثقافة العربية. ويسود حديث الأزمة هذا بسبب التردى الواضح على الصعيد السياسى والاقتصادى والاجتماعى، وتخاذل المجتمعات العربية بشكل عام فى علاقاتها مع المجتمع الدولى. إلا أن التراجع والتعثر يعنى، فى معظم الأحيان، التخلى عن معطيات ومظاهر الحداثة التى تعد من مكاسب النهضة فى مصر مثلاً. ففى كتاب صدر مؤخراً للمحلل السياسى اللبنانى فؤاد عجمى، يشير الكاتب إلى حادثة محاولة اغتيال نجيب محفوظ من قبل متطرف دينى بوصفها رمزاً للحصار والتراجع الذى تعانى منه الحداثة المصرية الممثلة فى رجالها ونسائها من العلمانيين[٥] . وهو يحاول فى كتابه توصيف وفهم لماذا وكيف حدث هذا التراجع. والسؤال الذى يشغل بال فؤاد عجمى هو السؤال نفسه الذى يحاول كثير من المثقفين العرب الإجابة عنه، فهو سؤال مبنى على افتراض أن التمسك بالحداثة ومعطياتها ومظاهرها هو السبيل الأوحد لتطور المجتمعات العربية، وهو افتراض مبنى على فكرة عن الحداثة تطابق المثال الأوروبى، ويؤدى هذا الافتراض إلى أن الاستسلام الحاصل للنزعات التقليدية المتمثل فى سيادة الاتجاهات الدينية من شأنه إضعاف المجتمع وجره إلى الوراء.

وبالعودة إلى موضوعنا؛ وهو المغزى وراء إعادة نشر كتاب ملك ناصف فى هذه اللحظة التاريخية، يمكننا القول بأن إعادة قراءة أعمالها من شأنه مساعدتنا على صياغة أسئلة جديدة لا تضع الحداثة والتراث فى مواجهة بعضهما بعضاً، ولا تفترض بداية أن ما درج على تسميته بالحداثة هو السبيل الأوحد للتقدم. نقرأ أعمال ملك ونستمع لصوت لم يتمكن التاريخ من تصنيفه وفقاً للتصنيفات الجاهزة، فاحتار الناس فى أمره. فتارة نجدها ضمن زمرة التنويريين أو الحداثيين، وتارة أخرى نجدها رمزاً للمرأة المسلمة المحافظة التى عارضت دعوى قاسم أمين لنزع الحجاب. ولكن، وقبل الخوض فى غمار آرائها ومعاركها الفكرية نتوقف قليلاً للإجابة عن سؤال: من هى ملك؟

ملك والحياة العامة

كان لملك شرف الريادة فى مجالات كثيرة فى الحياة. فلقد نشرت فى المجلات المصرية وهى فى سن الثالثة عشرة، وكانت أول فتاة تنال الشهادة الابتدائية من مدرسة حكومية، وهى مدرسة السنية سنة ١٩٠٠. وفى ١٩٠٣ كانت أولى الناجحات فى أول امتحان عقد لتخريج المعلمات. فى سنة ١٩١٠ تقدمت ملك إلى البرلمان المصرى بقائمة من المطالب لتحسين وضع المرأة تضمنت عشر نقاط. وفى ١٩١١ ألقت محاضرة عامة فى مقر مجلة الجريدة لتحيى تراثاً كاد أن يفقد للخطيبات العربيات فى عصور قديمة.

استهلت ملك حفنى ناصف مشاركتها فى الحياة الثقافية بكتابة مقالات فى مجلة الجريدة، التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد، وأصبح لها عاموداً منتظماً عنوانه: "نسائيات". ومع مرور الوقت أصبح لملك قاعدة عريضة من القراء، الذين باتوا ينتظرون مقالاتها، التى تميزت بالتعليق على حال النساء والرجال، واقتراح سبل الإصلاح والتقدم لأفراد المجتمع كافة. أثارت مقالاتها جدلاً واسعاً بين عديد من المهتمين بأمور الثقافة والنهوض بالمجتمع، وتحمس الكثيرون للمساهمة فى التعليق على ما تكتبه، الأمر الذى أدى إلى توسيع دائرة تأثيرها فى الحياة العامة. وبعد أن ذاع صيت نسائياتها، بدأت ملك فى إلقاء المحاضرات العامة. فألقت أولى محاضراتها فى دار الجريدة، وألقت الثانية فى الجامعة المصرية. ثم توالت الخطب الأخرى فى الجمعيات النسائية المختلفة.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الفضل يرجع لملك فى تأسيس العديد من الجمعيات المختصة بالنهوض بالمرأة. نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، اتحاد النساء التهذيبى، وجمعية التمريض على غرار الصليب الأحمر (وكان ذلك قبل تأسيس الهلال الأحمر بقليل). ويتذكر مجد الدين (كما يقول فى سيرة ملك المنشورة فى كتابه آثار باحثة البادية) حالة النشاط التى عمت هذه الجمعية بهدف إرسال مساعدات للمحاربين العرب فى طرابلس لمواجهة القوات الإيطالية، وخاطت ملك بيديها مائة بذلة، وجمعت لهم البطاطين وإمدادات أخرى.

نشأتها وأسرتها

نشأت ملك في أسرة تعطى أولوية قصوى للتعليم. فكان أبوها، حفنى ناصف (١٨٥٥-١٩١٩) محباً للعلم بمعنى الكلمة ومقدراً لأهميته فى رقى الإنسان والأمم، ويمكننا أن نعتبر أن "حب المعرفة مفتاح شخصيته[٦]. عمل فى مجالات متعددة، فبعد أن تخرج من الأزهر، عمل مدرساً فى مدرسة للعميان والخرس، ثم انتدب للتدريس فى مدرسة الحقوق، ثم عين قاضياً، ثم مفتشاً للتعليم. شارك فى تأسيس الكثير من الهيئات العلمية، وكان من مؤسسى الجامعة المصرية. كان أيضاً متعدد الاهتمامات، فكان يكتب الشعر ويهتم بالرياضة البدنية ومن المعروف أنه كان له أثر بالغ على بناته وأبنائه، خصوصاً ملك. كانت ملك أول العنقود فأولاها اهتماماً خاصاً، واهتم بتعليمها، ومن المعروف أنه كان شديد الفخر بها ويتفوقها. كانت هى أيضاً تحبه حباً كبيراً مما جعلها، مثلاً، تخفى عنه تعاستها الزوجية فلم تشتك إليه ولم تحاول أبداً الإثقال عليه بمشاكلها.

أما أم ملك، سنية عبد الكريم جلال (١٨٦٩-١٩٤٢)، فكانت أيضاً متعلمة ومهتمة بتعليم أبنائها وبناتها. لم تتلق تعليماً رسمياً فى المدارس، ولكنها تعلمت فى البيت وأشبعت حبها للمعرفة بالقراءة. وتتذكر أخت ملك، الدكتورة كوكب حفنى ناصف اهتمام أمها بمعرفة أخبار الناس والمجتمع والسياسة، وبراعتها فى حل المسائل الحسابية المعقدة دون أن تلجأ إلى الورقة والقلم[٧].

كانت ملك الابنة الكبيرة فى أسرة مكونة من تسعة أفراد، الأب والأم وسبعة بنات وأبناء. كانوا ثلاث بنات، أكبرهن ملك ثم حنيفة (١٨٩٨-١٩٧٣) وكوكب (١٩٠٥) وأربعة أولاد، جلال الدين (١٨٨٩-١٩٦٠)، ومجد الدين (١٨٩١-١٩٧٨) وعصام الدين (١٩٠٠-١٩٧٠) وصلاح الدين (١٩٠٢-١٩٧٧). تعلم الجميع وتقلدوا أعلى المناصب: عمل جلال الدين محامياً ثم قاضياً، وكان مجد الدين أستاذاً بكلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، وعمل أيضاً فى المجلس الأعلى للآداب والفنون، وله الفضل فى الاحتفاظ بكتابات ملك ومتابعة نشر أعمالها وتقديمها للقراء. عملت حنيفة بالتدريس وتدرجت فى الوظائف إلى أن أصبحت مفتشة فى وزارة التعليم. أما عصام الدين، فدرس الزراعة فى ألمانيا، وعمل مدرساً، وله مؤلفات عن تاريخ الأديان، وعمل صلاح

الدين وكيلاً لوزارة الصحة. وأخيراً وليس آخراً، سافرت كوكب سنة ١٩٢٢ فى أول بعثة للبنات لدراسة الطب فى إنجلترا لتعود بعد عشر سنوات وتعمل فى مستشفى كيتشنر ثم تصبح مديرة للمستشفى.

كان جميع أفراد هذه العائلة مهمومين بالشأن العام، مناهضين للوجود الإنجليزى فى مصر ومعتزين بوطنيتهم، وكان لبعضهم نشاط سياسى مما أدى إلى أشكال كثيرة من المصادمات مع البوليس وقوات الاحتلال. فمثلاً، مثل مجد الدين أمام محكمة عسكرية بسبب اتهامه بمحاولة تهريب ضابط تركى من السجن، وكاد يواجه عقوبة الإعدام. وتكرر دخول الأخوة السجن والقبض عليهم بتهم سياسية مختلفة. أما كوكب فمنذ أن كانت تلميذة فى المدرسة، كانت معروفة بميولها الوطنية، ورفضها للاحتلال، لدرجة أنها كادت أن تفقد ترشيحها للبعثة إلى إنجلترا بسبب هذه السمعة. وكان حفنى ناصف معروفاً بوطنيته وباهتمامه بتنمية المؤسسات المصرية وكان، كما ذكرت من قبل، من مؤسسى الجامعة المصرية ومن أوائل المحاضرين فيها. أما الأم، سنية، فكانت تشجع أبناءها على العمل السياسى، وكانت تتعامل مع المضايقات التى تتعرض لها الأسرة من قبل قوات الاحتلال والبوليس بقوة وتحد. وتحكى كوكب ناصف عن أمها فتقول إن أمها اعتادت على مداهمة البوليس لبيتهم وتفتيشه بحثاً عن أخواتها، أو عن منشورات، فكانت تدعو الجنود للدخول وتصر على إظهار عدم المبالاة فى مواجهة تصرفاتهم وعبثهم بالمنزل وتدعوهم بسخرية للغذاء.

ولقد عبرت ملك عن انشغالها بالقضايا العامة المثارة فى عصرها، واختارت أن تعطى أولوية لقضية النهوض بوضع المرأة، واتسمت آراؤها بالشجاعة والاستقلالية، وعدم الخضوع للسائد أو المتفق عليه. ونجدها أيضاً تكتب فى سنة ١٩٠٩ قصيدة ثورية ضد إحياء قانون للرقابة على المطبوعات كان الهدف منه التضييق على الصحف فيما تنشره ضد الإنجليز والقصر، قالت فيها:

يا أمة نثرت منظومها الغير ... حتام صبر ونار الشر تستعر
ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم ... حتى كأنكم الأوتاد والحجر
ستسلبون غداً أغلى نفائسكم ... حرية ضاع فى تحصيلها العمر

وفى هذه البيئة نشأت ملك واستمدت القوة من أبيها وأمها. فإلى جانب ما نعرفه

عن حفنى ناصف وتألقـه فى المجال العام، وتشـجيعه أولاده وبناته، نكتـشف أيضاً أنه كان للأم دور أساسى فى الشـد من عزيمة البنات والأبناء، وتشجعـيهم على المضى فى الطريق الذى اختاروه، فـكانت سنية امرأة قوية كمـا تتذكر الدكتـورة كوكب؛ قوية فى شخصيتها وفى تلقيها الصدمات التى واجـهتها فى حياتها، كما كانت قوية فى القرارات التى اتخذتها والمتـعلقة بمستقبل أولادها. ومن أهم هذه القرارات كـان قرار الموافقة على سفـر كوكـب فى بعثـة إلى إنجلترا سنة ١٩٢٢وسط ذهول المعـارف والأصدقـاء ورغم معارضة الكثيرين.

نشأت ملك فى بيئـة تزخر بالحب والتشجيع، فـتشبعت بالأفكار الحرة واسـتفادت وأفادت. فبـاعتبارها الأخت الكبـرى، كانت تهتم بأخواتهـا وبتعليمهم أيـضاً، وكانت تجمعهم من حـولها لتقرأ عليهم الشعـر، وتراجع دروسهم، وتنقل لهم المعلومات التى تتلقاها. كما كـان لها تأثير على محيط المعارف والأصـدقاء، فكانت تذهب إلى بيوتهم وتقنع الأهل بتعليم البنات فى مـدرسة السنية. وعندما انتقلت إلى الفـيوم، قامت بدور المعلمة والراعية نفسه فكانت توليهم اهتـمامها، وكانت ترعى شؤونهم حتى فى زياراتها إلى القاهرة. ومـن أهم الأدلة على ارتباط ملك بأسـرتها، وحنوها عليهـم الحادثة التى يرويها أخـوها وأختهـا عن مجيـئها إلى القـاهرة لتكون بجوار أسرتـها على الرغم من مرضها بالحمى الإسبـانيولية. فلقد كان مجد الدين يحاكم أمام محكمـة عسكرية بتهمة تهريب ضابط تركى من السجن، وكان يواجه حكم الإعـدام، كما سبق، فخافت ملك على أبيها وأسرتهـا من وقع الصدمة عليهم، وآثرت الحضور إلى بـيت أسرتها وتوفيت نتيجة لاشـتداد المرض. وعن ارتباطها بأسرتها ومكانتـها فيها تتحـدث الدكتورة كوكب بحب شديد عن أختها التى كانت مثلها الأعلى طوال حـياتها، والتى ألهمتها الرغبة فى التميز والتفوق على الصعاب(٨).

ملك فى عيون الآخرين

كان لملك مكانة عالية بين معاصريها والأجـيال اللاحقة التى اهتمت بتحسين وضع المرأة فى المجتمع. واجتمع الجميع عـلى أهمية أفكارها وعلى تميزها وسط بنات جيلها. ونظرة سريعـة على آراء بعض المعلقين والمعلقات على كـتابات ملك تساعـدنا على فهم

أفضل لآرائها، ولوقع هذه الآراء علـى سامعيها، ومن ثـم على تحديد موقع تلك الآراء فى سيـاق خطاب النهضة الـسائد. وسوف نجـد أن ملك حازت استـحسان الكثـيرين، ونجحت فى الفوز باحترام وتقدير معاصريها والأجيـال اللاحقة، كما تعامل معها الجميع باعتبارها رائدة من الرائدات، وقرأوا لها باهتمام وجدية لما كان لها من بصيرة واتزان فى التعامل مع القضايا الشائكة. ويتـركز التعليق على ملك فى الثناء على الموضوعات التى تطرقت إليها، خـاصة موضوع تعليم المرأة وأهمـيته، ويشتمـل على إشارات إلى بلاغة ملك وأسلوبها المتميز فى الكتابة. ثم يتطرق فى أغلب الأحيان إلى التعليق على موقفها من الحـجاب، ويؤوِّل هذا الموقـف وفق الانتمـاء الإيديولوچى للمـعلق؛ فـتارة يقـابل باستحسان، وتارة أخرى يقابل بالنقد. وعموماً، يتجه أغلب المعلقين والمعلقات إلى عقد مقارنة بين ملك ومواقفها إزاء قضـية تحرر المرأة وقاسم أمين باعتباره المرجع الرئيسى فى هذه المسألة، وهى مـقارنة تكون فى أغلب الأحيـان معلنة وصريحة، وفى أحـيان قليلة أخرى نجدها مضمـرة، ولكن من السهل استنتاجها. أما بالنسبـة إلى تعليقات النساء من أمـثال مى زيادة وسـهيـر القلمـاوى، فنجدها تقـيم المقارنات نـفسـها وتتـبنى أحيـاناً الافتراضات ذاتها فى المقارنة بين ملك وقاسم أمـين، ولكنها عادة ما تضيف بعداً جديداً عن علاقة ملك بكاتبة التعليق وفضلها أو تأثيـرها عليها، أو، كما تقول مى، عن فضل كاتبة على كاتبة.

ونبدأ من سنة ١٩١٠، وهو تاريخ نشـر مجمـوعة المقالات التى كـتبتهـا فى مجلة الجريدة فى كتاب تحت عنوان "نسائيات". ويتضمـن هذا الكتاب مقالاتها ومقدمة بقلم أحمد لطفى السيد وتعليقات على مقالاتها لشخصيات عامة. ومن الجدير بالذكر أن هذه التعليقات الأولى التى يشملها الكتاب الصادر سنة ١٩١٠ تعد مؤشراً جيداً لموقف النقاد والمؤرخين من ملك وآرائهـا. وفى مقدمـته للنسـائيات، يثنى أحـمد لطفى السـيد على ملك، ويحدد ما يراه مهماً فى كتـاباتها، ويقرر أنها "أجادت كل الإجادة فى أن جعلت أساس بحـثهـا تقرير المسـاواة لا على جهـة الإطلاق بل فى حدود الاعـتدال والدين" (ص٤٥). ويسترسل الكاتب فى أهمية الاعتدال ويختلف مع "النسائيين" الذين يطالبون بالمساواة المطلقة، ويؤكد مبدأ التدرج والتمهل، لأن هذه المساواة المنشودة "لم توجد ولم تجرب فى أعلى الأمم حضارة" (ص٤٣). أما فضيلة الشيخ عبد الكريم سلمان، رئيس

تفتيش المحاكم الشرعية، فهو يكتب تعليقاً يعبر فيه عن إعجابه بكتابات ملك، وينتقد ما يراه "حدة فى بعض الموضوعات وكأنها معذورة فى حدتها لامتلاك الموضوع نفسها وحواسها فكتبت فيه وهى ممتلئة حنقاً" (ص ١٧٣). ثم يعلق على معارضتها دعوى نزع الحجاب، ويفسرها على أنها دليل خوفها من الخروج على تقاليد المجتمع و"ستظهر الأيام أن رأيها فى الحجاب رأى لم تقدر على تخميره ولم تملك حرية القول فيه" (ص١٧٣). ويقارن شبلى شميل فضل ملك فى المطالبة بتحرير عقل المرأة وتقويم أخلاقها بفضل قاسم أمين فى المطالبة بتحرير المرأة، "وإن كانت لم تطلب لها هذا التحرير إلى الغاية القصوى مثله لأنها لم تطلب إلغاء الحجاب" (ص ١٩١). ويتحمس كثيراً لآرائها ويذهب إلى أن موقفها هذا لا يتنافى مع رأى الطالبين بالسفور المطلق، ثم يستطرد ليبين مزايا السفور وارتباطه بنهضة النساء.

ويعلق صاحب السعادة إسماعيل صبرى باشا، وكيل نظارة الحقانية سابقاً ويوافقها على رأيها فى الحجاب، وعلى أن "تربية بنات مصر لهو العلاج الأكبر" (ص ١٧٥). أما الشيخ عبد العزيز جاويش، فيوافق على نصائحها للمرأة الشرقية، ويعضد موقفها ضد قاسم أمين ويقول: "لقد كاد قلم قاسم أمين يجلب البلاء على المسلمين والمسلمات بما وضعه من الكتب فى موضوع المرأة، لولا أن تنبهت لما يريده النابتة الإسلامية فجعلت تطارد تعاليمه وتحارب إرشاداته" (ص ١٧٧). ويناقش الشيخ حسين والى، الأستاذ بالأزهر ومدرسة القضاء الشرعى،آراء ملك من موقع المعلم والمرشد، فيبدأ بالثناء عليها وتشبيهها بشخصيات نسائية تبوأت مكانة عالية فى التاريخ الإسلامى: "أرانى كتابك علم عائشة بنت الصديق وأدب سكينة بنت الحسين" (ص ١٨١) ثم يستطرد ليفند مقالاتها فيعدل عليها ويصوبها من وجهة نظره. ومثلاً، يختلف معها فيما ذهبت إليه عن تساوى ملكات الرجل والمرأة ويقول: "إن الرجل يتعلم. . . فترى الرجل يخترع الأشياء وترى المرأة لا تخترع" ويتخذ هذا المثل ذريعة للتدليل على اختلاف طبيعة الرجل والمرأة بحيث يكون للرجل حق القوامة. ويختم الشيخ تعليقه ببيان للأخطاء اللغوية التى ارتكبتها ملك ويصححها.

ويلفت أسلوب ملك وفصاحتها اهتمام المعلقين فيقول عنها أحمد لطفى السيد فى مقدمته إنها: "أكتب سيدة قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر، بل هى تعطينا فى كتاباتها

صورة الكاتبات الغربيات اللاتى تفوقن على كثير من الكتاب" (ص ٤٥). كما يرى أحمد زكى، السكرتير الثانى لمجلس النظار، أنها أعادت الخطابة إلى فريق من النساء بعد أن انطمست معالم هذه السنة" (ص ١٨٠).

وفى سنة ١٩٢٥ أعيد نشر النسائيات، وألحق بها جزء ثان احتوى على بعض المقالات والمراسلات والخطب والقصائد التى ألقيت فى حفل تأبين ملك ، الذى اشتركت فيه هدى شعراوى ونبوية موسى ومى زيادة وأخريات. وتميز هذا التأبين بأنه كان مظاهرة للمطالبة بحقوق النساء، فلم يقتصر الحاضرون والحاضرات على الثناء على ملك، وإنما اعتبروا ذكراها مناسبة جيدة لدفع الحركة النسائية إلى الأمام. وجاءت قصيدة نبوية موسى حماسية وقوية لتؤكد إنجازات ملك، ونصرتها لحقوق النساء. ثم تكلمت مى زيادة فلمست جانباً مهماً من آثار ملك وهو علاقتها وتفاعلها مع نساء عصرها. فتقول مى إنه كان لملك أثر عميق عليها كقارئة لأنها كانت أول كاتبة عربية تقرأ لها موضوعات كانت غريبة عنها مثل "الزواج والطلاق وتعدد الزوجات والنقد الاجتماعى والإصلاح" (ص٢٢٩) وكان هذا سنة ١٩٠٧. ثم تشير إلى فضل آخر وهو فضل "كاتبة على كاتبة" لأنها بسبب حزنها على ملك، وإعجابها بها كتبت كتابها "باحثة البادية" الذى صدر سنة ١٩٢٠. وتصفه بأنه "كان فاتحة تأليفى باللغة العربية، ومنشأ اهتمامى بدرس شخصية المرأة عموماً والشرقية خصوصاً". (ص٢٢٩) وتبادلت مى وملك المراسلات والآراء، والأهم من ذلك أنهما منحا بعضهما بعضاً الثقة والمؤازرة على المضى فى طريق الإصلاح والدفاع عن حقوق النساء. فلقد كان هذا الجيل من الرائدات فى حاجة ماسة إلى تراث نسائى يدل على رفعة المرأة ونبوغها متى سنحت لها الظروف، ولقد وجدت ملك ضالتها فى بيتها، وأيضاً فى كتاب: "الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور" الذى كتبته زينب فواز سنة ١٨٩٤ خصيصاً لتشجيع النساء، وحثهم على النهوض بوضعهن من خلال تقديم نماذج مشرفة لنساء شرقيات وغربيات[٩]. ولتأكيد أهمية هذا التراث النسائى، كتبت مى ثلاث سير عن ثلاث شخصيات شرقية للاحتفاظ بذكراهم للأجيال المقبلة. فإلى جانب كتابها عن ملك، كتبت كتابين آخرين عن عائشة التيمورية ووردة اليازجى[١٠].

وفى سنة ١٩٦٢ كتبت سهير القلماوى مقدمة لكتاب آثار باحثة البادية الذى جمعه

وأشرف عليه مجد الدين ناصف. وفى تقديمها، تحاول الكاتبة الإجابة عن سؤال: "هل غيرت ملك من أحوال عصرها، هل أثمرت دعوتها؟"[١١]. وترصد سهير القلماوى حال المرأة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لتقيم جهد المصلحين الأوائل، وتضع ملك فى مصاف قاسم أمين أى فى صدر قائمة الرواد. وتهتم الكاتبة بالدور الذى لعبته النساء فى تبنى دعوى الإصلاح من أمثال؛ زينب فواز وعائشة التيمورية، ولكنها تجد أن "ظهور ملك، باحثة البادية كاتبة وداعية ومصلحة من صميم البيئة المصرية حدثاً مهماً، فى تاريخ المرأة"[١٢]. وتركز الكاتبة على البيئة التى نشأت فيها ملك، وعلى أبيها حفنى ناصف وتأثيره على ابنته وتعقد مقارنة بين ملك وعائشة التيمورية، ثم تتطرق إلى زواجها، وتستند فى تحليلها إلى ما كتبه مجد الدين عن تعاسة ملك، والمعاناة التى عانتها بعد أن اكتشفت زواج زوجها عبد الستار الباسل بابنة عمه. وتتخذ سهير القلماوى هذه الواقعة مدخلاً لتحليل وتفسير ما أسمته مى زيادة "بالنار المقدسة" التى تحرق ملك، وتجلب لها العذاب المعنوى، الذى يجعلها تتألم لعذاب الآخرين، وتهتم بإصلاح ما لا يعجبها من حال مجتمعها. وتذهب سهير إلى أن السبب وراء تلك النار هو عذابها بسبب ظروف زواجها، وأنها تكتب من واقع تجربتها الشخصية فتقول: "إن تجربة الزواج فى هذه الظروف التى عانتها ملك عمقت إحساسها بالظلم الذى تعانيه المرأة المصرية "المرأة مسلوبة الحق مظلومة فى كل أدوار حياتها"[١٣]. ثم تذكر سهير القلماوى ما تسميه مأساة ملك الثانية، وهى أنها لم يكن لها أولاد وبنات، وكيف استغل زوجها هذا الوضع فراح يهددها بزواج من أخرى، لتكتشف فى نهاية المطاف (حسب رواية شقيقها مجد الدين) أن زوجها أصابه العقم بعد أن ولد ابنته الأولى، وأنه كان على علم بذلك ومع هذا رفض الإفصاح عن علته واختار أن تتعذب ملك.

وبالرغم من تأكيد الكاتبة أهمية دور ملك بالمقارنة بينها وبين قاسم أمين وهو الرائد المتوج للحركة النسائية المصرية، إلا أنها تحد من ذلك الدور فى إطار وجهة النظر السائدة عن الرائدات، وهى وجهة النظر التى تضع مساهمتهن فى حركة الإصلاح فى مرتبة ثانية بالمقارنة بإسهامات الرواد. فبعد أن بدأت فأقرت مكانة ملك جنباً إلى جنب قاسم أمين، تستطرد فتقول إن غايات ملك كانت "أقرب وأبسط ولكنها على كل حال كانت

فى مستوى غايات قاسم شرفاً ونبلاً، وإن لم ترتفع إليها شمولاً واتساعاً، ولم تنزل إلى أغوارها عمقاً ودقة"(١٤).

وتردد هنا الكاتبة مقولة شائعة عن شجاعة قاسم أمين وبعد نظره، وعن الحدود التى التزمت بها ملك بحكم انتمائها للجنس الأضعف، ومن ثم حرصها على مراعاة التقاليد ومبادئ الدين. ثم نجد أن الكاتبة تولى حياة ملك الشخصية عناية فائقة، وتربط بين معاناتها وكتاباتها، لتصبح الكتابة هنا تعبيراً عن مأساتها الشخصية. هذا على الرغم من أن ملك لم تقم علاقة مباشرة بين عذابها المعنوى وحياتها الشخصية، وإنما حرصت كل الحرص على تغليب العام على الخاص، وركزت على القضايا التى تؤرقها فى الشأن العام. ومن اللافت للنظر أن موضوع زواج ملك وشقائها قد أثير للمرة الأولى فى كتاب آثار باحثة البادية، الذى أشرف عليه أخوها مجد الدين، والذى تضمن سيرة ملك بقلم مجد الدين يحكى فيها عن هذا الزواج. ولقد التقطت سهير القلماوى هذا الخيط وجعلته فى صدارة مقدمتها، وركزت عليه باعتباره بعداً جديداً للكتابة عن ملك. وقد نختلف أو نتفق مع تحليلها للنار المقدسة، وقد نعتبر أن حصر التفسير لعذاب ملك المعنوى فى حدود حياتها الخاصة فيه قدر عال من المبالغة لما نعرفه عن اهتمام ملك بالشأن العام والقضايا المطروحة فى عصرها، إلا أن تسليط الضوء على حياتها الخاصة ومزج العام والخاص من الأمور التى تفرد مساحات جديدة لفهم وتطور وأفكار الكثير من الشخصيات والأحداث التى ارتبطت بهم.

إلى جانب هذه الإشارات المحددة لبعض ما كتب عن ملك، توالت المقالات وعدد قليل من الكتب. مثلاً فى سنة ١٩٥٨، أى فى الذكرى الأربعين لوفاتها، أصدرت إدارة الشئون العامة بوزارة التربية والتعليم كتاباً عن ملك، كتبه عبد السلام العشرى، وقدم له الدكتور مهدى علام، عضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب(١٥). يشيد الكتاب بإنجازات ملك، ويركز على ريادتها فى مجال تعليم النساء، ويتخذ الذكرى فرصة للاحتفاء بما تم تحقيقه على هذا الصعيد. أما الكتاب الثانى، فهو بقلم عبد المتعال محمد الجبرى، وصدر عام ١٩٧٦، وفيه يحتفى بملك باعتبارها رمز المرأة المسلمة التى وقفت ضد دعاوى التغريب وعارضتها(١٦). والكتاب يعد امتداداً للتيار المحافظ فى أوائل القرن، الذى اعتبر ملك من أنصاره، واكتفى بتصويب أخطائها كما بدت له. ولا أنوى

الاسترسال فى عرض ما كتب عن ملك، وأكتفى بتأكيد فكرة وجود اتجاهين للتعامل مع كتاباتها، تحددا فى بداية القرن، واستمرا إلى يومنا هذا.

وقد يبدو مما سبق أن ملك نالت حقها من التقدير، أو أنها دخلت التاريخ العربى باعتبارها من أهم رائدات القرن العشرين(١٧). إلا أنه بالرغم من بعض الكتابات القيمة عن ملك، والعديد من المقالات المنشورة فى الصحف والمجلات، فهى تعتبر من الشخصيات اللاتى فقدن فى متاهات التاريخ الرسمى، ولم تنل الاعتراف الذى يليق بالدور الذى لعبته فى أوائل هذا القرن. ونكتشف أن سقوط ملك من الذاكرة الجماعية لا يرجع إلى عدم توفر المعلومات عنها، أو عدم وجود اهتمام من الكتاب والكاتبات بها وبأعمالها، وإنما يرجع إلى مواقفها واتجاهاتها التى يجدها الكثيرون محيرة وصعبة التصنيف. وقد حان الوقت لإلقاء نظرة سريعة على أفكارها.

أفكارها وآراؤها

كانت ملك صاحبة رسالة تختلف قليلاً، أو كثيراً وأحياناً عن بعض الاتجاهات التى سادت الفكر المصرى الحديث. فكانت مثل أغلبية رواد الإصلاح تعى أهمية دور المرأة فى المجتمع المصرى للخروج من ظلمات الجهل والتبعية، فسارت تبحث عن أفضل الحلول لتحقيق هذا الهدف. وأيضاً مثل بقية مفكرى هذا العصر؛ مثل رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده وقاسم أمين وأحمد لطفى السيد وطه حسين وآخرين، تعاملت ملك مع السؤال الذى ألح على معظم الرواد والخاص بكيفية الأخذ بمظاهر ومعطيات الحداثة، مع الإبقاء على خصوصية الثقافة العربية والإسلامية.

وقد عبرت ملك عن موقفها إزاء معادلة التراث والمعاصرة فى كتاباتها، فكانت تتفق أحياناً مع آراء بعض معاصريها، وكانت فى أحيان أخرى تختلف معهم وتحاور أفكارهم. فعلى سبيل المثال؛ عارضت ملك دعوى قاسم أمين لسفور المرأة المصرية مما عده الكثيرون ضرباً من ضروب المحافظة والرجعية، إذ كان سفور المرأة آنذاك محك التحرر والتقدم. وفى الوقت ذاته تعرضت ملك فى كثير من مقالاتها للآثار السيئة الناجمة عن عادة تعدد الزوجات، مما قلب عليها المعسكر المحافظ واتهمت فى دينها. وبهذا، نجد أنه استعصى على الكثيرين تصنيفها ضمن التصنيفات الجاهزة، فشكك

البعض فى تمسكها بتراثها، وشكك البعض الآخر فى مصداقية تفتحها. ولكن، لم تتأثر ملك بتلك الهجمات، واستمرت فى الإدلاء برأيها الحر فى شتى القضايا، ورفضت رفضاً باتاً تبنى فكر جاهز، أو عدم الإفصاح عن رأى أو موقف فى سبيل الحوز على رضا فريق دون الآخر.

ولتوضيح مواقف ملك المختلفة قد يكون من المجدى التوقف قليلاً عند معنى الحداثة والتحديث، وعلاقتهما بمسألة المرأة فى بدايات هذا القرن. فمن المعروف أنه تم طرح موضوع تحرير المرأة والنهوض بمستواها فى مرحلة تاريخية انشغل فيها الجميع بكيفية بناء مجتمع مصرى حديث، يأخذ بسبل التقدم ويتخلى عن مظاهر الجهل والتخلف. وارتبط مفهوم المجتمع الحديث بشكل المجتمعات الغربية الموجودة فى ذلك الوقت، واستمر هذا المفهوم ليحمل فى طياته الكثير جداً من معطيات وتجليات تلك المجتمعات، مما يمكن تحديده على هذا النحو المبدأى: تبنى النموذج الغربى للتقدم وتنمية المجتمعات، الإيمان بالتطور الخطى للحضارة بحيث نقرأ التاريخ باعتباره رحلة الإنسان للخروج من الظلام إلى نور المعرفة والحضارة، افتراض أن المجتمعات غير الغربية متخلفة عن المجتمعات الغربية، لأنها مازالت تمر بمراحل أولية من التطور، تبنى منظومة فكرية تشجع على خلق تضاد ثنائى بين الغرب والشرق، الحداثة والتراث، وبين الأنا والآخر بحيث يحافظ الغرب على تميزه واختلافه وتفوقه على المجتمعات الأخرى. ولقد بين نقاد الحداثة ارتباط مفهوم الحداثة والمجتمع الحديث بالتوسع الاستعمارى الذى حدث فى القرن التاسع عشر، حيث كان على المجتمعات الغربية الاستعمارية اللجوء إلى خلق كيان آخر يتناقض ويتصارع مع الذات الغربية، وذلك بهدف تعزيز مكانة الذات وتحديد ملامحها ودعم قوتها.

ولقد تبنى رواد الإصلاح الأوائل المنتمون إلى التيارات الفكرية كافة، الممثلة فى ذلك الوقت (ليبرالية كانت أو إسلامية) الافتراضات الأولية للحداثة، كما نشرها ودعمها الوجود الاستعمارى فى مصر، أى أنهم تشربوا فكرة التفوق الثقافى الغربى، وتبنوا مفهوماً للتطور يرى التقدم يسير فى خط مستقيم، وصل فيه الغرب إلى أرقى المستويات بينما تحاول المجتمعات الأخرى اللحاق به، كما قبلوا المنظومة الثنائية التى تضع الحداثة فى مواجهة التراث. وعلى هذا الأساس نرى وفقاً لقواعد هذه المنظومة

تيارات فكرية تبرز وتختلف رغم اتفاقها على المنطلقات الأساسية. بعبارة أخرى برز فى أوائل القرن خطاب إصلاحى، تنويرى قومى رأى أن يحاكى المجتمعات الغربية الحديثة، ويأخذ بظواهرها مع مراعاة اعتبارات خاصة بالهوية والخصوصية الثقافية، كما برز تيار آخر محافظ، دينى يرفض النموذج الغربى ويمجد القيم التقليدية الموجودة فى المجتمع باعتبارها قيماً تراثية وجب التمسك بها فى مواجهة الهجمة التحديثية السائدة. ومن الملاحظ أن كلا الطرفين قبلا ورضيا بالتعارض الحتمى بين التراث والحداثة، وانحصر الخلاف فى طبيعة مواقف الرفض أو القبول.

وفى ظل هذا الجو الثقافى والسياسى، تعرضت النساء لضغوط شديدة لتبنى مظاهر المجتمع الحديث. وأصبحت مسألة المرأة من القضايا المحورية فى الجدالات الاجتماعية والسياسية الدائرة حول بناء المجتمع الحديث. وعلى سبيل المثال؛ رأى قاسم أمين أن قضية تحسين وضع المرأة فى المجتمع هى المدخل الأساسى لحل المشاكل الاجتماعية السائدة. ومثل الكثيرين من أقطاب التنوير، اقتنع قاسم أمين بفكرة أن الواقع المتخلف للنساء المصريات المتمثل فى قلة فرص التعليم الحديث وانعزالهم داخل بيوتهن يعد من أهم الأسباب وراء تخلف المجتمع المصرى ككل، وأن نهضة مصر مرهونة بتحسين وضع نسائها. وانطلاقاً من هذه الفكرة، كتب التنويريون معبرين عن اهتمامهم بمسألة المرأة مقالات لا حصر لها لتوبيخ النساء لكسلهن أو جهلهن أو مظهرهن غير اللائق مقارنة بأزواجهن. واعتبر تخلف النساء السبب الرئيسى وراء فشل الزيجات، وكثير من الأمراض الاجتماعية المتفشية فى المجتمع. وعموماً، تحملت النساء عبء وذنب تخلف مجتمعاتهن.

وفى هذا السياق كتبت ملك مقالاتها وحاورت الكتاب والكاتبات متطرقة إلى سبل تحسين وضع المرأة، وكيفية التعامل مع الحداثة. كما حاورتهم فى منطلقاتهم الفكرية وبعض الافتراضات الأولية التى بنوا عليها حججهم[١٨]. وأبدأ بالإشارة هنا إلى مقالة مهمة كتبتها ملك للرد على مقالة كتبها أحمد لطفى السيد تتناول فيها بالتحديدافتراضاً أساسياً لدى الكتاب التنويريين يحمل المرأة مسئولية التخلف، ليحثها على الأخذ بمظاهر الحداثة. ولأحمد لطفى السيد مكانة خاصة فى حياة ملك الثقافية، فلقد نشرت نسائياتها فى مجلة الجريدة التى كان يرأس تحريرها، كما كان من أكبر المشجعين لملك،

والمتحمسين لأفكارها وقام بكتابة مقدمة لكتابها النسائيات فى ١٩١٠.

وإذا اطلعنا على مقالات أحمد لطفى السيد المنشورة فى "الجريدة"، والتى تحث على أهمية تعليم الفتيات، نجده يتحمس كثيراً لنصرة المرأة مؤكداً ضرورة فك الحصار المفروض عليها من قبل المجتمع والرجال الأوصياء عليها. وله فى هذا مقالات عديدة وأقوال مأثورة نستمتع باسترجاعها، فمثلاً فى مقالته: "لا تضيقوا عليهن" يستنكر موقف من ينادون بتعليم المرأة وتربيتها تربية صحيحة ثم يثقلون عليها بالمحاذير والتحفظات لكى يحجروا عليها ويمنعوها من "التوغل فى تعلم العلوم التى يتعلمها الشبان". ويعلق أحمد لطفى السيد فيقول: "أليس هذا ضمناً دعوة إلى عدم تربية المرأة التى يقرونها فى أصلها؟". وهو فى موقفه هذا يختلف مع دعاة قصر تعليم المرأة على المرحلة الابتدائية وعلى المواد الملائمة لإتقان ما كان يتفق على أنه أدوارها الطبيعية. المهم أن أحمد لطفى السيد تميز بمواقف إيجابية كثيرة تجاه نهضة المرأة المصرية فى مجابهة التيارات الرجعية التى حاولت جاهدة إبقاء المرأة فى سجنها وجهلها.

وعلى هذا نجد أن ملك حفنى ناصف تكتب مقالاً فى الجريدة ترد فيه على مقالة كتبها أحمد لطفى السيد عنوانها "بناتنا وأبناؤنا"[١٩]. وإذا قرأنا هذه المقالة قراءة عابرة قد لا نفهم للوهلة الأولى لماذا شعرت ملك بضرورة الرد عليها أو مناقشة ما فيها. فالمقالة تتحدث عن أهمية تعليم المرأة المصرية، وتحذر من عواقب إهمال تعليم نصف المجتمع خاصة فى السنوات اللاحقة. وإلى هذا الحد لا توجد أية مشكلة، ولكن إذا تفحصنا بعض الافتراضات التى يبنى عليها أحمد لطفى السيد مقالته نضع يدنا على خيوط المشكلة، كما ندرك أيضاً أن هذه الافتراضات لم تجئ من قبيل السهو أو المصادفة، وإنما نجدها تعبر عن اتجاه شائع بين المفكرين فى هذا الوقت.

يستهل أحمد لطفى السيد مقالته بمقارنة بين العائلة المصرية بالأمس والعائلة اليوم (أى فى ذلك الوقت) ويقرر أن عائلة الأمس كانت عائلة سعيدة بسبب توافق الزوجين فى مستوى العلم، وبالتالى فى فهمهما للسعادة الزوجية. وكان الرجال يتزوجون أكثر من واحدة، وكانت الزوجة تتقبل هذا الوضع وترضى أن يعدل الزوج بينهما فى المعاملة والكسوة. ثم يبدى أحمد لطفى السيد، دهشته إزاء هذا الوفاق فى العائلة المصرية، بالرغم من تفشى عادة تعدد الزوجات، وقلة الوفاق فى عائلة اليوم مع اندثار تلك

العادة، أو علـى الأقل انحسارهـا فى بعض الأسر. ثم ينتـقل الكاتب إلى تحليل وضع العائلة المصرية المعاصرة، ويحاول تلمس أسباب كـثرة الخلافات الزوجية وكثرة الشكوى من الزواج بين شباب هـذا الجيل، فيرسم صورة رائعـة للشاب المصرى العصـرى، فهو متعلم، يفـهم السعادة الزوجيـة على آخر نمط قال به "الحكماء العـصريون"، ويعجب بالمرأة الرشـيقة، الرقـيقـة، البسيطـة فى لبسهـا، يحب الألوان الباهتـة ويرى أن الزينة الطبيعية أجمل من الزينة المصطنعة، ويشـعر أن الحب الحقيقى يكمن فى تبادل الثقة بين الطرفين، فيتوقع من زوجـته أن تصدقه حين يؤكد لها أنه لن يتزوج بغـيرها لأن ـ كما يستطرد لطفى السيد ـ "الزوجية متى صفت، تقتضى البقاء إلى آخر الحياة". ويصطدم هذا الشاب العـصرى المتحـضر المتذوق للفن والجـمال بزوجة جاهلـة تعتقد أن الجـمال يكمن فى السمنة والبـياض و"أن حسن الزى ينحـصر فى الأطالس والجنافس، فمـئزر على مئزر، وجلبـاب على جلباب، تحمل جسمـها ما لا يطيق وتنسى ذراعيهـا من غير قفاز". وأخـيرا فهى لا تصدقـه حين يؤكد لها وفاءه والـتزامه تجاه الزواج. وكمـا فعل قاسم أمين، يضع أحمد لطفى السـيد الرجل المصرى فى مرتبة عالية جـداً من التحضر والرقى الاجتماعى والثقافى والأخلاقى، فهـو فوق الشبهات، لا يساهم بتاتاً فى تخلف وطنه، فهو مظلوم يحـيا حياة تعيـسة بسبب قدرته على تحمل مـظاهر التخلف والتردى التى تحيط به من كل جانب، خصوصاً تلك المظاهر التى يجدها مجسدة تجسيداً فجاً فى زوجته المصرية. وكما هو متبع فى خطاب النهضة تتحمل المرأة مسئولية التخلف كاملة، كمـا تتحـمل مسئـولية مـقاومـة هذا التخلف والتـغلب عليه، مما يؤدى إلى إغـفال أو السكوت عن عوامل أخرى ساهمت فى هذا التخلف.

وتتصدى ملك لهذه الفكرة، لا لتنفى عن المرأة مسئوليـتها تجاه المجتمع، بل لتجبر الرجل على تحـمل المسئوليـة التى تقع على عـاتقه، فهـو، كمـا تصر ملك، المسـئول الأساسى، لأنه يملك زمـام الأمور، وهو المتصـرف فى شئون المرأة بحكم الوضع غـير المتساوى بين الجنسين، فإذا صلح صلحت أسرته، وإذا فسد أدى بأسرته إلى التهلكة.

وتستطرد ملك مقـالتها التى ترد فيـها على أحمد لطفى السيـد، وتحاول أن تعرض وجهة نظر المرأة وراء شكواها من الزواج العصرى. فتقول إن السبب وراء شكوى النساء من الزواج يرجع إلى سـوء خلق الرجل العصـرى، وعدم التـزامه بالأخـلاق الشرقـية

الحميـدة. فهو، وإن كان قـد قلل من عادة تعدد الزوجات، قـد تمادى فى تقليد الرجل الغربى، وأصبح يتباهى بخليلاته وبشرب الخمر والسهر، وكأن التمدن يجب أن تصحبه تلك العادات الذميمة التى ينقلها الرجل من الغـرب ويتخيل أن هذه التصرفات ضرورية أو مكملة لهـيئتـه العصـرية. وكما تفـعل وتفعل دائمـاً، تركز ملك على إحـدى نقاط الضعف فى خطاب النهضـة ـ كما أشرنا من قبل ـ وتتحدى المقـولة الشائعة بأن تخلف المرأة مسئول عن تخلف المجتمع، وتلفت النظر للدور الذى لعبه الرجل فى تدهور حال الأمة، وفى إتاحـة الفرصة لـلاستعـمار الأجنبى لإحكام سيطرتـه على البلاد فتـقول: "اسلكوا سبـيل الجد فى الحيـاة، فقد كـفاكم هزلاً أن استـعبدنا الغـير ونحن لاهون، واجعلوا من أنفسكم صراطاً تتبعه زوجاتكم، فإن كنت أيها الرجل عاقلاً فلتكن زوجتك مثلك وإن كنت خليعاً فامرأتك خليعة. . فأصلحوا أحوالكم تصلح حال نسائكم، ونقوا ورد بيوتكم من الشوك والهم، وسنوا سنةً صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم أجرها إلى يوم الدين، ولله عاقبة الأمور" (ص ٦٠).

وجاء دفاع ملك عن المرأة المصرية مبنياً على معرفتها ببواطن الأمور وبتفاصيل الحياة اليوميـة التى أحاطت المرأة بكم هائل من الخرافات وقلة الإدراك، الـذى كان يترجم إلى أفعال وتصرفات تنمّ عن التخلف. وفى خطبـة ألقيت فى الجامعة المصرية عنوانها: (فى المقـارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغـربية) توجـه ملك انتقـاداً لاذعاً إلى المرأة المصـرية، وتعيب عليها اتكالها وكسلها وإهمال شؤون بيتها، وما إلى ذلك من عيوب تراها متفشية فى مجتمعها. فهى لا تعفى المرأة من مسـئولية النهوض بأحوالها. ولكنها، حين تقارنها بالمرأة الغربية مشيْرة إلى مزايا المرأة الغربية وتقدمها الملحوظ على المرأة المصرية، لا تفعل ذلك بأسلوب المنبهر الذى يمجد المرأة الغربية فى كل شىء، ويحتقر المرأة المصرية فى كل ماتفعله، فـتحاول ملك تحطيم أسطورة المرأة الغربيـة الباهرة التى أسرت خيال كـثير من رواد الفكر المصريين، وهى لا تفعل ذلك بالذم الرخيص للمرأة الغربية، وإنما فقط بلفت النظر لبعض مساوئها التى كـثيراً ما يتناساها المتحمسون فى غمـرة حماسهم. فإذا كانت المرأة المصرية تـؤمن بالخرافات، وتعـيش فى عالم غـير عقـلانى، نجد أن "للخـرافات سلطاناً كبيراً على المـرأة الغربية" (ص ١٦٣) فهى ليست معصـومة من الخطأ كما يروج البعض. وتستطرد ملك أنه إذا كانت المرأة الغربية قد سبقتنا بمراحل فى العلم والعمل إلا

أننا لا نقل ذكاء. ثم تنبه إلى خطورة الانبهار لأن ـ كـما تقول ـ "الضعيف إذا لم يرزق قوة تمييز خيل له أن كل ما يأتيه من القوة حسن" (ص ١٦٦).

وكما أشرنا من قبل، لا يأتى هذا الحمـاس لإنصاف المرأة المصرية أمام المرأة الغربية من فراغ، وإنما هو نتيجة تراكم الهجـمات الحادة على المرأة المصرية فى خطاب النهضة. ولا تكتفـى ملك بالاستمـاتة فى إنصاف المرأة والتـنويه بأخطاء الرجل، وإنما تنجح فى الوصول إلى لب المشكلة فى خطاب النهضـة الرجولى، وهو ازدواج المعايير عند الرجل المصرى فى تقييمه المرأة الغربيـة والمصرية فتقول ملك: "زار أغلب رجالنا أوروبا والبلاد المتمدنة، ورأوا بأعينهم كيف يحترم الرجل الأوروبى امـرأته، حتى أنها مقدمة عليه فى كل مـجتـمع، فعـادوا ينادون بوجوب تعليـم المرأة ويصرحـون فى كلامـهم بأنهم من أنصارها وأنها واجـبة الاحترام. ولكن كلامـهم لا يلبث أن يذهب مع الهواء. إلا أنهم إذا اجتمعـوا بسائحة إفرنجية أو امرأة غـربية تلطفوا لها كثيـراً فساعدوها فى النزول من عربتـها، وامسكوا لهـا حقيبـتها، ورفـعوا الطرابيش إجلالاً لهـا، فى حين أن أحدهم يستنكف أن يركب مع امرأته فى مركبة واحدة"(ص ١٠٥).

فكما تلاحـظ ملك، نستطيع أن نلمس تناقـضاً صارخـاً وازدواجية فـى شخصـية الرجل المصرى المتعلم الذى يصفه أحمد لطفى السـيد، فهو يتطلع إلى المدنية الحديثة لما فيها من مزايا وسبل للتقـدم والرقى، ولكنه بدلاً من مواجهة ذاته، بدلاً من نقدها نقداً بناء يهدف إلى تعرية أماكن الضعف فيها، يتنصل من هذه المواجهة مع موروثه الحضارى المخزون داخل ذاته، ويسلك ما يبدو أنه الطـريق الأسهل فى الوصول إلى المدنية. وهذا هو مربط الفرس، وهذا هو ما يميز ملك عن أغلبيـة رواد النهضة، فهى لم تستعجل فى خطاها بل أصرت على التـأنى والأخذ بالتدرج للوصول إلى الهـدف، أو إلى النهوض بالمرأة والأمة المصرية.

أما النقطة الثـانية التى تميز كـتابات ملك؛ أنها أدركت منذ الوهلة الأولى أهمـية التعبـير عن وجهة نظر المرأة فى شـتى أمور الدنيا، وهى وجهـة نظر تستند إلى الواقع الذى تعـيشه وتشـعر به، هذا الواقع الذى قـد يصعب علـى الرجل تلمسـه أو تعرف خباياه. ففى مـقالة عنوانها: (ما ذنبنا) ترد فيها على اقتـراح نشر فى "الجريدة" بشأن تبادل النشء مـن البنين والبنات مع تركيـا، تستهل حـديثها وتقـول إنه بالرغم من أن

الكثيرين قد تناولوا هذا الاقتراح إما بالرفض أو بالقبول إلا "أنهم لم يحيطوا بالموضوع من جميع أطرافه، وعذرهم فى ذلك أنهم رجال، وقد لا يعود عليهم بالذات ضرر ما من تنفيذ ذلك المشروع. ولا يهتم بدرس اقتراح كهذا خطير إلا من قد تقع عليه أضراره فيما لو نفذ. ونحن معشر النساء المصريات أكثر الناس تعرضاً لمثل ذلك الخطر" (ص ٦٥) فبالرغم من تبنى رواد النهضة لقضية المرأة فإنهم صاغوها فى صيغة مشبعة بأفكارهم ومنطلقاتهم، وجاءت ملك لتركز على أهمية إتاحة الفرصة للمرأة لتقرير مصيرها، والبت فى شؤونها، والتعبير عن وجهة نظرها فى الأمور كافة. والسبيل الأوحد لتمكين المرأة من تكوين وجهة نظر خاصة بها هو التركيز على التعليم، فدون تعليم لا تتحرر المرأة ولا تخرج من شرنقتها.

وفى أول خطبة تلقيها ملك، تتصدى لمؤيدى فكرة اقتصار تعليم الفتيات على المرحلة الابتدائية فقط، بحجة أنها لن تحتاج إلى قدر أكبر من التعليم فى إدارة شؤون منزلها وتربية أولادها، فترفض ملك هذا المنظور النفعى السلطوى الذى يكرس فكرة وجود المرأة لخدمة الرجل؛ فإذا كان من مصلحة الرجل مثلاً أن تتعلم المرأة الحياكة فقط، فهذا ما يجب أن تفعله، فهى فى النهاية لا يحق لها التطلع إلى ما هو أفضل. وتطرح ملك قضية تعليم المرأة فى صيغة مختلفة؛ فهى لا تتجاهل الناحية العملية البحتة، فتطالب مثلاً بتعليم البنات مهنة الطب بالذات لكى تصبح المرأة طبيبة نفسها، ولكنها أيضاً تتحدث عن العلم كقيمة تطلب لذاتها فتقول: "العلم نور للعقل على أية حال سواء عمل به أو لم يعمل. . ولو لم يكن للعلم لذة فى ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك، وهم واثقون من أنهم لن يكونوا مهندسين ولا بحارة ولا سائقى قطارات" (ص١٣٧).

أما النقطة الثالثة التى تميز كتاباتها فجاءت نتيجة لإعمال عقلها والتعبير عن وجهة نظرها دون التقيد بالمسلمات. فلقد وثقت فى قدرتها على التفكير فلم تقبل مقولات تحد من دور المرأة أو تحط من شأنها بالمقارنة بالرجل. ولقد أدى بها هذا الأسلوب فى مناقشة الأفكار والنظريات إلى التحرر من سطوة النظريات التى تبدو وكأنها حقائق أبدية وهى فى واقع الأمر آراء إنسانية. وتناقش فكرة تقسيم الأدوار لتؤكد أنها ظاهرة تاريخية وليست ظاهرة طبيعية: "يقول لنا الرجال ويجزمون: إنكن خلقتن للبيت ونحن خلقنا لجلب المعاش، فليت شعرى: أى فرمان صدر بذلك من عند الله، ومن أين لهم معرفة

ذلك والجزم به ولم يصدر به كتاب" (ص ١٣٤).

فتبين ملك أن وضع المرأة الحالى المرتبط بالمنزل وشؤون الأولاد ليس مرهوناً بطبيعة المرأة الأزلية، وإنما بفترة تاريخية محددة تم فيها استبعاد المرأة من الحياة العامة وحصر دورها فى نطاق الحياة الخاصة. وتستكمل تحليلها لمقولة إن المرأة أضعف من الرجل، وإنها لا تستطيع تحمل المسئوليات التى يتحملها فتقول: "وما ضعفنا الآن عن مزاولة الأعمال الشاقة إلا نتيجة قلة الممارسة لتلك الأعمال، وإلا فإن المرأة الأولى كانت تضارع الرجل شدة وبأسا. أليست المرأة القروية كأختها المدنية؟ فلماذا تفوق الأولى الثانية فى الصحة والقوة؟ وهل ترتبن فى أن امرأة من المنوفية تصرع أعظم رجل من رجال الغورية لو صارعته؟" (ص١٣٤).

ثم ترد أيضاً على المقولة الشائعة التى يتفوه بها كل من يريد أن يقلل من شأن المرأة فيسوق حجة قلة إنجازاتها أو اكتشافاتها عبر التاريخ مقارنة بالرجل؛ فتعلن ملك: "لو كنت ركبت المركب مع خريستوف كلومب لما تعذر علىّ أنا أيضاً أن أستكشف أمريكا. وحقيقة أن النساء لم يخترعن اختراعات عظيمة، ولكن كان منهن نابغات فى العلوم والسياسة والفنون الجميلة، أى فيما سمح لهن بممارسته" (ص ١٣٥).

ويكتشف القارئ مدى وعى ملك بالبعد التاريخى فى حكمها وتقييمها لأنماط السلوك والأشكال الاجتماعية كافة. وبسبب هذا الوعى تتحرر من سطوة النمط السائد على تفكيرها، ولا تصبح سجينة للمنطق الذى يصنف الاختلافات فى الأدوار التى يمارسها الرجل والمرأة، وبهذا المنطق نصل إلى نتيجة حتمية الوضع القائم، أى أنه لا يوجد ملاذ ولا أمل فى تغيير النمط الحالى لشكل العلاقة بين الرجل والمرأة، فهو موجود لأنه طبيعى ولأنه أزلى. وتتخطى ملك ناصف هذا العائق الهائل، لأنها تستند إلى تجربتها وواقع حياتها وعملها فى تحليلها الأمور فلم تتقيد بالأراء المتداولة، تلك الآراء التى غالباً ما تعبر عن وجهة نظر الرجل عن العالم. وبسبب هذه الحرية الحقيقية، تعارض ملك دعوى قاسم أمين لسفور المرأة ولا تعبأ أن تتهم بالرجعية والمحافظة. وهذا يرجع إلى سببين: أولهما؛ أنها، كما أشرنا من قبل، أدركت أهمية استقلال المرأة برأيها، والعمل على النهوض بوضعها من واقع تجربتها واحتياجاتها هى، لا من واقع احتياجات ورغبات الرجل؛ فكانت مثلاً عندما تسأل عن رأيها فى السفور والحجاب

تجيب: "علموا البنت ثم اتركوا لها الاختيار" (ص ٦٤).

أى أنه من المهم جداً أن تنبع القـرارات الخاصة بوضع المرأة من منطلق احتيـاجاتها هى بالذات. والسبب الثانى؛ تؤكده ملك فى جوابهـا هذا أيضاً؛ فهى تركز على أهمية تبنى قضية التعليم لا قضية السفـور والحجاب. وهذه نقطة غاية فى الأهمية، فقد كانت ملك تخشى التعجل فى تقليـد المظاهر الخارجية للمدنية الغربية على حـساب الاستفادة الواعية من أسس التقدم.

وقد يكون من المفـيد التوقـف قليلاً عند رأيها فى الحـجاب، خاصـة وأن موقفـها المعارض لقاسم أمين فى هذا الشأن يشار إليه فى كل مرة يجرى الحديث فيها عن ملك، أو تجرى أية محاولة لتقييم موقفهـا واتجاهاتها. بالإضافة إلى ذلك، فلقد أصبح السفور أو نزع الحجاب فى خطاب النهضة رمزاً للتحرر والمدنية فى مواجهة التيار المحافظ، الذى اعتبـر الحجاب رمزاً للتمسك بالـهوية العربية. ولقد خالفـت ملك هذين الفريقين. فلا المغالاة فى التـحجب دليل على المحـافظة، ولا المغالاة فى التبـرج أو اتباع آخر مـوضة علامـة على التـمدن أو التـحرر، وإنما العـبرة بالوعى السليم والمعـرفة والعلم. ولـهذا رفضت ملك إضفـاء أية أهمية على حجـاب وسفور المرأة، وعدته شيـئاً ثانوياً لا يجدر الحديث فيه قبل الخوض فى أمور أكثر جدية وأكثر إلحاحاً.

وفى رسالة موجهة إلى مى زيادة نشرت فى (المحروسة) و (الجريدة) تلخص موقفها من سفور المرأة فتؤكد لمى أنها لا ترى أن المجتمع على استعداد لتقبل هذا التغيير المفاجئ بطريقة صحية: فـالرجال مازالوا يتحرشون بالمرأة، ويتعاملون معـها على أنها سلعة تباع وتشتـرى، كما أنهم يـناقشون مـشكلتها من مـوقف متعـال متجـاهلين سلوكهم غـير المتحضر، وتصل إلى نتيجة تعبر عنهـا ببلاغة ووضوح فتقول: "فليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختـار أرشدها، ولا يسـتبد فى تحـريرنا كما اسـتبـد فى استعـبادنا. إننا سـئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس وإنما نخاف عينيه ولسانه، فإن وعدنا أن يغض بصره كـما يأمـره دينه، وأن يكن لسانه كمـا يوصيه الأدب، نـظرنا فى أمرنا وأمره" (ص ٢٠٢).

ويظهر لـنا أن هذا التحفـظ الشديد إزاء نقل مظاهر المدنيـة الغربيـة يعد سـمة من السمات المميزة لموقف ملك من النهضة، بل إنه موقف يضـعها فى كثير من الأحيان فى

موضع الصراع مع بعض مفكرى العصر، نظراً للمغالاة الملحوظة عند بعض الرواد فى الانحياز للنموذج الغربى. فإذا قارنا مثلاً بين رأى سلامة موسى فى موضوع الأزياء أو أى زى نرتدى ورأى ملك فى هذا الشأن؛ يتضح لنا مدى وعى ملك بالمشاكل المترتبة عن التقليد غير الواعى. ففى مقالة لسلامة موسى عن "فلسفة اللباس"، يتحمس بشدة لتعميم الزى الإفرنجى ويهاجم محاولات بعض الشباب المصرى لاختراع زى مصرى خاص بنا، ويستند فى حديثه إلى حجة أن هذه الحضارة الغربية غمرتنا واكتسحت تقاليدنا القديمة، ولهذا فهى الأجدر بالبقاء والاستمرار، ثم يختتم قائلاً: "أرى لغرامى بالحضارة الأوروبية، وهى حضارة العالم أجمع الآن، أن أحث بنى وطنى على أن يلبسوا القبعة دون الطربوش، لا لأنها تقينا من الشمس والمطر وهو لا يقينا، بل لأنها تبعث فينا العقلية الأوروبية"[٢٠] وبهذه الكلمات يحث سلامة موسى بنى وطنه على التشبه غير المشروط بمظاهر الحياة الغربية، ويتبنى مبدأ أن الملابس الغربية من متطلبات التقدم، وأنها ضرورية لنا أيضاً إذا أردنا المضى فى طريق التحديث. وعلى القياس، تصبح الملابس الشرقية شعاراً ودليلاً للتخلف، ويصبح حجاب النساء أكبر عائق فى سبيل تحررهن من القيود المفروضة عليهن.

ولقد أشار عديد من الباحثين والباحثات من أمثال ليلى أحمد إلى دور المستعمر الإنجليزى فى الربط بين حجاب النساء وتخلف المجتمعات العربية والإسلامية[٢١]. ولأسباب عديدة، استقر حجاب النساء بوصفه رمزاً للهوية الإسلامية، وتبناه واقتنع به جميع الأطراف، وتحول الدفاع عنه أو الهجوم عليه إلى تعبير جيد عن الاتجاهات الفكرية السائدة، وتم تجميده والإصرار عليه.

وفى المقابل، ترفض ملك هذه الأنماط الجاهزة والصور المفروضة على مجتمعاتنا وتحاول التدقيق فى مسألة الملابس والحجاب دون التقيد بالآراء السائدة حول هذا الموضوع. ففى مسألة اللباس؛ ترفض رفضاً باتاً محاكاة الأزياء الإفرنجية، لا بسبب تعصب أو تعنت حضارى، وإنما بسبب عدم ملائمتها لبيئتنا وجونا. فتقول: "الملابس الشرقية أخف مئونة وأيسر كلفة وأشد ملاءمة لجونا الحار وصيفنا المحرق من الملابس الإفرنجية، فهى جلباب يلبس مرة واحدة فوق الملابس الدنيا وعند الخروج تلبس فوقه الملاءة، أما الملابس الإفرنجية، فإنها متعددة القطع مضاعفة التركيب عسرة اللبس

والنزع، فمن مشد يخنق الخاصرة، ويعتصر الكبد والطحال، ويضغط على الأحشاء ويمنع الجلد من التنفس الطبيعى اللازم له، ومن بنيقة (ياقة) منشاء كالورق لا تستطيع المرأة فيها لف رقبتها ولا الانثناء لقضاء أى عمل"(ص١٥٥).

وتقوم ملك بتعرية أكذوبة أن الملابس الغربية أكثر تحرراً أو أكثر ملاءمة لمتطلبات العصر الحديث بنقدها اللاذع لما تلبسه المرأة الغربية فى أوائل القرن. هذا اللباس الذى أراد البعض إقناع المرأة المصرية أنه سبيلها إلى التحرر من عبودية الملابس الشرقية. المهم أن هذين الاستشهادين ليسا فى حاجة إلى تعليق، وإنما نكتفى بالإشارة إلى قدرة ملك الفائقة على وضع النقاط فوق الحروف، أو على اكتشاف الاتجاهات التى تؤدى فى نهاية المطاف إلى التبعية. وفى مقالة أخرى لها عن طلاء الوجوه تنتقد ملك محاولة بعض النساء التشبه بالغربيات فى استخدام طلاء الوجوه، بل فى محاولة إضفاء اللون الأبيض على وجوههن فتقول: "اعلمن أننا مصريات، فإن لم يكن فى أجدادنا أصل العجمة، فمن أين لنا هذا البياض الناصع والاحمرار الشديد، وما أحلى السمرة الجاذبة لو تفهمين معناها، إنها جميلة لأنها جميلة ولأنها مصرية، ولو لم يكن فيها غير المصرية والطبيعة لكفى، وكل طبيعى جميل"(ص٨٥).

ولكى نفهم تمسكها هذا بمعايير جمال مصرية، ورفض استيراد معايير جمال غربية، علينا أن نتذكر افتتان الرجال فى أوائل القرن بكل ما يتعلق بالمرأة الغربية، ونقدهم المتواصل للمرأة المصرية. وربما نتيجة لهذا أيضاً، لاحظت ملك خاصية أخرى من خصائص خطاب النهضة الموجه للمرأة. فقد دأب رواد النهضة على مخاطبة المرأة على أنها المسئولة الأولى عن انحطاط الأمة وتخلفها، فأينما يرد الحديث عن أسباب تأخر الأمة المصرية نجد المرأة دائماً تتصدر قائمة الأسباب، وتحمل وزر التخلف والتبعية، وكأن الرجل برئ من أية مسئولية لما حل بالأمة فتقول: "قطع رجال الإصلاح فى مصر شوطاً بعيداً للتنقيب عما يجعل الأمة المصرية فى مصاف الأمم الراقية، فلم يظفروا بضالتهم، وبعد لأى ألقوا الذنب فى تأخير الأمة المصرية على المرأة المسكينة، وقالوا: لو كانت المرأة المصرية راقية لأخرجت للعالم أبناء ناشطين، وأزواجاً حكماء، وأسراً منظمة، ووقفوا عند هذا الحد ينتظرون ما يقضيه لهم الدهر من ارتفاع شأن المرأة ورقيها، ويهيؤه لهم الاتفاق لصلاحها. كأن المرأة تلهم الإصلاح إلهاماً ولا تتعلمه تعليماً، ثم تقول لهم

بما عجزوا عنه"[٢٢].

ولهذا نخلص إلى أن ملك تنتقد السفور، لا حباً فى الحجاب، وإنما لأنه جاء نتيجة تقليد عادات الغرب، ولأنه جاء قبل أن تتسلح المرأة بالعلم فتختار لنفسها الزى الذى ترضاه لا الزى الذى يفترض أنه أفضل لها. ففى حجابها وسفورها تظل المرأة رهن إرادة الرجل ورهن أهوائه المتغيرة. وعلى هذا الأساس، نكتشف أن رأيها فى الحجاب لا يمكن أن يؤخذ دليلاً على تمسكها بالتقاليد، وخوفها من كسر تلك التقاليد بسبب ضعف مكانتها. إن رأيها فى الحجاب دليل قاطع على سمات مهمة فى كتابات ملك: أولاً؛ رفضها قبول التناقض المفتعل بين الحداثة والتراث، ثانياً، عدم قبولها فكرة أن نزع الحجاب رمز للتحرر. وهى الفكرة التى تبناها نفر كبير من رواد النهضة، ثالثاً، إصرارها على أهمية أن تتولى النساء شئون نهضتهن وأن لا ينسقن وفق أهواء آخرين يخططن لهن طريق تقدمهن، رابعاً، حذرها من تبنى مظاهر الحضارة الأوربية، خاصة فيما يتبدى كالقشور، رابعاً، قوة الملاحظة المستندة إلى الخبرة الحياتية.

وليس الهدف من هذه المقارنة بين ملك حفنى ناصف وبعض رواد النهضة التشكيك فى تمسكهم بهويتهم أو محاكمتهم أو الطعن فى إخلاصهم؛ فقد بذلوا من الجهد ما لا يمكن إنكاره، كما أنهم ساهموا مساهمة فعالة فى دفع عجلة التقدم. وإنما الهدف وراء هذه المقارنة هو محاولة فهم العوامل الخفية التى ربما قد ساهمت فى إجهاض مشروع النهضة، وقد كانت ملك من أوائل من تنبهوا إلى خطورة بعض الاتجاهات التى سادت فى بدايات هذا القرن.

وفى الختام، نعيد نشر كتاب النسائيات لأهمية ما يحتويه من أفكار، ولنقرأه من منطلق الأسئلة التى تلح علينا فى الحاضر على أمل أن تساعدنا كتاباتها على صياغة أسئلة جديدة تصل بنا إلى حلول ممكنة.

هوامش

(١) جميع الاستشهادات من النسائيات مأخوذة من هذه النسخة.

(٢) هناك صعوبة فى تحديد التاريخ الذى أعيد فيه نشر النسائيات الجزء الأول والثانى. يقول مجد الدين فى **آثار باحثة البادية** إن تاريخ النشر هو سنة ١٩٢٠ أى بعد سنتين

فقط من وفاة ملك. إلا أن النسخة المقصودة تحتوى على مقالة كتبت بعد سبع سنوات من وفاة ملك بقلم فريدة فوزى، المشرفة على القسم النسائى بـ"**مجلة الحسان**" تعرض فيها لوقائع تأبين ملك الذى شاركت فيه جمهرة من النساء. مما يرجح أن الكتاب أعيد نشره سنة ١٩٢٥.

(٣) **آثار باحثة البادية** (ملك حفنى ناصف ١٨٨٦-١٩١٨)، جمع وتبويب مجد الدين حفنى ناصف، تقديم الدكتورة سهير القلماوى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٢.

(٤) انظر كتاب جوزيف زيدان (Joseph Zeidan **Arab Women Novelists: The Formative Years**, Sunny Press, 1995) واخترت الإشارة إلى كتاب منشور حديثاً لتأكيد فكرة استمرارية هذه الآراء وانتشارها إلى يومنا هذا.

(٥) انظر Fouad Ajami, **The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey**, (New York, Pantheon, 1998), p.15.

(٦) محمود غنيم، **حفنى ناصف: بطولة فى مختلف الميادين**، سلسلة أعلام العرب ٤٧، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٩٦٥، ص٨.

(٧) مقابلة مع الدكتورة كوكب حفنى ناصف يوم ٢١ يوليو ١٩٩٨.

(٨) مقابلة مع الدكتورة كوكب حفنى ناصف يوم ٢١ يوليو ١٩٩٨.

(٩) زينب فواز، كتاب **الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور**، ١٨٩٤.

(١٠) مى زيادة، **باحثة البادية**: بحث انتقادى، القاهرة، مطبعة المقتطف؛ **وردة اليازجى**، القاهرة، مطبعة البلاغ، دون تاريخ؛ و**عائشة تيمور: شاعرة الطليعة**، القاهرة مطبعة المقتطف، ١٩٢٦.

(١١) سهير القلماوى، **مقدمة فى آثار باحثة البادية**، ص٣٣.

(١٢) المرجع السابق ص١٠.

(١٣) المرجع السابق ص١٦.

(١٤) المرجع السابق ص١١.

(١٥) عبد السلام العشرى، **باحثة البادية (ملك حفنى ناصف)**. إدارة الشئون العامة فى

وزارة التربية والتعليم، ١٩٥٨.

(١٦) عبد المتعال محمد الجبرى، **المسلمة العصرية عند باحثة البادية ملك حفنى ناصف**، القاهرة، مطبعة دار البيان، ١٩٧٦.

(١٧) انظر سيرة ملك بقلم مجد الدين ناصف فى كتاب **آثار باحثة البادية**، وتتضمن قائمة ببعض المقالات والكتب التى تذكر ملك.

(١٨) نشرت مقاطع من هذا الجزء فى مقالة سابقة لى فى كتاب **هاجر٢** عنوانها "ملك حفنى ناصف: حلقة مفقودة فى تاريخ النهضة" (القاهرة، دار سينا للنشر، ١٩٩٤).

(١٩) انظر أحمد لطفى السيد، **المنتخبات**، دار النشر الحديث، ١٩٣٧.

(٢٠) سلامة موسى، "فلسفة اللباس" **فى اليوم والغد**، المطبعة العصرية، ١٩٢٧.

(٢١) انظر Leila Ahmed, **Women and Gender in Islam**, New Haven and London, Yale University Press, 1992.

(٢٢) **آثار باحثة البادية**، ص١١٤.

ملك حفنى ناصف

تسلسل زمنى معاصر

أعدته: نادية واصف

١٨٣٢ ــ إنشاء مدرسة المولدات/ الحكيمات.

١٨٤٠ ــ مولد عائشة التيمورية.

١٨٤٨ ــ انتهاء حكم محمد على.

١٨٥٠ ــ مولد زينب فواز (هناك اختلاف بين المراجع حول تاريخ ميلادها، حيث يشير البعض إلى أنه فى ١٨٦٠).

١٨٥٦ ــ مولد مريم النحاس

١٨٦٠ ــ مولد هند نوفل.

١٨٧٣ ــ دخول عائشة التيمورية مدرسة حكومية.

١٨٧٥ ــ قيام الأخوين اللبنانيين تقلا بتأسيس جريدة ***الأهرام*** يوم ٢٧ ديسمبر فى الإسكندرية.

١٨٧٦ ــ صدور العدد الأول من جريدة ***الأهرام*** فى أغسطس.

١٨٧٧ ــ قيام ميخائيل عبد السيد بتأسيس جريدة ***الوطن*** (تذكر بعض المصادر أن تاريخ التأسيس هو ١٨٧٨).

ــ قيام يعقوب صنوع بتأسيس جريدة ***أبو نظارة*** وهى أول صحيفة ساخرة تصدر بالعامية المصرية.

١٨٧٩ ــ إصدار كتاب مريم النحاس: ***معرض الحسناء فى تراجم مشاهير النساء.***

ــ مولد هدى شعراوى.

١٨٨١ ــ تطبيق قانون الصحافة، الذى يمنح وزير الداخلية الحق فى وقف أية صحيفة دون محاكمة وتطبيق عقوبات النفى على العاملين بها لقيامهم بأنشطة سياسية غير مرغوب فيها فى ٢٦ نوفمبر.

١٨٨٢ ــ ثورة عرابى.

ــ بدء الاحتلال البريطانى لمصر.

١٨٨٦ — مولد ملك حفنى ناصف. ويشير أخوها إلى أن اسم ملك أطلق عليها نسبة إلى السلطانة ملك التى كانت قد تزوجت من السلطان حسين كامل يوم مولد ملك.

— مولد نبوية موسى يوم ١٧ ديسمبر (تشير بعض المصادر إلى أن تاريخ ميلادها هو عام ١٨٩٠).

١٨٨٧ — إصدار كتاب عائشة التيمورية: ***نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال.***

١٨٨٩ — إنشاء مدرسة السنية للفتيات.

— تأسيس صحيفة ***المؤيد*** من قبل الشيخ على يوسف.

— تأسيس صحيفة ***المقطم*** من قبل فارس نمر ويعقوب صروف (لايوجد تاريخ دقيق وإنما تشير المصادر إلى أن إصدار ***المقطم*** توافق مع إصدار ***المؤيد***).

١٨٩١ — بدأت زينب فواز كتابة ***الدر المنثور*** فى ٧ أكتوبر.

١٨٩٢ — شهد شهر نوفمبر إصدار أول صحيفة نسائية: ***الفتاة*** (شهرية). كانت تصدر فى الإسكندرية ورأست تحريرها هند نوفل.

— صدور ***الهلال*** لصاحبها جورجى زيدان فى سبتمبر.

١٨٩٣ — صدور قصة ***حُسن العواقب*** بقلم زينب فواز.

— صدور كتاب ***مصر والمصريين*** للدوق داركور الذى استثار قاسم أمين للرد عليه فى كتابه ***المصريين: رداً على الدوق داركور*** (١٨٩٤).

— وفاة على مبارك.

١٨٩٤ — صدور كتاب ***الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور***لزينب فواز.

— صدور مسرحية ***المرأة فى الشرق*** لمرقس فهمى.

١٨٩٥ — تأسيس مجلة ***مصر*** من قبل تادرس المنقبادى.

١٨٩٦ — تأسيس المجلة النسائية الثانية: ***الفردوس*** للويز حبالين فى شهر يونيو.

— صدور مجلة ***مرآة الحسناء*** من قبل سليم سركيس (١٨٦٢-١٩٢٦) بالاسم المستعار مريم مظهر فى شهر نوفمبر فى القاهرة.

١٨٩٨ — تأسيس مجلة ***أنيس الجليس*** فى الإسكندرية لصاحبتها ألكسندرا أفيرنيو.

١٨٩٩ – قيام إستر أزهرى مويال (١٨٧٣– ١٩٤٨) بتأسيس ***العائلة***.
– صدور كتاب ***تحرير المرأة*** لقاسم أمين.
– تعيين محمد عبده مفتياً لمصر.

١٩٠٠ – حصول ملك على الشهادة الابتدائية وتخرجها من مدرسة السنية.
– سفر ألكسندرا أفيرنيو إلى باريس لتمثيل المرأة المصرية فى مؤتمر الاتحاد النسائى العالمى للسلام.
– صدور كتاب ***المرأة الجديدة*** لقاسم أمين.
– تأسيس جريدة ***اللواء*** من قبل مصطفى كامل للتعبير عن آراء الحزب الوطنى.

١٩٠١ – تأسيس مجلة ***المرأة*** ورأست تحريرها أنيسة عطا الله.
– تأسيس مجلة ***شجرة الدر*** ورأست تحريرها سعدية سعد الدين زادة.
– إنشاء جمعية تعليم البنات الإسلاميات لتوفير تعليم مجانى للبنات.
– بدء إرسال الدولة بعثات تدريب المعلمات إلى الخارج (بعد بعثات الرجال بقرن من الزمن).

١٩٠٢ – وفاة عائشة التيمورية.
– تأسيس مجلة ***الزهرة*** لمريم سعد.
– تأسيس مجلة ***السعادة*** لرجينا عوض.
– تفشى وباء الكوليرا.

١٩٠٣ – حصول ملك على دبلوم المعلمات.
– اجتياز نبوية موسى امتحان الابتدائية فى مدرسة عباس الابتدائية.
– صدور مجلة ***السيدات والبنات*** لروزا أنطون فى الإسكندرية.

١٩٠٤ – صدور رواية ***قلب الرجل*** للبيبة هاشم.

١٩٠٥ – تعيين ملك مدرسة بمدرسة السنية.
– وفاة محمد عبده.

١٩٠٦ – تخرج نبوية موسى من مدرسة السنية ويتم توظيفها مُدرسة فى قسم البنات بمدرسة عباس الابتدائية.
– تأسيس مجلة ***فتاة الشرق*** لصاحبتها لبيبة هاشم.

ـ صدور كتاب ***الرسائل الزينبية*** لزينب فواز الذى أعيد نشره فى ١٩١٠ (تذكر مصادر أخرى أنه نشر فى ١٨٩٧ وأعيد نشره فى ١٩١٥).

١٩٠٧ ـ استقالة ملك من وظيفتها كمـدرسة وزواجها من عبد الستار الباسل ثم انتقالها للفيوم واتخاذها لنفسها الاسم المستعار: باحثة البادية.

ـ تأسيس ***الريحانة*** فى حلوان لصاحبتها جميلة حافظ.

ـ تأسيس مجلة ***الجريدة*** للتعبير عن آراء حزب الأمة ورأس تحريرها أحمد لطفى السيد.

ـ قيام مصطفى كامل بإنشاء الحزب الوطنى فى الإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر.

ـ استقالة اللورد كرومر من منصبه بوصفه القنصل العام البريطانى.

١٩٠٨ ـ حصول نبوية موسى على الشهادة الثانوية بالرغم من محاولة المستشار التعليمى البريطانى (دوجلاس دانلوب) منعها من ذلك.

ـ قيام لبيبة هاشم بإرسال خطاب مفتوح إلى البرلمان العثمانى مطالبة فيه بتعليم البنات.

ـ إنشاء ***جمعية ترقى المرأة*** من قبل فاطمة راشد وآخرين.

ـ مولد درية شفيق.

ـ وفاة مصطفى كامل فى فبراير.

ـ افتتاح الجامعة المصرية فى ديسمبر.

ـ بدء التدريس فى الفرع النسائى بالجامعة المصرية.

١٩٠٩ ـ إلقاء ملك محاضرة على مئات من السيدات فى نادى حزب الأمة.

ـ صدور ***مرشد الأطفال*** وهى مجلة أسبوعية لأنجلينا أبو شعير.

ـ صدور ***العائلة القبطية*** وهى مجلة شهرية صدرت بالعامية فى الإسكندرية، المحررون غير معروفين.

ـ صدور ***الأعمال اليدوية للسيدات*** وهى جريدة عربية ـ فرنسية، وقد أصدرتها فى القاهرة الآنسة فاسيلا وشقيقتها (وتقول المصادر إنهما قد تكونان من أصل يونانى، ولكن لا يعرف عنهما إلا القليل).

ـ صدور مجلة ***البرنسيسة*** لفتنة هانم.

ـ تكوين مبرّات محمد على.
ـ إعادة العمل بقانون الصحافة لعام ١٨٨١ فى ٢٥ مارس.

١٩١٠ ـ صدور كتاب ***النسائيات*** لملك، مع مقدمة بقلم أحمد لطفى السيد.
ـ إلقاء نبوية موسى محاضرات بعنوان: "مواضيع عصرية" فى الفرع النسائى بالجامعة المصرية.
ـ صدور صحيفة ***العفاف*** لسليمان السالمى وكانت العاملات بها من النساء.

١٩١١ ـ كتابة ملك خطاب عن "التقدم للمرأة المصرية المسلمة" تم تقديمه للتجمع الوطنى فى هليوبوليس وقراءة أحمد مصطفى له فى غيابها فى أبريل.
ـ كتابة نبوية موسى لكتاب ***المطالعة العربية*** لأنها أرادت نصاً يخاطب الفتيات.
ـ قيام نبوية موسى بإلقاء محاضرات حول "تاريخ مصر القديم والمعاصر مع ذكر خاص لمشاهير النساء" فى الفرع النسائى فى الجامعة المصرية.
ـ نشر مجموعة محاضرات لبيبة هاشم فى" ***كتاب فى التربية***".

١٩١٢ ـ صدور مجلة ***الجميلة*** لفاطمة توفيق.
ـ صدور دراسة عن ***العائلة المصرية*** لأوليفيا عبد الشهيد.
ـ إغلاق الفرع النسائى فى الجامعة المصرية فى الفترة ما بين ١٩١٢ و ١٩١٣ بعد تزايد اعتراض الطلاب.

١٩١٣ ـ صدور مجلة ***فتاة النيل*** لسارة الميهية.
ـ قبول تدريس كتاب هند آمون عن التاريخ الأوروبى فى مدارس الدولة مع رفض وزارة التربية وضع اسم المؤلفة على الغلاف.
ـ نشر مجلة ***الجريدة*** لرواية ***زينب*** لمحمد حسنين هيكل.

١٩١٤ ـ تكوين كل من ملك وهدى شعراوى ونبوية موسى الاتحاد النسائى التهذيبى.
ـ وفاة زينب فواز.
ـ إعلان فرض الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر.

	ـ بدء الحرب العالمية الأولى.
١٩١٥	ـ صدور كتاب ***ربة الدار*** لملكة سعد، الذى تم الاستعانة به فيما بعد فى مدارس الدولة.
	ـ قيام المجموعة المشرفة على مجلة ***الجريدة*** بإصدار مجلة قاهرية أسبوعية بعنوان ***السفور*** ومحررها عبد الحميد حمدى فى مايو.
١٩١٦	ـ تأسيس ***جمعية النهضة النسائية*** برئاسة فاطمة عاصم.
١٩١٨	ـ وفاة ملك فى ١٧ أكتوبر.
	ـ تأبين ملك وقيام هدى شعراوى بإلقاء أول خطبة لها فى هذه المناسبة.
	ـ نفى سعد زغلول وعضوين آخرين من حزب الوفد إلى مالطا.
١٩١٩	ـ إنشاء ***جمعية المرأة الجديدة***.
	ـ القبض على سعد زغلول وإسماعيل صدقى وحمد باسل ونفيهم إلى مالطا يوم ٨ مارس.
	ـ قيام الثورة، وخروج النساء والرجال إلى الشوارع للمطالبة بالاستقلال.
١٩٢٠	ـ صدور كتاب ***المرأة والعمل*** لنبوية موسى.
	ـ بدء مفاوضات سعد زغلول مع بعثة ملنر فى يونيو.
١٩٢١	ـ تشكيل عدلى يكن حكومة جديدة فى مارس.
١٩٢٢	ـ سفر كوكب حفنى ناصف إلى إنجلترا لدراسة الطب.
	ـ صدور مجلة ***النهضة النسائية*** للبيبة أحمد.
	ـ صدور تصريح من الحكومة البريطانية بخصوص مصر، تعترف فيه بريطانيا بمصر دولة مستقلة لها سيادتها، على أن يتم فرض التحفظات الأربعة التى وضعها الإنجليز فى ٢٢ فبراير.
	ـ تشكيل عبد الخالق ثروت حكومة وذلك لوضع دستور الدولة الجديدة فى أول مارس.
١٩٢٣	ـ تأسيس الاتحاد النسائى المصرى.
	ـ سفر كل من هدى شعراوى وسيزا نبراوى ونبوية موسى إلى روما لحضور المؤتمر النسائى الدولى.
	ـ إعلان الدستور المصرى وحرمان النساء من حق التصويت فى ١٩ أبريل.

١٩٢٤ ــ إقامة احتفال في ذكرى ملك حفنى ناصف للمرة الأولى منذ وفاتها.

ــ تعيين نبوية موسى موجهة أولى لتعليم البنات فى وزارة التعليم.

ــ القبض على ألكسندرا أفيرنيو بتهمة التورط فى محاولة اغتيال سعد زغلول فى يوليو.

ــ وفاة وردة اليازجى وهى شاعرة سورية كانت تربطها علاقة قوية بالنسويات.

ــ صدور كتاب ***شهيرات النساء فى العالم الإسلامى*** لقدرية حسين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله. والصلاة والسلام على رسول الله. (وبعد) فإنى فكرت فى جمع مقالاتى (النسائيات) وطبعها كتاباً أقدمه للأمة المصرية الكريمة راجية أن تغفر لى زلة القلم فيه فإنى مبتدئة ولا يعدم المبتدئ أغلاطاً. وعسى أن تقرأه الفتيات والسيدات المصريات فهو مذكر للائى غنين منهن بأصالة رأيهن وحسن تربيتهن عن استجداء النصيحة ومرشد للائى يسترشدنه.

لا أدعى فيه ابتداعاً ولا إبداعاً، فما هو إلا سلسلة مشاهدات وتجارب أثرت فىَّ فدونتها ليتعظ بها غيرى ممن لم تعركه الحوادث ولم تتيسر له التجارب، وما قصدت إلا النفع العام والدفاع عن المرأة المصرية المهيضة الجناح، ولعل الله يحقق هذا القصد ويشد أزرنا لما فيه إعلاء شأننا وتقوية الفضائل فى أخلاق هذه الأمة بحسن القيام على تربية أبنائها. والله الهادى إلى الطريق القويم.

ملك حفنى ناصف

مقدمة

بقلم: أحمد لطفى السيد

كان فى الشتاء الأسبق أن نظارة المعارف أحالت ناظرة مدرسة السنية على مجلس التأديب لشذوذها عن حدود قانون النظارة، فكتبت وقتئذ كلمة فى الجريدة استعطفت بها مجلس التأديب على تلك السيدة وكان بعض ما استشفعت به لها إنها من الجنس اللطيف. شق هذا القول على سيدة فرنساوية سائحة فى مصر، وقتئذ، فأقبلت علىّ تعاتبنى على قلة الحيطة التى اتخذتها فى كلامى، وانبرت تقرر أن المرأة والرجل سيان فى الحقوق والواجبات فيجب أن يكونا كذلك فى المسئولية أيضاً، وأن الذى يستشفع للمرأة بجنسها ليسىء إليها من حيث يريد الإحسان.

لم أكن قبل هذا الإلفات متردداً فيما للمرأة من الحقوق، ولا جاهلاً بما يستتبع للحقوق من الواجبات. ولم أك ظنيناً فى دفاعى عن هذا الجنس مهضوم الحقوق فى كل زمان وفى كل مكان حيث القوة غالبة على الحق. ولكنى مع ذلك، فى تلك الحادثة، كانت كلمتى تشف عن رأيى فى أن المساواة بين الرجل وبين المرأة لا يصح أن تقرر على إطلاقها، بل يجب أن تكون تلك المساواة محدودة فى مصر بالحدود الطبيعية والشرعية معاً. وشتان ما بين هذه الحدود الواسعة المدى، وبين الحدود الحاضرة التى وقفت عندها المرأة من زمن طويل بحكم قوة الرجل، لا بحكم قوة ضعفها الطبيعى، ولا بحكم الشريعة السمحاء.

لم تجرب إلى الآن المساواة المطلقة فى جميع الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة، ولكن المساواة قد جربت فى التربية المنزلية، وفى التربية المدرسية، وفى كثير من الحقوق الاجتماعية فأتت بأعظم الفوائد والبركات على العائلة والجمعية الإنسانية معاً. وأما التفريط فى حق المرأة وعدم استخدام مكانتها على أنماط معلومة لمنفعة النوع الإنسانى فقد أتى بالنتائج المحزنة المحسوسة.

إن المساواة المطلقة التى كانت ترمى إليها عاذلتى، ويوافق عليها كثير من النسائيين،

إن جاز أن تكون غرض الأغراض ومنتهى الآمال فـي ترقية المرأة، فإنه لا يجوز الابتداء بها وتقريرها عندنا من اليوم مع أنها لم توجـد ولم تجرب فى أعلى الأمم حضارة. فإذا كنت قد استعظمت مجلس التأديب على ناظرة المدرسة، وجعلت جنسها اللطيف شفيعاً لها فى تخفيف المسئولية، فلم أخـرج بذلك عن أن أكون مستقيم الإنتاج، ولـم أنحرف عن أصول قوانيننا، ولا عن طبائع العمران.

إن قوانـيننا الإنسانيـة لا تزال نصوصـها تنم على فـروق بين الجنسين. وإن المرأة طول عمرها الجنسى كـانت ولا تزال مثال الجمال الإنسانى. وموضـوع تغنى الشعراء ومباراة الرسامين والمصورين. كانت ولا تزال مناط سـعادة الرجال. إليها ينتهى الأمل عند بعضهم، وفـيها تودع الثقة وترجى المـواساة عند الآخرين. فهى بجمـالها محل للعطف، وهى بضعفها الخلقى أولى بالعطف، وهى بتواضع مركزها الاجتماعى وقلة مكافأتهـا على القيام بواجـباتها أهل لـلعطف. فمن أى ناحيـة نظرت إليها وجـدتها تستحق الحنـان والعطف. فإذا كنت استشفـعت لها مجلس التأديب فـإنما جريت فى ذلك على سنن بنى آدم الماضية والحالية، وأخذت ما قلت من المشاهدة لا من الخيال. وإذا كـانت السيـدات النسـائيات (اللاتى يرين تقـرير المسـاواة بين الرجل والمرأة) لا يرضين بالتفريق بينهن وبين الرجال فى درجات المسئـولية أمام المحاكم والمجالس فإنى متفق معهن على الأقل فى عدم محـاباتهن فى انتقاد ما يكتبن من الرسائل وما يهدين إليه من الآراء.

ومـهمـا يكن من وجـوه الخـلاف فى المسـاواة بين الرجل وبين المرأة فى درجـات المسئولية، وفى الحـقوق والواجبات العامة، فإن من المحـقق أن المرأة لم تسترد إلى اليوم شيئاً كبيراً من المساواة المنشودة على أقل أقدارها فى نظر القائلين بها. بل هى عندنا على الخصوص لا تزال مظلومـة فى حقوقها فى العائلة وفى حـقوقها فى الجمعـية المصرية. مظلومة فى تقدير واجباتها الخاصة والعامة، لا من حيث ثقل تلك الواجبات فى ذاتها، ولكن من حيث كونهـا أغلبها واجبات تحكمـية صرفة، يضعهـا ولى أمرها لا بالتطبيق للشرع، ولا لقاعدة عامة معروفة، ولكن بالتطبيق لدواعى أهواء وعوامل غيرته.

فإذا كانت حقوق المرأة الطبيعية وحقوقها الشرعية يغمطها الرجال؛ فلا يراعون فيها تقاليد الأسلاف، ولا يراقبون فيها أوامر الدين، فإن النتيجة اللازمة عن ذلك هى تعطيل

نصف الإنسانية عن كثير من الخدم المطلوبة منه. وهذا مع الأسف هو الذى كان.

لم تكن هذه النتيجة المحزنة كلها من ظلم الرجل، ولكن قعود المرأة الشرقية عن الأخذ بأسباب رقيها الثانى، ورضاها بالحظ الذى قسمته لها القوة فى هذه القرون الأخيرة، وعدم محاولتها تلطيف أحكام القوة القاهرة، كل ذلك يجعل لها شركة بوجه ما فى الضرر الذى حاق بها وبالمجموع من إهمال تربيتها.

غير أن مهضوم الحق مهما سها عن السعى فى استرداده لا يعدم من نصراء الإنسانية مدافعاً خالى الغرض ينصره من حيث لا يحتسب. فإن النساء عندنا لم يكن ليدور فى خلدهن أن المرحوم قاسم بك أمين يقوم بالدفاع عنهن دفاعاً أغضب منه كثيراً من الناس، بل أغضب منه بعض النساء اللواتى لا يردن الخروج من الحظيرة الصناعية التى احتظرها لهن رجال البأس لا رجال العلم.

قام المرحوم قاسم بك بالدعوة إلى تربية المرأة على أصول التربية النافعة بشجاعة عديمة المثال. واقتفى أثره فى ذلك بعض الكتاب، حتى انتبه هذا الجنس اللطيف وتولى بعض أعضائه الدفاع عن ذاته. وأول من سارت منهن فى هذا الطريق هى باحثة البادية. نعم أولهن؛ لأنها أخذت تبحث فى نسائياتها بحث الجاد الذى يعلق على بحثه نتائج كبرى لصلاح المرأة، بل لصلاح الجمعية الإنسانية. أخذت تكتب فى الدفاع عن حقوق المرأة وتخطب فيما يجب لإصلاح المرأة، فكان مجموع رسائلها وخطبها هذه المجموعة التى نضع لها هذه المقدمة.

ولو صح نظرى لكانت قاعدة بحثها فى تحرير المرأة قاعدة الاعتدال، ورائدها فى ذلك هو الشرع الإسلامى.

لقد أجادت باحثة البادية فى جعل بحثها مرتباً على هذا النمط المعين. فإن الاعتدال فى تعليم المرأة وتربيتها، وتقرير الحد اللازم أن تقف عنده فى المساواة بينها وبين الرجل، الاعتدال فى ذلك كله أمان من الزلل والوقوع فى نتائج سيئة قد لا تكون أقل فى سوء الأثر من نتائج خمول المرأة وقعودها عن السعى إلى كمالها الخاص. وإنا نكرر دائماً أن المساواة المطلقة لم تجرب بعد فأبصر بالباحثة إذ رأت تقرير المساواة المعتدلة والبعد عن الإطلاق الذى هو يخالف الدين من ناحية ويخالف الحيطة من ناحية أخرى.

أما الدين فإنه ملاك أخلاق المرأة ومناط آدابها وطريق كمالها وموجب الثقة بها. إن

تقوى المرأة أكبر الأدلة على صونها ومعرفتها بالواجب وحسن قيامها به. إن شهود المرأة صلاة الجماعة فى المسجد الجامع مرة واحدة أصلح لقلبها من سماع واعظ أخلاقى فى الدار أو فى المدرسة سنة كاملة.

وإن تقليد المرأة الشرقية لأختها الغربية نافع. ولكن هذا التقليد إلى اليوم ليس بحسنة جديدة مادام أنه خلا من النوع الخاص بالدين. فإن الغربية تذهب إلى معبدها مرة فى الأسبوع على الأقل، والمسلمة الشرقية لا تذهب إليه فى مصر أبداً. كأن دخول بيت الله أثقل كلفة عليها وأبعد عن رضى وليها من دخولها فى بيوتات التجارة وشهودها مراسح اللهو. إلا أن حضور النساء صلاة الجماعة على صورة لائقة ومن غير إسراف هو أول عمل حسى تأتيه المرأة لتقرب به مسافة الفرق بينها وبين الرجل ولتقرر به المساواة المنشودة.

إن رابطة الزوجية عندنا رابطة دينية محضة. ولا نعلم امرأة تحترم نفسها تستطيع أن ترتبط برجل إلا بهذه الرابطة الشريفة المقدسة. ومما نعجب له أن المرأة تعمل أعمالاً كثيرة شاقة فى سبيل توثيق هذه الرابطة، ولكنها لا تعمل الشيء الوحيد الذى يوثقها حقيقة، وهو القيام بفرائض الدين الذى عليه عقد الزواج، والذى هو المنظم الوحيد لعلاقات الزوجية، فمراعاته أساس لدوامها ومخالفته سبب لفصم عراها ونقض عقدة الزواج. ولو فطنت المرأة لأدركت أن تقوى الله والقيام بطاعته تكفى وحدها لثقة الزوج بها، وتمنع كل الشقاق الزوجى الذى يتولد عن الظنة والغيرة.

وقصارى القول أن باحثة البادية قد أجادت كل الإجادة فى أن جعلت أساس بحثها تقرير المساواة، لا على جهة الإطلاق، بل فى حدود الاعتدال والدين.

فأما انتقاد رسائلها من جهة صناعة الكتابة فحسبى أن أقرر من غير محاباة أنها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر، بل هى تعطينا فى كتاباتها صورة الكاتبات الغربيات اللاتى تفوقن على كثير من الكتاب. وليس نبوغ السيدة ملك حفنى عملاً من أعمال الصدفة، بل هو قضية علمية مقررة. لأن هذه الكاتبة من بيت علم وأدب. انتقل إليها من أبيها حفنى بك ناصف بحكم الوراثة الطبيعية ذوق الكتابة وملكة الانتقاد الصحيح، فنما استعدادها بالتربية المدرسية والاجتهاد بعد المدرسة حتى وصل هذا الحد المتقدم.

ورجاؤنا أن تكون مـجموعـة الباحثة أول أبحـاث السيدات فى هذا العـصر وليس آخرها. وأن تكون السـيدة "ملك حفنى ناصف" القـدوة الحسنة للسيـدات المصريات. آمين.

الإسكندرية فى ١٨ يوليه سنة ١٩١٠.

باحثة البادية

بقلم: مجد الدين ناصف

ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦ .

نالت الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ .

نالت الدبلوم سنة ١٩٠٣ .

تزوجت سنة ١٩٠٧ .

توفيت ١٢ أكتوبر سنة ١٩١٨ .

(أول من نالت الشهادات، وأول من عليت، وأول من كتبت، وأول من خطبت) .

يعلم الكل ما للمرحوم حفنى بك ناصف من السبق فى العلوم والآداب والعربية، ومن العدل العمرى فى القضاء، ومن السهر فى تربية النشء من متكلمى العربية . ومن كان هذا شأنه، وكانت تلك صفاته، لا عجب أن يهدى مصر والشرق بمثل كريمته ملك .

بدأت باحثة البادية دراستها فى المدارس الفرنسوية، ثم دخلت المدرسة السنية (وكانت إذ ذاك بالسيوفية) فى عهد كان فيه الآباء لا "يخاطرون" بإدخال بناتهم إلى تلك المدرسة ما لم يكونوا مضطرين بحكم الحاجة المادية . فكانت ملك أول فتاة دخلت المدرسة بمصروفات . وصارت تتنقل من فرقة إلى أخرى حتى بلغت السنة الرابعة . وكان من حظها أن وزارة المعارف بدأت تجرب نظام مدارس الفتيان لتلك المدرسة . فصرحت الوزارة لمن تريد من البنات أن تتقدم لنفس امتحان الفتيان . فتقدمت الباحثة ونجحت فكانت أول فتاة نالت شهادة فى مصر . وكان سنها إذ ذاك ١٣ سنة فكتبت إلى جريدة "المؤيد" قصيدة من نظمها تفتخر لمصر بأن فتياتها ساوين الرجال فى التعليم . وكانت هذه الشهادة فاتحة لالتفاتها إلى المسائل العامة .

إنا لنروى حكاية لطيفة بهذه المناسبة؛ كانت ملك "عفريتة" فى المكتب، فذهب والدها ليسأل بها المدرسين فأجابه بهذا المعنى كل مدرسيها إلا مصطفى بك صبرى

الذى كان أستاذ الجغرافيا. فقال والدها للأستاذ ألعلها هادئة فى دروسك فإنك الوحيد الذى لم يشك لى منها، فقال الأستاذ "لا ولكن لم أشأ أن أكدرك".

كانت الباحثة على صغر سنها تجيد الفرنسية. على أن وزارة المعارف أنشأت بنفس المدرسة قسماً عالياً للمعلمات يضارع قسم الرجال، وجعلت التعليم فى كل فروعه باللغة الإنجليزية. وكان من مدرساتها "مس ويلد" التى أصبحت فيما بعد "مسز بريدى". ومن حسن الحظ أن هذه السيدة كانت تجيد الفرنسية فلم تمض سنة على الباحثة حتى أجادت الإنجليزية. ولذلك بقيت ملك مدينة لها تكاتبها وتهاديها إلى قبل وفاتها. فلما مضى سنين ثلاث تقدمت الباحثة لامتحان الدبلوم فنجحت ونجحت معها الآنسة "فكتوريا عوض" ولم تنجح رفيقتها الثالثة الآنسة "الجرة بلاتنر". على أن المعارف كانت شديدة جداً فى نظاماتها؛ فقررت أن لا يتسلم الدبلوم إلا من مضى فى التمرين على التدريس سنتين كاملتين، فبقيت ملك تزاول هذه المهنة وكان من نبوغها فى بعض المواد أن قررت المعارف أن تدرس ملك لقريناتها اللائى كن معها ففعلت. وكان من الصعب جداً على مثلها وفى سنها (١٦ سنة) أن تسيطر عليهن، ولكن من الناس من اختصه الله بمواهب يعجز الفهم عن إدراكها. بقيت الباحثة سنتين وسنة أخرى لحبها مهنة تعليم البنات والأطفال.

ومما يذكر لها، أنها كانت تزور السيدات وترجوهن أن يسمحن بإدخال بناتهن المدرسة على أن تلتفت لهن التفاتاً خاصاً، وهكذا حتى امتلأت ببنات الذوات والأعيان بعد أن كانت المدرسة خالية إلا من بنات الفقراء والمعوزين. فإليها يرجع الفضل فى إكثار عدد المتعلمات. وكانت فى الإجازات المدرسية تذهب لبيت أبيها فتشعر بعبء عليها فى حسن إدارة هذا البيت، لأن والدتها كانت مريضة فى أغلب الأوقات، فكانت تجمع إخوتها وكلهم أصغر منها، (وكانوا ستة) وتلقى عليهم فى شكل حكايات كل ما يدور حولها فى المدرسة فوسعت مداركهم. وكانوا يحبونها كصديقة فكان أصحابهم يرونهم يبكون طويلاً عقب فراقها ويتهللون عند حضورها. ومن أحسن صفاتها الحنان. فإنها كانت تحب والدها إلى درجة التضحية. فإذا مرض مرضته، وإذا سافر قامت مقامه. وكانت تعمل بيديها كل ما يلزم للمنزل من حياكة وترتيب حتى توفر على أبيها لأنها كانت تشعر أنها مدينة له بحياتها.

نقول وقد شجع البنات إلى مزايلة التلميذة أنها كانت تنشر فى "المؤيد" من وقت لآخر قصيدة أو مقالاً. وبذلك تكون ملك أول من تعلمت وعلمت وكتبت. ولإحقاق الحق نقول إن عائشة هانم التيمورية سبقتها إلى صناعة الشعر فكانت ملك تحفظ شعرها عن ظهر قلب وتعجب بها. ومن الأسف أن عائشة هانم لم يظهر لها إلا مجموعة من الشعر. ولكن لعل لها عذراً فإن الرجال لم يكن نظرهن إلى تعليم البنات نظراً يوجب الاستحسان.

وقد صارت ملك موضع إعجاب النظارة، وكانت تريد أن تعينها وكيلة للمدرسة، ولكنها خرجت للتزوج.

خرجت فى احتفال مهيب من أخواتها المعلمات والتلميذات، وقد خرجن وراءها يبكين وهى تبكى لأجلهن، وقد تقاطرن فى الأيام التالية إلى بيت أبيها فوعدتهن أن تلتفت إليهن ما استطاعت، ولكن تقرر هنا أن كثيراً من التلميذات خرجن عقب خروجها. مثل ذلك كمثل المشروعات السياسية التى تقبر مع صاحب المشروع فى البرلمانات العامة. ولولا متاعب الباحثة فى سبيل التعليم عقب خروجها لكانت الصدمة كبيرة بخروجها لأن الثقة بالمدرسة لم تكن على أتمها فى ذلك الوقت.

ومما يعرفه أصدقاء العائلة أنها رفضت أثناء التلمذة كثيراً من ذوى المكانة العلمية والمادية لأنها لم تشأ أن تفضل الزواج على إتمام التعليم. وكان أعز صاحب لوالدها هو المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان، رئيس المحكمة الشرعية العليا، وأحد المحررين السابقين للوقائع المصرية. وكان الأستاذ وحده موضع ثقة حفنى بك إلى درجة لا تقف عند حد. أخبر الشيخ عبد الكريم أباها أنه تعرف بعربى صميم، من ذوى النخوة والكرم، ومن الأدباء والمطلعين على اللغات الأجنبية، ومن أحسن الرجال خلقاً ألا وهو شيخ العرب عبد الستار الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم. أخبر الأستاذ البك أن شيخ العرب طلب إليه أن يدله على أكثر البنات تعلماً فى القطر المصرى على شرط أن يكون نسبها مما يبعث على الشرف وأحوالها الكمال كله. فأخبره الأستاذ على الفور أنه أكرم من تجمع بين تلك الصفات هى الآنسة ملك كريمة صديقه حفنى بك، وأنه بما له عليه من حق الأخوة يضمن إقناع والدها بهذا. ولم تكن إلا أيام قلائل حتى رضى أبوها ورضيت هى مختارة لأن ما سمعته إذ ذاك عن آداب الرجل وأخلاقه كانت أكثر مما

يبعث على الرضى. ولم يتشدد أبوها فى مهر لعلمه أن الأخلاق والرجولة هما خير كنز للفتاة. وتعارف أقـرباء العائلتين فى أيام قلائل. وهكذا عقد الشيـخ عبد الكريم سلمان عقد القران فى بيت أبيها بالعباسية، وكانت ليلة العرس بعد عهد قصير من يوم العقد.

نذكر أن الفرح كان فى غاية الفخامة والبساطة معاً. اتفق الطرفان على أن تقام ليلة واحدة وقـد زين السرادق بالكهـرباء والثريات الملونة وكـذلك بجريدات النخل وعـقود الزهر. وقـد جاء إلى مكان الاحتـفال عـشرات من العـقايل الإنجليـزيات والفرنسـيات والأمريكـيات وأخذت الصـور الخارجـية. ومما يذكـر أنه تجمع لدى العـروس كنوز من النفائس التى أهدتـها إليها الأمـيرات والذوات من صواحـبها أو منازل أصـدقاء والدها وتلاميذه العديدين.

وبعد قليل سافـرت ملك إلى أملاك زوجها فى سفح جـبال بالفيوم فسمت نفـسها باحثة البادية.

وكان أول مـا كتـبت مقـالاً فى "الجريدة" تقتـرح فيـه أن ينشأ فى مـصر (مـقابر العظماء) على نمط (الوسـتمنستر) فى لندن أو (البانتـيون) فى باريز. فانبرى لهـا كتاب منهم الشيخ رشيد رضا الذى استنتج أن الكاتب إنما هو (باحث بالحاضرة) وليس (باحثة بالبادية) وكان أبـوها فى قنا ففهم من التوقـيع أن ابنته هى الكاتبة. وظل الاسم مخـفياً إلى ما قبل أول خطبة خطبتها على السيدات فى القاهرة.

استمرت البـاحثة تكتب فألمت بكل أنواع (النسائيات). ولم تـكتب فى السياسة إلا قليلاً. وأهم ما ورد فى ذلك قصيدة على إعلان قانون المطبوعات نذكر منها ما يأتى:

يا أمة نثرت منظـومها الغـير حتـام صبر ونـار الشـر تستعـر
ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم حتى كأنكم الأوتـاد والحمـر
ستسلبون غـداً أغلى نفائسكـم حريـة ضـاع فى تحصيلـهـا العـمر
حريـة طالما منـوا بها كذبـاً على بنى النيل فى الآفاق وافتخروا

وهكذا حـتى استطردت إلى مـا ربما لا يسمح بنشـره الرقيب اليـوم. ومن ذلك أنها فى حرب طرابلس خطبت فى نساء الفيوم فـجمعت منهن مئات الجنيهات. وفى الحرب الكبرى حاكت بيـدها مائة قميص ومائة رداء أعطتها (للهـلال الأحمر). وقد أشيع فى الدوائـر الرسميـة أنه يقصد نـفى الباحثـة، ولكن خشى فى آخـر الأمر أن

يغضب لها أبناء جلدتها فعدل عن المسألة على أن تلزم دارها.

كتبت كثيراً، جمع منه جزء في (النسائيات) الذى طبعته الجريدة. وأما الباقى فهو مبعثر. ولكنا علمنا أن بعض محبى العلم كان قد ذهب إلى (الكتبخانه الخديوية) وجمع كل ما عثر عليه من مقالاتها التى لم تطبع وأودعها منزل زوجها، كذلك لها رسائل فى جريدة (الجون ترك) فى اسطانبول وفى جرائد ألمانية وفرنسية، ولها مكاتبات إفرنجية بينها وبين عظيمات المشتغلات بالمسائل النسائية فى أوروبا.

كانت الباحثة عظيمة فى ذاتها فشهد بذلك لها الفرنج أنفسهم. وإنا لنقرأ عاطر الثناء فى كتاب (شتاء امرأة فى إفريقيا) للكاتبة الإنجليزية (شرلوت كمرون)، العضوة بالجمعية الجغرافية الملوكية، وفيه وصف لمنزل المرحومة وخلقها وحياتها العائلية مما لم يكتب بمثله كاتب.

كذلك أهدت الكاتبة الأمريكية (إيليزابث كوبر) كتابها (المرأة المصرية) للباحثة. وكانت هذه السيدة متعصبة فى آرائها عن مصر والمرأة المصرية، ولكنها عدلت كثيراً من آرائها عقب مناقشات شخصية استمرت بالمكاتبة إلى ما بعد سفرها.

وقد سافرت الباحثة للرياضة فى آسيا الصغرى والآستانة فاستفادت وأفادت.

أما الباحثة فخطبت مرة فى دار «الجريدة» بمصر على العقيلات، ومرة بإدارة الجامعة المصرية. وكان لها مشروعات فى هذا الصدد نأسف على أنها لم تتم.

ولما عقد المؤتمر المصرى فى هليوبوليس دوى المكان بالتصفيق والهتاف عندما أرسلت الباحثة اقتراحاتها اشتراكاً فى المؤتمر وتشجيعاً للحركة النسائية فاقترحت بنوداً آخرها (على الرجال تنفيذ مشروعنا هذا) فكان ذلك أبدع من الاقتراحات نفسها.

ومن آثارها (جمعية النساء التهذيبى) جمعت بين أعضائها أوانس المصريات والفرنج، لأن وجود هؤلاء يشجع المصريات على الثقة بها، ويدعو الحكومة إلى عدم التداخل فى أعمالها.

كذلك وضعت برنامجاً لمشغل للفتيات الفقيرات، وملجأ للنساء، وكانت تنوى أن تهب هذين المعهدين كل ما لها من ميراث. وقد عملت الباحثة فى منزلها بالمنيرة شبه مدرسة لتعليم التمريض، واستحضرت لذلك معلمات عارفات، وكان معها كثير من

التلميذات التى كانت هى إحداهن فى تعلم هذا الفن الجليل.

وهكذا كان لا يهدأ لها بال من أجل رقى المرأة الشرقية على العموم والمصرية على الخصوص فلم تجد باباً إلا طرقته.

ومما يذكر بالفخر أنها كانت فى كل تلك الجمعيات تعطى الرئاسة لإحدى الفضليات كحرم على باشا شعراوى حتى لا تتلف نتيجة أعمالها بما عساه أن يقال من حبها لنفسها، ولأنها تعرف العقلية الشرقية، وفضلاً عن هذا وذاك، لأنها كانت آية فى التواضع.

وكانت ملك فوق ما ذكرنا كريمة الأخلاق لم نعرف عن غيرها ما عرفنا عنها؛ فكان لها إيراد صغير تنفقه كله فى عمل الخير. فكم رتبت لفقيرات معاشاً شهرياً، وكم علمت فتيات على حسابها، وكم تبرعت دون ذكر اسمها فى أمور خيرية لنساء وأطفال. حتى أن صاحباتها، غير الغنيات، كان لهن عندها جعل سنوى من السمن والأرز والدقيق بصفته هدية حتى لا تجرح لهن إحساساً.

وكانت كلما علمت أو قرأت عن سيدة مهتمة بالأدب أو التربية ساعدتها وتعرفت هكذا بكثير من الأوانس. وفى كتاب الآنسة (مى) ما يشهد بمثل ذلك.

وكان لديها كثير من الحلى المكدس فباعته أكثره واشترت به أرضاً كل ريعها كما ذكرنا فى سبيل الخير.

وكان لديها من الملابس المطرزة الشىء الكثير، ولكنا قلما رأيناها تلبسها، بل كانت تكتفى بجلاليب الشيت والباتيسته حباً فى البساطة، وقلة فى الاهتمام بالمظاهر الخارجية.

وكانت تكره التبذل والتبهرج. ومما يذكر فى هذا المقام أنها كانت تستحم فى (سان ستفانو) فرأت سيدة متبهرجة، كاشفة الصدر محلاة بأجمل الأصباغ، كلمتها، كما كانت تكلم غيرها. وبينما هى تنصرف إذ عرفت السيدة أن هذه هى الباحثة فعادت إليها واعتذرت عن تبرجها، ووعدت أن لا تعود لمثل ذلك، فضحكت الباحثة على قصر عقل السيدة، ولكنها فرحت أن كتاباتها كان لها تأثير يذكر فى إصلاح حال المرأة.

وكانت الباحثة تقبل الأطفال وتكلمهم وترسل لهم الهدايا، وقد كان بودها أن يكون لها طفل تكيفه بالكيفية التى تراها حتى يكون المثل الأعلى فى التربية، ولكن ـــ

وهى الصحيحة السليمة ـ لم يكن فى مقدورها أن تغالب أحكام الطبيعة الظالمة، وهنا ننصح للرجال أن لا يخفوا عن خطيياتهم نقصاً سلبتهم الطبيعة إياه فإن ذلك ليس فى مقدورهم ولا يعيبهم ولكن عليهم أن لا يكونوا ذوى إثرة حتى يتطلعوا إلى اقتناء المرأة اقتناء يقضى على آمالها ويتعس عيشها. فإنه كما يوجد بين النساء من ينظرن إلى الثروة، يوجد بينهن من ينظرن إلى أرقى من ذلك. ولكن الباحثة حينما توصلت إلى العلم بأن لا حيلة لها فى الحصول على طفل فتحت مواعين حبها إلى الأطفال عامة ـ فكأن الطبيعة حرمتها طفلاً واحداً ليتوزع حنان قلبها على الأطفال المساكين.

أما داخل منزلها فقد كانت آية فى الترتيب والاستعداد، وكان لها تأثير عظيم فى تحضير البادية، كما قال حافظ بك إبراهيم فى رثائها:

(سادت على أهل القصور وسودت أهل الوبر). وحقيقة فمن يذهب اليوم إلى تلك الجهة يتعرف الفرق بين الحالة الأولى وبين ما هم عليه من حب الترتيب والاعتناء بالصحة والتعليم، وكان بعض ذلك من حبهم أن لا يفوقهم غيرهم ولتطلعهم للأحسن ولكن أكثره نتيجة مباشرة لتأثيرها الشخصى، فإنا لنكاد نرى كل أبنائهم وبناتهم يتلقون العلم فى المدرسة بعد أن كانت الفتاة تتعلم فى المنزل إلى العاشرة من عمرها ثم تحجب حجاباً عن الدنيا بأجمعها.

وقد ساعدها على اشتغالها، بل انقطاعها للتهذيب، أنها كانت لا تجد رفيقاً ولا من تبث إليه شكواها. وإنا لنشعر أنه كان فى قلبها كمية من الحب الطاهر لو وجدت حرزاً تستودعه إياه لكان كافياً لخلق السعادة كلها، ولكنه لايزال فى البلاد الشرقية أثر تغطرس الرجال وأثرتهم بتضييع مالهم ووقتهم ولهوهم بعيداً عن منازلهم، ولا يزال فى الجهات البعيدة للأجنبى مقام منعزل كما كانت الحال منذ قرن فى البلاد الأوربية. وقد يجد القارئ بعض ذلك فى كتاب (شرلوت) ولكن يقرأه من بين السطور فى كل مقالاتها. نتساءل لماذا كان لكلام الباحثة تأثير أكثر مما كان للكاتبات الأخريات؟ سؤال نجيب عليه بكل وضوح، وهو أن أهم سبب هو إحساسها بما تكتب حتى أن كل موضوع أرسلت به للجرائد كان كأنه واقعة حال فهى تكتب عن تجارب وخفوق قلب، بل وإخلاص ضائع بخلاف غيرها ممن يكتب بالصناعة وليس بالشعور.

السبب الثانى؛ هو أنها توخت الاعتدال فلم تنس أن تراعى فى طلباتها العادة

والدين حتى لا يجد القارئ صدمة تصرفه عن الخير كله. أما قاسم بك أمين فقد استعمل شجاعته أكثر مما كان يجب فإنه صدم الجمهور بما لم يتعود عليه. كانت الباحثة تقول فى السفور (علموا المرأة وهذبوها ودعوها تختار لنفسها) وفى الخطيئة ذهب البعض إلى التشبه بالإفرنج ولكنها كانت تقول:

أما السفور فحكمه   فى الشرع ليس بمعضل
ذهب الأئمة فيه بين   محرم ومحلل
ويجوز بالإجماع منهم   عند قصد تأهل

وهكذا من دواعى الحكمة والاعتدال.

وقد صادفها غضب فريق عليها لأنها كانت تكتب فى الجرائد، وكانت تحب السفر إلى الخارج، وقد كاد ذلك يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه مع المتمسكين بالعادة والمحافظين من أخوات زوجها وأقربائهم. ولولا حكمتها وأدبها لما استطاعت أن تواصل السير فى وسط لا يفهمها كثيراً، فى وسط كان يحلل ضرب المرأة، ويعدها سلعة تقتنى، ولكنها ضحت بنفسها مع الاحترام التام، وخدمت مبدأ يستحيل أن يتلاشى بعد ما ثبتت أساسه ثبات الطود.

وكانت، كما تقول الآنسة (مى)، تغير نفسها لبساً وكلاماً عند كل وسط، وليس هذا باليسير، سيما على من عاشت عيشة حرية الرأى والتصرف، ولم تختلط إلا بكل متعلمة متمدينة.

من هذا نعرف كيف كانت الباحثة فاضلة. فإن العلم فى الكتب يغترف منه من يشاء ولكن المهم تطبيقه بحيث ينفع.

على أنها كانت تحفظ من الشعر آلافاً ـ وقد قرأت كثيراً من كتب الفلسفة والاجتماع وجمعت إلى عفتها الشرقية الأفكار الحديثة وحدة العارضة وسعة الجعبة ـ وقد قالت (شرلوت كمرون) أنها لتناقشك فى فلسفة (دارون) و (سبنسر) بشكل يدعو إلى الفتنة والإعجاب.

وكانت تحب الفنون الجميلة فتجمع من المصورات الأثرية وإسطوانات الغناء وآداب الإفرنج ورواياتهم ما زاد شعورها رقة حتى أنها كانت قريبة التأثر والبكاء عند كل ما يؤثر، ولعل لواعج صدرها كانت تختلط بما تراه أو تسمعه من عذاب الغير وشقائه

فتترقرق عينها بالدمع من ظلم الإنسان للإنسان.

وفى وقت ما مرض والدها ووالدتها فكانت تدير بيت أبيها بالتلفون من (الفيوم) خير إدارة. وكانت عند مرض والدها تقوم بكل ما كان يقوم به. كما أنها فى غياب زوجها سنة كاملة أيام الحرب فى طرابلس الغرب كانت تحل محله فكان ذلك آية فى الحكمة وقوة الإرادة.

وحدث أن أخاها كان قد قبض عليه فى حادثة سياسية بالقاهرة، وشاع إذ ذاك أنه سينال الإعدام من المجلس العسكرى، وكان أبوه مريضاً، فحضرت لتراه للمرة الأخيرة ـ حضرت رغم إرادة الطبيب، لأنها كانت مصابة بالحمى الإسبانيولية فتضاعفت عليها الحمى ولم تستقر بضعة أيام حتى ازدادت الحمى ـ فكانت أول يوم تتكلم كثيراً بغير انقطاع، ثم بدأت فى اليوم الثانى تخرج مقاطيع لا اتصال بينها، وفى ١٢ أكتوبر فاضت روحها الطاهرة، وهى فى الثالثة والثلاثين من عمرها، فى ريعان النضرة والفتوة والشباب. وكان مشهدها رهيباً. ودفنت بالإمام الشافعى بقرافة العائلة فقبرت معها مشاريع وإصلاحات كادت أن تملأ البلاد، ولكنها أحيت مبدأها، وسنت لخلفائها، وأصلحت التعليم، ولا غرو فإن كل إصلاحات المدارس النسائية ترجع لاقتراحاتها ومسعاها المتواصل، فكان بذلك كل متعلمة فى مصر من تلميذاتها.

وقد كان أبوها مريضاً، فبكى على القبر بكاء المسكين، وقد هون عليه أصحابه فلم تكد تعتدل صحته حتى ذهب ليحضر حفلة الأربعين للتأبين فى الجامعة (فى نفس الغرفة التى كانت تحاضر فيها) قد قيل هناك ما يؤثر حتى أن قصيدة حافظ فطرت قلب السامعين فأطرق أبوها وهو شيخ لا يكاد يستقيم فى السير، ثم ذهب مذهولاً، فانتكست قواه العقلية، ولم يكد يعى، ومات على الأثر.

وقد كانت السيدات تذهبن زرافات فتلقين باقات الزهر على قبرها مما يفتت أكباد الرائين.

وقد اجتمع فى مثل يوم وفاتها من العام التالى فريق من صاحباتها وتلميذاتها والمعجبات بها ورثينها، ثم تبرعت صاحبة العصمة حرم شعراوى باشا بثمن صورة مكبرة للفقيدة توضع فى غرفة خاصة بالجامعة يطلق عليها (غرفة باحثة البادية) اعترافاً

بفضلها وإحياء لذكرها.

وأنه ليسرنا أنه عـقب ذلك الاجتماع اجتماعـات أخرى نجم منها جمعيـات متعددة للفتيـات وأنشئت بمصر مجلتان نسائيـتان، وسوف يظهر فضلها بعـد حين شأن العظماء عندنا في الشرق.

رحمها الله، وعوضها فـي آخرتها خيراً، ورحم والدها المسكين، وأنزل على ذويها الصبر والسلوان، وأتاح للنهضة من يخطو بهـا خطوها، ويتم بناء ما شيدت، فإنه على قدر فضل المرأة يكون رقى المجتمع.

رأى فى الزواج
(وشكوى النساء منه)

رد على ما كتبه حضرة مدير الجريدة فى العدد ٣٨٣ بعنوان: "**بناتنا وأبناؤنا**"

١

كتبتم حضرتكم فى العدد (٣٨٣) من الجريدة مقالة بعنوان «بناتنا وأبناؤنا». تستغربون فيها كثرة تشكى النساء من الزواج فى هذا العصر مع قلة تزوج الرجل باثنتين. وقلتم فيها أقوالاً صائبة حقيقية، ولكنكم عجبتم من أن المرأة كان يرضيها من زوجها أن يعدل بينها وبين ضرائرها فى الكسوة والمعاملة، وأنها إذا تزوج عليها كان يمنعها الوقار غالباً من أن تفتح قلبها بالشكوى إليه أو إلى ذوى قرابة منها بما تجده من الألم. نعم ذلك صحيح لا ريب فيه، ولكن له أسباباً أنتجت تلك النتائج. أولها أن الفتاة كانت إذا شبت وجدت والدتها تعيش مع ضرة أو أكثر، ورأت خالتها وعمتها على تلك الحال، وكذلك صويحباتها ومعارفها، فلم يكن ذلك بالشىء الغريب. فإذا جاء دورها، وتزوجت من رجل له زوجة أخرى، وجدت أنه لم يخرج عن المألوف، وأنه تابع لعادة أهل عصره ومصره. فلم يكن يحسن بها، إذن، أن تبدى شكواها من أمر عادى يأتيه كثير غير زوجها، ولو أنه يؤلمها فى قلبها ويجرح عواطفها. وكذلك كانت التربية غير ما نراها اليوم؛ فبنات العصر الحالى، حتى الجاهلات منهن، يفهمن الحياة أكثر من أمثالهن الغابرات فأصبحن لا ترضيهن الكسوة والطعام فقط كأحد خدم المنزل، ولكنهن يقدرن اليوم السعادة الزوجية أكثر من ذى قبل، ويعلمن أنه إذا لم يكن الحب أساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما يتنافران ويتشاحنان كأمثال الديكة الخرقاء. ومن اختلاف التربيتين القديمة والحديثة صفاء النية والمجاهرة بالقول والحرية فيه الآن، والخوف وشدة التكتم حتى على مضض العيش وذله قبل، حتى أن

المرأة فى زمن جداتنا كانت إذا أصابها ألم أو مرض تبالغ فى كتمانه وتعد المرض، أيا كان نوعه، عيباً تجب مداراته. ولكن المرأة الجديدة على عكس ذلك تماماً؛ إذ ترى أن كل شيء من هذا القبيل عادى، وأن ما يصيبها قد يصيب غيرها، فلا معنى لإخفاء أمر يصح أن يقع فيه الجميع. ولا يزال أثر هذا التباين فى الحذر مشاهداً للآن ويكاد يكون محسوساً بين طبقة (بنات البلد) إذ تعد الواحدة منهن من النقص أن تخبر زوجها بصداع قد يصيبها، أو تتوهم أنه يأنف منها ويعافها إذا وجدها راقدة فى سرير الألم والانحراف. لا يزال التباين بين هؤلاء وبين الطبقة الجديدة (الألفرنكة) محسوساً، وهؤلاء لا يكتمن إلا ما يجب كتمانه على الوجه الصحيح. هذا كله راجع إلى تربية الوجدان واختلاف تلك التربية باختلاف الوسط والزمان. هذا من جهة المرأة وحدها، وهناك سبب لكثرة الخلاف والتذمر الآن يرجع إلى الرجل وحده وإليك البيان: رجال الأمس على جمعهم بين زوجات متعددات كانوا أتقى منهم اليوم، فرجل العصر (الشاب والكهل) تراه يتبجح بأن له خليلات، وأنه بجماله ورشاقة قده واهتزاز أعطافه يسبى ربات الحجال، بما فيهن المحصنات، وقد يتقول حكايات لا أصل لها فى هذا الموضوع مما تندى له الجباه. ولعمرى أن الجمع بين زوجتين، على ما فيه، لأحسن من التهتك وانتهاك حرمة الدين وإيلام نفس المرأة وتنغيص حياتها. يا لله أليس لها قلب يتأثر، وشعور يحس، وعواطف تثور. وقد أصبح رجالنا بفضل هذا التفرنج يعدون من لا يشرب الخمر جهاراً، ومن لا خليلة له، يترامى على قدميها، أو تترامى على قدميه (أنتيكه) فى عرفهم فلله درهم.

والأغرب من ذلك؛ أنك إذا ذكرت للشاب أو أبيه شيئاً مما يأتيه أجابك هذه هى الحرية الشخصية (على كيفى)، أو قال: أنا رجل وليس على عار فى هذا. فلله أنت ولله أبوك. ائتنى بآية من القرآن، أو إن كان القرآن عندك أيضاً (أنتيكه)، فائتنى بمادة من القانون الفرنسى الذى تقاليد واضعيه وأهله تحرم التهتك على النساء دون الرجال، وتجيز للآخرين الرذيلة وتمنعه الأول. إذا صح عندك إباحة السفاح لأنفسكم فأسهل منه، وحقكم أن نجيز لكم السرقة بأنواعها والقتل والسلب والتزوير إلى آخر ما يحرمه الشرع والقانون وإلا فلماذا تختارون أكبر الرذائل وتعدونها سهلة لا إثم فيها وتأنفون إذا قلنا لكم سرقتم.

لا أخـالكم تتـشدقـون بقـولكم عند النصح (إنا رجـال) إلا لأنه لا تظهـر عليكم عوارض الخيـانة بخلاف المرأة والفتاة فلهمـا من أحوالهما الطبيـعية المختصة بهـما ما لا يأمنان معه شر الفضيحة والعار. فإن زعمتم أن التقوى هى خوف النتيجة المحسوسة وأن الذمة والضميـر لا يردعان ولا يمنعان المرء من إتيان المعاصى فبعداً لما تـزعمون وساء ما تتوهمون.

وليت هذا السلوك الفـاصم لروابط الألفة بين الزوجين يقف عند هـذا الحد، بل له عواقب أوخم من التذمر، وأسوأ من البغض، وهى شطط المرأة بباعث الانفعال والحزن أو الانتقام والخبث وخروجها متبرجة فى الطرقات أو وقوعها فى مهواة الرذيلة وسقوطها السقوط الأبدى والعياذ بالله. وفى تلك الحال يلام الرجل لأنه شـجعها على ما أتته بما يأتيه هو، وهى تعـتقد أنها بشـر مثله ويحق لها من الحرية الشـخصية بقـدر ما يحق له فضلاً عن اعتقـادها بأنه قدوتها. يبعث ظلم الرجال وسوء سيـرتهم النساء إلى السقوط فى الرذيلة فيسقـطن، إلا من عصم ربك، وهؤلاء تمنعهن تربيتهن الصحـيحة، وشرف مـبادئهن، عـن الإخلال بالدين والآداب، ولكن يـصبن فى الغالب بـحمى الدمـاغ أو الهستريا والجنون أحياناً وتكثر همومـهن ويعدمن لذة العيش فياللظلم. لماذا يشقى عضو من المجتمع الإنسانى خلقه الله ليكون سعيـداً. يشقى لاستبداد الرجل، ويضحى حياته ليتنعم الرجل، فإذا أردتم أيها الرجال أن ترفرف السـعادة على بيوتكم فاختاروا الزوجة الملائمة، كل بحسب مـا يرى، إذ (لكل امرئ فيما يحاول مذهب) ولا تـقيدوا أنفسكم بأفكار العجائزوالمشيرين، ثم اسلكوا سبيل الجد فى الحياة، فقد كفاكم هزلاً أن استعبدنا للغير ونحن لاهون، واجعلوا من أنفسكم صراطاً تتبعه زوجاتكم. فإن كنت أيها الرجل عاقلاً فلتكن زوجتـك مثلك، وإن كنت خليعاً فامرأتك خليـعة، وإن أسرفت أسرفت، وإن فترت فترت، وهذا بحكم تأثيـر المعاشرة فى الخلق، والعادة بالطبع ولإرضاء الزوج من جهة أخرى، لأن كلنا يعلم أن الملاءمة هى أس الاتفـاق، فإذا اجتمع عاقل بمجنون شقى، والعكس بالعكس، فترى العقلاء معاً فرحين والمجانين معاً على أتم ما يكون من الجذل، وكذلك الحال فـى العلماء والجهال، وكل شىء له نقيض فإن الثـعالب لا تتفق مع الدجاج، والجرذ لا يتوقع أن يكون أليفه الهر.

وفى المرأة صفـة غريزية هى تقليـدها الرجل، لأنها تعتـقده مـرشدها ومعـينها أباً

وزوجاً. وقد ذكرني ذلك بمحادثة دارت بيني وبين سيدة إنكليزية، من صواحب اللادى كرومر أيام إقامتها بمصر، فسألت تلك السيدة «إني ألاحظ أن اللادى تترك التأنق فى ملبسها شيئاً فشيئاً فهل تعرفين سبباً لذلك» فأجابت «إنها تتعمده لتكون هيئتها أقرب إلى التقدم فى السن منها إلى هيئة الشباب لأن زوجها شيخ وتحب أن لا تسوءه بفكرة أنه مسن وأنها أصغر منه سناً بكثير» ألا فلينتبه الرجال لذلك، وليتقوا الله فى نسائهم وأعراضهم، وليعلموا أن التقوى مطلوبة فى السر والعلن وأن الله يرى. يا قوم تداركوا الأمر، قبل فواته، فإن كنتم ترضون لنظام بيوتكم بالاختلال، وللثقة بينكم وبين أزواجكم بالضياع، ولأمنكم بالتأخر، فاستمروا على فسادكم. وإن كانت فيكم بقية غيرة وحمية وتحبون وطنكم، كما تدعون، فأصلحوا أحوالكم تصلح حال نسائكم، ونقوا ورد بيوتكم من شوك الهم، وسنوا سنة صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم أجرها إلى يوم الدين. ولله عاقبة الأمور.

الحجاب أم السفور

رد على خطبة ألقاها حضرة عبد الحميد أفندى حمدى بشأن الحجاب.

٢

تتبعت خطبة الأديب عبد الحميد أفندى حمدى عدداً عدداً فى الجريدة، فشكرت له اهتمامه بترقية المرأة، وأثنيت على اجتهاده وشجاعته الأدبية. وقد وجدت خطبته صحيحة المقدمات، متينة المبنى، إلا أن لى رأياً أبديه فيها. وقد يمر بخلد أحد القارئين أننا ننتقد الخطيب حباً فى النقد أو تمسكاً بحب القديم وجموداً منا عليه، لكن الحقيقة لا هذا ولا ذاك، وكل امرئ حر فى فكره، حر فى قبول فكرة غيره أو رفضها، حسبما يشاء، بشرط أن لا يضر ذلك الرفض أو القبول بالغير.

أما ما يرجوه الكاتب من تعليم المرأة تعليماً صحيحاً فإنى أوافقه فيه تمام الموافقة ويجب أن نحث غيرنا عليه بما نستطيع. وقد أصبح هذا القول بديهياً لا يحتاج لأن

أطيل فيه الكلام لاسيما وقد وفاه الخطيب حقه فى خطبته. فجزاه الله عنا خير الجزاء. بقيت مسألة الحجاب، وهى تلك المسألة العويصة التى قامت من أجلها منذ سنين حرب قلمية عنيفة وضعت أوزارها على غير جدوى فلم يفز فيها (المحافظون) على القديم ولا (الأحرار).

ولست أنتقد اقتراح السفور من الوجهة الدينية لأنى أعلم أن الدين لم يحرجنا فى هذه المسألة، كما بين ذلك حضرة الخطيب، ولا من الوجهة الاقتصادية فإن باقتراحه أن نلبس لباساً يضارع ما ترتديه الراهبات المسيحيات لتوفير كبير لما كنا عسانا نصرفه فى تأنيق اللباس الخارجى كما يفعل نساء الفرنجة مثلاً. كذلك لست أنتقده من الوجهة الأدبية فإن ذلك اللباس وبساطته لأليق بتأزرنا به من تلك الحبر المهلهلة، كما سماها الخطيب، ولأدل على حشمة صاحبته، وإن كانت سافرة، مما تلبسه الآن مبرقعة، وشتان بين هذا البرقع الوهمى والبرقع الصحيح.

إذن، لم يبق للموضوع إلا وجهة واحدة وهى الوجهة الاجتماعية. وإذا انتقدته من تلك الجهة فإنى لا أقلد فيه ولا أتبع عادة رأى غيرى، بل أصرح بما أشاهده عياناً، وبما أعرفه من أحوال شتى جربت فيها النساء المختلفات، والتجارب يجب أن تقدم أوامرها على أوامر البحث والتخيل، إذ هى لم تعدم بعد أن تترك أثراً فى النفس لا يزول، أما التخيل فقد لا يطابق الحقيقة، وإن طابقها فقد لا يعلق كثيراً بالذهن، لأنه لا أثر له إلا فى المخيلة بعكس التجارب فأثرها يبقى على الحواس والذاكرة. فإذا نصحت طفلاً أن لا يلمس النار لئلا تحرقه فإن ولعه بالحركة والاستكشاف لايزال يغريه بلمسها حتى يفعل ولا تنفع نصيحتك له، أما إذا لمسها مرة وأحرقت أصابعه فإنه يبتعد عنها كلما رآها ولو أمر بلمسها. وعليه فلسنا متبعات رأى من يأمرنا بالحجاب ولا رأى من يقول بخلعه لمجرد أن هذا تعب وكتب. وذاك نقب وخطب. إلا إذا تبينا الرشد من الغى، وعلمنا من التجارب أولى الخطتين بالاتباع. وأمامنا الطبقات المختلفة والأجناس العديدة يجب أن يبحث كلاً منها على حدته، ونجمع منها كلها حكماً واحداً نحكم به على أنفسنا إما بالحجاب أو بالسفور، أو غير ذلك مما سنوضحه بعد. وطبقات النساء (كالرجال) فى كل أمة ثلاث: العامة والخاصة والوسط، وأصحها آداباً فيها كلها على الإطلاق

الوسط. ولابد لذلك من سبب. نعم، السبب راجع إلى التربية. فالخاصة أو طبقة الغنيات يرخين لأنفسهن العنان فى الملاهى والملاذ والجدة مفسدة فى الغالب، خصوصاً إذا اقترنت بالفراغ، وهؤلاء عندهن من الخدم من يقوم بشؤون بيوتهن وأمور أولادهن، وقد يعودن عيش الكسل والراحة.

والطبقة الدنيا تجد من حاجتها باعثاً لها على طرق الطرق المختلفة لتجلب ما تسد به الرمق، ويختلط نساؤها برجالها فى المصانع والمزارع وغيرها، وهذه الطبقة شر على الآداب فى كل أمة حتى فى الإفرنج، وهم ليسوا مقيدين بحجاب ولا عادة يقال معها إنهم لما خالفوها وقعوا فى شر منها كما يجوز تطبيق ذلك علينا.

وطبقة الوسط، وهذه دائماً أحسن الطبقات آداباً وأكثرهن حشمة ووقاراً، ولرب معترض يقول ما لنا وللطبقات وآدابها وما نسبة ذلك للحجاب وقد أدخلت فى حكمك هذا الأمم حتى التى لا حجاب عندها. فأقول متى عرفنا ذلك التقسيم وقارننا بين درجة اختلاط النساء فى كل طبقة برجالها علمنا تماماً أن الأكثر اختلاطاً هن الأشد فساداً.

وإنك إذا استقصيت حوادث النساء فى مصر وجدت أكثرها فى الطبقة الدنيا منها بما فيها الفلاحات اللاتى وصفهن الخطيب الفاضل بالنزاهة والحشمة. وقد رأيت القرويات كثيراً وحادثتهن واستخلصت من أحوالهن أن ظاهرهن الجد دائماً وذلك لعدم رؤيتهن من يقتدين به فى أسباب الخلاعة. وقد سمعت أن كثيرات منهن يهمن برجال ممن يختلطن بهم، فلو كانت القرى كالمدن فيها متنزهات بعيدات عن أعين الرقباء، أو كانت الفتاة يستغنى أهلها عن شغلها وتعبها قليلاً لأفنت ولساوت طبقة المدنيات السفلى (وأعنى بهن بائعات البرتقال ومثيلاتهن) فى الفساد والوقاحة. فهؤلاء فسادهن من سوء التربية لا محالة ولكن الاختلاط بالرجال زادهن فجوراً.

وإذا رجعت لغنيات مصر وهن (الذوات)، ويقلدهن بعض نساء الوسط، فهؤلاء يتفنن فى الملابس ويكثرن من الخروج تحككا لأن يسمح لهن برفع الحجاب، ولكن على طريقة بعيدة من الأدب، فإنهن لو كن يطلبن ذلك رغبة فى الحرية الشريفة مثلاً أو إنهن يشعرن أن الحجاب يمنعهن من الاستفادة من العلماء، أو غير ذلك من الأسباب الجائزة لوجب إعطائهن ما يطلبن بغير تكلف البحث والعناء. أما ونساء مصر على هذا الجهل

المطبق ورجالها، إلا القليل، على هذا الفساد المستحكم فلا يجوز مطلقاً إباحة الاختلاط. على أن الإفرنج، وهم المتعلمون نساء ورجالاً، يشكون من فساد مجتمعهم وقلة وفاء أزواجهم. وإذن، نعلم أن الطبيعة البهيمية فى الإنسان تجتاز عقبات التربية وتخترق سياجها إلا الشاذة والشاذة لا حكم لها.

بقيت مسألة واحدة أجملها إجمالاً وهى المثل القائل (فى الطفرة محال) فنساء مصر متعودات الحجاب فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبنه على أنفسهن من الخزى وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغير الفجائى من أسباب البلاء وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين. وإذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلاً قليلاً إلى أن يتم الهدم فتبنى على أنقاضه أحسن منه. فإذا فرضنا محاولة هدم البناء دفعة واحدة (مستعملين الطرق والآلات التى نستعملها الآن) تصورنا كيف يستحيل ذلك مع بقاء المارة والبنائين سالمين، فضلاً عن الأنقاض كزجاج الشبابيك والخشب وما أشبه ذلك، فهذه الباقيات الصالحات فى المرأة هى العفة والحياء والمنزل البالى حجابها الآن والسابلة الوطن والدين والفضائل.

فناشدتك الله أيها الأديب كيف تأمرنا الآن بالسفور ونحن إذا مشت إحدانا فى طريق لا تزال تنصب عليها عبارات الوقاحة، ويرشقها هذا بنظرة فاجرة، وذاك ينضح عليها من ماء سفالته حتى يتصبب عرقها حياء. فمجموع رجال مثل مجموعنا الحالى لا يصح بحال ما أن يوكل إليه أمر امرأة وتترك عرضة لسبابه وقلة حيائه. ومجموع نساء كنسائنا الآن، لا يفهمن إلا ما يفهمه الرضيع، يصبح سفورهن واختلاطهن بالرجل بدعة لا انتهاء لشرها. ثم أفدنى أيها القارئ بالله ماذا تقول امرأة جاهلة أو متعلمة تعلماً ناقصاً لشاب تجتمع به؟ أتباحثه فى العلوم وهى لا تدرك أهميتها أو تعلم منها قشوراً لا يعتد بها، أم تناضله فى السياسة وهى لا تعلم أين انكلترا من جزائر الأرخبيل، ولا يمكنها أن تفسر لفظة دستور أو استعمار مثلاً. أم ماذا تفعل اللهم أنها لا تجد شيئاً تقوله إلا ما قد تستحسنه من هيئته وحسن بزته وهناك الضلال الكبير.

والمتعلمات فى مصر الآن يزددن عدداً وفيهن من يصح أن تلقى إليهن قيادة أخواتهن. وسيجئ زمن ينشأ فيه جيل من النساء غير جيل (السحر والزار والرقى)

وهؤلاء يثمر فيهن البذر. فإذا أتعب الباحث نفسه فى نصح النساء الآن قد يجد من تسمع، ولكنه لا يجد من تسمع وتعقل. ولا يبعد أن يكون من بين سامعات خطبة عبد الحميد أفندى من قد تقلدت وتزيت بزى الإفرنج وسارت فى الشوارع تفاخر بأنها من ذوات الفكر الحر ومن صاحبات التمدين الحديث.

والخلاصة، أن خروجنا بغير حجاب لا يضر فى نفسه إذا كانت أخلاقنا وأخلاق رجالنا على غاية الكمال. وأظن هذا مستحيلاً، أو بعيد الحصول، فإذا حصل التمازج وكان على هذا الشرط فلا اعتراض لى عليه.

وهناك قوم يشددون فى تقدير الحجاب، فيحبسون المرأة مؤبداً ويمنعونها من زيارة جاراتها، ويضيقون عليها بحيث لا تستنشق إلا هواء بيتها الضيق الدائرة فتفسد صحتها وتكسل عن الحركة. ومنهم من يفتخر بأن امرأته لم تبرح بيتها طول عمرها. وهؤلاء أيضاً متطرفون، لأن المرأة لها رجلان يجب أن تتحركا، وعينان يجب أن تبصرا، فإذا صاحبها أبوها أو أخوها أو زوجها مثلاً فى نزهة وأراها محاسن الطبيعة ودقائق الموجودات وجدد قواها بالحركة واستنشاق الهواء الجيد، وهى بمئزرها محتشمة، فلا يخرج ذلك عن معنى الحجاب (وهنا استسمح الخطيب الأديب فى استعمال لفظة حجاب على غير ما مر لأننا لو رددنا كل المجازات إلى الحقيقة لصارت اللغة أضيق من سم الخياط).

على أن هذه المسألة واختلاف الآراء فيها قاضيها العادل الزمن والمستقبل، فكم من مسألة أبى قوم إلا اتباعها وآخرون نبذوها نبذ النواة فاختلفوا وجاء الزمن مؤيداً فيها لفريق دون فريق، فصارت له القوة ورجع له الحول فاتحدوا فيها. ورأيى أن الوقت لم يأن لرفع الحجاب، فعلموا المرأة تعليماً حقاً وربوها تربية صحيحة وهذبوا النشء وأصلحوا أخلاقكم بحيث يصير مجموع الأمة مهذباً ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة. وإن هذا الموضوع وأمثاله لمما يدعونا إلى التفكر والتبصر فإننا بدأنا أن نجارى الإفرنج فى كل شيء، والمجاراة ليست ضارة فى حد ذاتها مادياً، ولكن ضررها اجتماعى محض، فضلاً عن كل ما بينت فى مقالى هذا فإننا لو سلمنا بما يقترحه الكاتب من ضرورة تقليد الغربيين فى أمور معاشنا ولباسنا وزى بلادنا، مما قد لا يوافق روح الشرق، فإننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا بمرور الزمن، وهذا هو ناموس

الكون إذ يفنى الضعيف فى القوى، وإنه لمن العار أن نهمل هذا الأمر يجرى مجراه، فأدعو الكتاب والباحثين للتفكير فيه، وفى إيجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدين الحديث.

ما ذنبنا

رد على ما كتبه حضرة (الخانقاه) فى الجريدة بشأن تبادل إرسال النشء والمصاهرة بين الترك والمصريين.

٣

كتب حضرة الأديب (الخانقاه) يقترح على الأمة المصرية أن تتبادل مع تركيا إرسال النشء من بنين وبنات. وقد رد عليه كثيرون مصوبين فكرته ومخطئين لها على أنهم لم يحيطوا بالموضوع من جميع أطرافه، وعذرهم فى ذلك أنهم رجال وقد لا يعود عليهم بالذات ضرر ما من تنفيذ ذلك المشروع. ولا يهتم بدرس اقتراح كهذا خطير إلا من قد تقع عليه أضراره فيما لو نفذ. ونحن معشر النساء المصريات أكثر الناس تعرضاً لمثل ذلك الخطر.

أنا لا أعترض على الموضوع فى ذاته، ولكنى أعترض على بعض لوازمه المربوطة به. على أنى أوافق حضرات الكتاب الذين أبانوا أن بيوتنا لا تصلح لأن يقتبس منها التركى أو التركية شيئاً يزيده معرفة أو علماً. ولكن بصرف النظر عن هذه الحقيقة المؤلمة فإن الاختلاط الشديد بين الأمتين، بهذه النسبة التى يتمناها (الخانقاه)، لابد وأن ينتج عنها المصاهرة بين أفرادهما، وإن كانت النساء التركيات أغلبهن متعلمات بعكس أخواتهن المصريات، فيكون للأول الرواج فى سوق الزواج الآن، أما الأخر فعليهن العفاء، ولهن الكساد.

وإن من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى أنها كانت دائماً مظلومة مهضومة الحقوق؛ ففى عصر إسماعيل هجم علينا جيش الشركسيات، انهزمنا أمامه، وخرج

ظافراً منا بأحسن رجالنا. فلم يكن شريف أو نابه بمصر إلا وأم ولده جارية شركسية من شراء إسماعيل.

ثم ابتدأ رجالنا فيما بعد ذلك الزمن يتزوجون بالأوربيات، وليتهن من ذوات الشرف، ولكن كان أكثرهن، إن لم نقل كلهن، من فريق الراقصات والخادمات وأضرابهن. كل ذلك يجرى ونحن ساكنات. ننظر ولا نتكلم خيفة الريب. ولكن نساء ذلك العهد كن جاهلات لا يفقهن شيئاً وربما كان ذلك خير قصاص منهن على الجهل (على أن هذا لم يكن من جنايتهن على أنفسهن ولكن جناه الوالدون عليهن). أما وقد صار بمصر الآن من المتعلمات من يصلحن للزواج بأبناء جلدتهن أفليس من العار أن تقدر على أن تجعل ابنك شريفاً من أم ذات حسب فتختار أن يكون ابن جارية شركسية أو راقصة أوربية؟؟ ثم أليس من العار أن تشرئب دائماً لما فى يد غيرك وعندك أحسن منه؟

ألا رب معترض يقول إن الرق قد بطل الآن. وإن من يصاهر الترك يصاهر أكفاء. هذا صحيح، ولكن الأم تغذى الطفل بأميالها وطباعها كما تغذيه بلبنها فإذا ما حنت التركية لوطنها (وكل يحن بالطبع لوطنه) نشأ متشبعاً بأميالها يحب تركيا ويميل عن مصر وهو معدود من رجالها.

وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم الفطرى للاتحاد هو على ما أرى ناشئ عن تشعب أجناس أمهاتهم؛ فابن الفرنسية يحب فرنسا، وابن الزنجية يذكر خصب السودان، وابن العربية يفتخر بمحتده، وولد المغربية لا يفتأ يذكر بلده. وهكذا أضعنا وطنيتنا المصرية عن طريق المصاهرة بالأجانب.

ثم أجدنى محققة إذا قلت إن الدم يحن لنوعه؛ فإذا تكافأ الرجل والمرأة فى العلم والتربية، وكانا مصريين مثلاً، فإن الحب بينهما يكون أصدق وأمتن منه لو كانا مختلفى الجنس والمذهب. فإذا أراد الأديب (الخانقاه) أن يختار لنفسه حليلة غير مصرية فليكن. ولكل امرئ ما يرى. ولكن ليتذكر أخته وابنته وبنات عمه وقريباته فسيكون نصيبهن من غيره نصيب غيرهن منه والسلام.

مدارسنا وفتياتنا

رد على من ذكرت أسماؤهم فى هذه المقالة.

٤

لم يكن يدور بخلدى، ساعة كتبت موضوع (ما ذنبنا)، أن يخطئ فهمه أحد لأنه من السهولة ووضوح الغاية بحيث لا يتعذر تفسيره. ولكن ظهر لى من كتابة الكاتب فى جريدة (لابورص إجبسيان)، ومن كتابة التركية (على الهامش)، أنهما ذهبا فى واد وأنا فى واد.

أما جواب السيدة التركية فإنه يكفى لأن يقرظ نفسه، ولا أقول فيه أكثر من ذلك، لأنه دل على مبلغ أخلاقها ودرجة ألمها. على أنى أشكر لها حميتها ودفاعها عن نساء جنسها وألتمس لها بعض العذر على حدتها لأن المسيو (أودولف) أهاج كامن عواطفها. ولكنى لا أرى له هو رأياً أن يجرح عواطف إخواننا (أولاد الذوات)، ولا أجيز له أن يؤول مقالتى تأويلاً لم أرده. فقد ذكر أنى قلت «إن الغربيات لا يصلحن لإدارة البيوت»وهو يعلم أن هذه العبارة لم ترد البتة فيما كتبت، وإن ظنى بأن الكاتب لا يعرف العربية أو أن الذى ترجم له كلامى لم يحسن له الترجمة يجعلنى أحمل تهكمه وخروجه عن الموضوع على محمل حسن.

أما الفاضل (المتحرج من الزواج) فقد صدق فى كثير مما قاله عمن يدعون أنفسهن بالمتعلمات ولسن من العلم ولا من التهذيب فى شىء، وأضر ما يكون هؤلاء إذا تزوجن، لأن المتزوجة عليها واجبات شتى، وعلى قدر الواجب تكون المسئولية وهؤلاء لا يدرين حقوقهن إزاء الزوج ولا فن تربية الأولاد ولا كيفية معاملة الخدم وو..... إلخ. مما يجب معرفته ويراهن على جهلهن هذا شامخات بأنفهن نحو السماء ويحسبن الاشتغال بلوازم البيت حطة لمقامهن، فيقضين وقتهن بين حديث خرافة وخروج فى الشوارع. وهن على العموم أكثر النساء إسرافاً وتبذيراً فضلاً عن البهرجة وقلة الحياء فلا علماً أتقن حتى تتهذب نفوسهن، ولا على تربية منزلية محضة درجن حتى يعلمن على

الأقل طبخ عشاء بسيط إذا تركتهن الطاهية يوماً ما.

وهذه الفئة الجـاهلة الدعية فى العلم هى ولا شك فئة خريجـات مدارس الراهبات وكثير من المدارس الأهلية الأخرى. وقد خبرت مدارس البنات بأنواعها (ولا ينبئك مثل خبير) وحسبك وقوفاً على مبلغ علم هؤلاء أن تسألهن سؤالاً بسيطاً عن بعض ما يلقينه على مسامـعك مثل الببغاء فـلا يحرن جواباً. أما التدريس فـى تلك المدارس فهو على النظام الذى أخنى عليه الدهر أو محفوظ عن ظهـر قلب، وليس فيه للتعقل أو المحاورة نصيب يذكـر، ثم أن إحداهن لتسمـعك تاريخ فرنسا ولا تكاد تأخـذ نفسها من سـرعة الإلقاء. وإذا سـألتها عن عمـر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبى أو محمـد الفاتح، وأضرابهم من حماة الإسلام، قالت لك: لا أدرى.

ومدارس البنات فى مـصر كلهـا، خلا مدارس الحكومـة الثلاث، لا أثر فيـها إلا تظاهر بالعلم ورياء. وهى فى اعـتقادى لا تصلح مطلقـاً لتربية البنات المصـريات لأنها فضلاً عن قلة بضاعة العلم فيها تجعل تلميذاتها على خلق غير ملائم لنا.

ومما يؤسف له أن القوم عندنا لا يفرقون بين الصالح وغير الصالح؛ فإذا أدخلوا ابنة لهم فى مـدرسة للحكومـة، وأمـرتها ناظرة المدرسـة أن تلبس جلبـاباً، مغطى الصـدر والكمين مثلاً، أو تخلع حليها وقت الدرس، عدوا ذلك إساءة لابنتهم المدللة، وقطعوها عن المدرسة كما شاهدت مراراً.

نحن المصريين نحب الظهور والفخفخة بغير نظر إلى النفس وفضائلها. وهذا نقص فى التربية يجـب محاربته وإزالته. وأكـثر الآباء وجميع الأمهـات عندنا لا يقدرون من تعلم البنات إلا العزف على «البيانو» والرطانة لأنهما ظاهران.

وبالجملة، أقـول إن أحسن مدارس البنات فى مـصر هى مدارس الحكومة أخـلاقاً وعلماً على أنها لا تزال تقبل الإصلاح والرقى.

ولى كلمة أخرى فى هذا الموضوع تتعلق بالبيت والمدرسة أرجئها لفرصة أخرى.

تربية البنات

(فى البيت والمدرسة)

٥

كلنا يعلم ما تعودنا على سماعه من أمهاتنا فى سن الطفولة الأولى. كان يغرينا النشاط وحب العمل بمداومة الحركة واستكناه كل شىء مما تقع عليه حواسنا، ولو أدى ذلك إلى كسر الشىء أو تلفه. حينذاك كنا نسمع والدتنا تقول «خذوها للمدرسة» فترسم المدرسة فى مخيلتنا عفريتاً يهول منظره، لأننا كنا نعد غضب الوالدة أكبر قصاص لنا، وهى لم تفه بلفظة «المدرسة» إلا فى ساعة الغضب. هذه أول فكرة تلقى علينا من جهة المدرسة، فإذا شببنا قليلاً وأتى بنا إليها، ملأنا أرضها صراخاً وعويلاً وطال أمد الوحشة بيننا وبينها.

تبذل معلمات المدارس جهد الطاقة فى تثقيف عقول التلميذات وتعويدهن الفضائل، ولكن تلك الدروس إذا لم تدعمها الممارسة والمشاهدة لا تلبث أن تزول.

ترى إحدى المعلمات تنصح لفتياتها بأن لا يرتدين فى المدرسة الأثواب المزركشة أو الرقيقة فتأتمر الفتاة بأمرها، وما هو إلا يوم حتى ترى والدتها أحضرت لها من تلك الثياب أقلها حشمة وأكثرها بهرجة. وإذا عارضت الفتاة وقالت قد نهينا عن لبس مثل تلك الثياب أمس، أجابتها والدتها لا تكترثى بكلام المدرسة فهو موجه للفقيرات لا لبنات الأغنياء مثيلاتك. إذاً، ضاع النصح هباء، وتشجعت الفتاة على العصيان وعدم الاكتراث. كذلك المدرسة تدرب التلميذات على النظام وبيوتنا بفضل الجهل لا نظام بها، وقصارى القول أن ما تبرمه المدرسة لنفع التلميذات ينقض فى البيت ولا سيما مسألة الأخلاق.

وأسطع برهان على أن البيت يفسد ما تصلح به المدرسة. الفرق الظاهر بين التلميذات الداخلية والخارجية، فإن الأوائل كلهن أكثر نظاماً وترتيباً من الأخر، وأغلبهن أشد تمسكاً بالفضيلة لأنهن ينشأن على البساطة والحشمة، وقد رسخ ذلك فى أذهانهن

فلو كانت تلك الأم متعلمة أو جاهلة تقدر العلم قدره لذاكـرت لابنتها وأفهمتها ما تعسر علـيها فهمـه فى الحالة الأولى، أو أعدت لها مكاناً بعـيداً عن لغط الزائرات فى الثانية.

أعرف أختين كانتا معى فى المدرسة وقد قصتا علينا يوماً الحديث الآتى:

وقد كانت إحداهما فى السنة الأولى الابتدائية والثانية فى السنة الثانية، ومعلوم أن تلاميـذ وتلميذات هاتين الفـرقتين فى المدارس المصـرية لا يمكنهم التكلم بلغة أجنبـية. قالتـا: «سألتنا يوماً والدتنا إذا كان يمكـننا التكلم بالإنكليزية فأجـبنا إيجاباً ولما لم تكن تعرف هى منها شيـئاً لم نجد ما نوهمها به سوى بعض أبيـات إنكليزية كنا حفظناها فى السنة الأولى؛ وهى حكايـة عن طفلين ضـاعا فى غـابة إلخ. فـأخـذنا نتناوب شطور الأشعار أقـول أنا الأولى وأختى تقول الثـانية إلى أن فرغنا منها فـفرحت والدتنا بذلك وشهدت لنا بأننا «بارعتان فى لغة الإنكليز!»».

ذلك مثال من كـثير يبين أن جهل هؤلاء الأمـهات لا يقتصـر على تأثير بناتهن فى العلم ولكنه يشجعهن على الكذب والفساد أيضاً وإن كن لا يدرين.

وأدهى من ذلك وأمر أن الفـتاة إذا شبت وكـعبت فإن الأم لا تفـتأ تذكر لزوجـها وابنتهما تسمع ــ أن ابنتها كبـرت وأنها يجب أن تترك المدرسة لتتزوج، وأن فلاناً وفلاناً أرسل والدته أو أخته تخطبها. فلا تلبث الفتاة أن تلتفت إلى أمر الزواج وتهمل المدرسة لأن والدتها تغريها بذلك وتـهتم به كثيراً. فإذا أمطرت السمـاء يوماً ولو رذاذاً قالت لها لا تذهبى إلى المدرسة، وإذا اشتـد البرد منعتها عنها، وإذا زادت الحـرارة قليلاً صدتها. وإذا ذهبت لعرس إحدى جاراتها أخرتهـا يومين أو ثلاثة وهلم جرا. والفتاة مظلومة إذا لم تستفد من المدرسـة بعد هذا، ولكن المدرسة مظلومة أكثر منهـا إذا نسب تأخر الفتاة كله إليها.

ولا تكمل تربية الفتيات بحيث تصيـر المدرسة مسئولة عنهن بالمعنى الصحيح إلا إذا كن لا يبرحنها كـالداخلية مثلاً، أو إذا كانت أمـهاتهن متعلمات يسـاعدن المدرسة على القيام بأعبائهاوهذا يظهر فى الجيل القادم من بناتنا إن شاء الله.

لأنهن يمارسنه بالفعل ولا يجدن أمامهن ما يفسد ذلك الدرس المفيد.

فيا ليت شعرى هل يخفف المنتقدون قليلاً من حدتهم عند انتقاد مدارس البنات، لأن بيوتهم ونظامها أدعى إلى الانتقاد منها، والأمهات الجاهلات أكبر عثرة فى سبيل نجاح المدارس، ولا سيما إذا كانت بناتهن من القسم الخارجى. وليس من الإنصاف أن تكلف المدرسة بملاحظة الفتيات فى مغيبهن عنها؛ إذ إن أعضاءها لم يكن يوماً من الشرطة (البوليس) ويكفى ملاحظة التربية والتعليم فى المدارس. وليس ذلك بالأمر السهل على القائمات به.

المدرسة تأمر التلميذات بالنظافة وترتيب الهندام، والبيت لا يعنى بذلك كثيراً؛ فإذا غسلت الفتاة شعرها يوماً تنتظر بعده أسبوعاً بغير تمشيط حتى تجيئها الماشطة وتمشطه لها فى الأسبوع التالى، ويظل رأسها بين الأسبوعين معقداً قذراً، فترجعها المدرسة إلى البيت مرة أخرى وتكون النتيجة تأخر الفتاة عن تلقى الدرس، وربما استشاطت والدتها غضباً من تَكرر رجوعها من المدرسة وهى لو مشطت بنتها كل يوم لما استغرق ذلك أكثر من ثلاث دقائق ولكن هو الجهل والكسل.

حادثتنى مرة ناظرة مدرسة للبنات فى شأن التلميذات الخارجيات اللاتى يعدن إلى البيت كل يوم لقذارتهن. قالت «إنى أعجب لأمهاتهن كيف يرضين لأنفسهن أن تشتمهن المدرسة كل يوم ولا يخجلن». قلت لها: وكيف تشتمهن المدرسة؟ قالت «أليس إرجاع البنت إلى أمها بسبب الوساخة يعادل قولك لها إنك أيتها السيدة قذرة ولا تصلحين لإدارة بيتك؟ وأكبر دليل على ذلك إهمالك ابنتك وهى فلذة كبدك وأعز عليك بالطبع من المنزل وأثاثه ورياشه. ولو رجعت تلك التلميذة فى إنكلترا (وهى بلدها) إلى أمها بسبب القذارة لفكرت تلك الأم أن الانتحار أولى لها من أن تسب علناً بأنها «قذرة». هذا حقيقى لأن الأم الإنكليزية متعلمة وتعرف حقوق التربية وشتان بينها وبين الأخت المصرية.

هذا فى الأخلاق وقل مثله فى التعلم. فإن الفتاة ربما احتاجت إلى مذاكرة دروسها فتشغلها زيارة النساء لأمها، ما بين (دلالة وماشطة «وكدية» زار)، ويملأن قلبها الصغير النقى أوهاماً وخزعبلات فيهدمن ركناً من فضيلتها، ويبنين مكانه نقصاً ورذيلة، فضلاً عن إنهن يعقنها عن مذاكرة الدرس والاستفادة منه.

الزواج

(يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهن)

٦

بينا أنا أفكر فى موضوع أكتبه للجريدة إذ قرأت ما جاء بها بقلم (أحد الناس) وحديثه مع فتاة، فتأثرت به أيما تأثر، وقلت فى نفسى إذا كان الرجال يخوضون فى مثل هذه الموضوعات فنحن أحق بها منهم لأنها بنا أمس. وأجدر منهم بالشكوى لوقوع حيفها علينا. وسأتكلم هذه المرة على طريقة الزواج عندنا، لأنها مقدمة لموضوع تعدد الزوجات، الذى سأكتب عنه فى المرة القادمة إن شاء الله.

طريقة الزواج فى مصر طريقة معوجة عقيمة نتيجتها فى الغالب عدم الوفاق بين الزوجين. يقيم الرجل معالم العرس أياماً وليالى، ويتكبد مصاريف جمة لعروس لم يرها عمره، ولم يتأكد من حسن أخلاقها أو جمال نفسها، إنما سمع عن بياضها وسمنها أو مالها من الخاطبة التى تصف حسب نصيبها من نوال العروس وأهلها. فإذا أجزلوا لها العطاء صورت ابنتهم للشبان الخاطبين فى صورة «بلقيس بمالها أو شيرين بجمالها» وما هى إلا أحبولة يقع الفتى فيها فلا يلبث أن يصير بعلاً للفتاة إما على الحب منه أو الكره.

فإذا سعد طالعهما اتفقا قلباً وقالباً ورضى كل بالآخر رفيقاً له وصفت لهما الأيام. هذه حال قل أن يصل إليها زوجان، ومن تمت لهما كان ذلك أحدوثة فى بنى قرابتهما، وعند الجيران!

أما البائس الذى قدر له أن يعاشر حمقاء أو جاهلة أو مسرفة أو ما شابه مما يعرفه أغلب رجالنا بالتجربة فيا ويحه.

كذلك الفتاة إن فوجئت ببعل مدمن أو خليع أو فاسد السيرة فيا طول ما تقاسى من عناء. فمسألة الزواج عندنا هى ككل أمورنا نحن الشرقيين نكلها للقضاء والقدر

والحظوظ وما شئت من المترادفات. . .

ومما جعل مسألـة الزواج عندنا (أى المسلمين) هينة لينة إباحة الدين الحنيف الطلاق وتعدد الزوجات. ولكن حاشا أن يكون قـصد الشارع ما نراه الآن من الفوضى فى أدق الروابط الاجتـماعيـة، ومن نقض عهود الأسـر وقلب نظاماتهـا، فإن الأديان لم تخلق لجلب البؤس وإنما خلقت لإسـعاد البشر ولتـقريبهم من الإنسانية، أو لإبـلاغهم حدها الأقصى إذا تيسر ذلك.

وطريقة العرب على عهد النبى، صلى الله عليـه وسلم، وما بعده فى أمور الخطبة والزواج طريقة شـريفة معقولة إذ لم يـكن الحجاب حينذاك كمـا هو الآن. وإنى أجاهر بأن حجابنا مقلوب ونظام اجـتماعنا فاسد أشد الفسـاد، لا يصلح ولن يصلح لأن تتبعه أمة متمدينة.

أليس عجـباً أن نرى نساءنا وفـتياتنا يتـهتكن كل يوم فى عـرض الشوارع، ويملأن حـوانيت الباعـة، ويذهبن فى الخلاعـة كل مذهـب؛ فيكلمن سـائق (الترام)، ويقـفن مائلات عاريات الصدور متبرجات أمـام المصور (فوتوغراف)، وإذا طلب خاطب مستنير من أبى الفتاة أن يسمح له برؤيتها والتكلم معـها وأبوها يراقبهما عد ذلك أمراً أداً. هذا رجل وذاك مثله، والأول تكلمه بلا مراقبة وإنما بعلم من أهلها وترخيص، والآخر يريد أن يكلمها أيضاً، ولكن مع مراقبة أبيها، وغـرضه شريف وهو معرفة كنه التى سيتزوج بها ويجعلها شريكة حياته ومـربية ولده. فما السبب فى منح الأول ومنع الثانى؟ اللهم إن هو إلا الجهل والعادة وحب القديم حتى ولو كان مضراً.

إذا اعترض أحـدهم وقال: إن الفتيـان أغلبهم فاسدو الأخـلاق، قلت: إن المصور والبائع أفسد خلقاً من الفتى المتعلم. على أن المراقبة مانعة للفساد على كل حال. ثم إن خوف الفتنة أكثر فى الحالة الأولى منه فى الثانية، لأن المقام الأول مقام هزل؛ فتضحك فيـه الفتاة بلا مبـالاة، وتكشف عن ذراعيها أو صـدرها عند التصوير مـثلاً وتكون فى الغالب متبرجة. أما المقام الثانى فهو مقام جد، لا تتعدى فيه الواحدة حد الحشمة، فمن أين تأتى الفتنة إذن؟

وعندى أنه لو اتبع هذا السبـيل فى الخطبة لكان خيراً ولقلت حـوادث الشحناء بين الزوجين فيمـا بعد، وهى بلا شك نتيجة الـزواج (العميانى) الذى نتبـعه فى أعز شىء

لدينا وهو أبناؤنا وبنـاتنا. ولا يقتـصر الخـاطب على رؤية العـروس فقط فـإن ذلك لا يكفى، بل يجب أن يستفهم عنها جيداً ممن يعرفون أخلاقها، ويبحث عن سيرتها وأهلها فيتزوج منها على هدى بعد البحث والاستقـصاء. وهذه الشروط بعينها يجب أن يتبعها والد العروس قـبل أن يسمح للرجال برؤية ابنتـه، فما كل راء خاطب ومـا كل خاطب جاد، ورب فـتى هازل يريد اللهـو أو فاسـد يحب الاطلاع على الفتـيات بغـير قـصد الزواج! فهؤلاء يخرجون من موضوعنا لأننا لا نعنيهم وإنما نعنى الشريفى النفس الحسنى السيرة. والأب مكلف بالبحث عن حقيقة سائليه كما بينا قبل.

وهنا يعـترضنى فكر يجب أن أبسطه، وإن آلـم بعضهـم. فإن شبـاننا لم يتـعودوا احتـرام النساء، وذلك نـقص فى التربيـة الاجتـماعيـة يجب أن يتداركـوه. لا أريد أن يسجدوا لنا، بل أن يفسحوا لنا الطريق إن ازدحمت، ولينظروا إلينا كما ننظر إليهم إناساً مثلهم وليـتركـوا إشارات التعـريض وألفاظه التى أصمـت آذاننا، ولولا خوف مفـاجأة العجـلات والدواب لسددنا مسـامعنا عند كل سـير فى الطريق تخلصـاً من تلك البذاءة المحرجة. فهؤلاء وأمثالهم لا أصاهرهم لو كنت أباً. ولكن بين شبابنا كثيرين بحمد الله يتبعون الصراط السوى.

وقد سمـعت كثيراً عن قوم طلب منهم أن يـروا خاطبا ابنتهم فأروه أخـرى جميلة وزوجوه من التى لا يرغب فيها غشـاً منهم وترويجاً لبائرة عندهم. ولعل أحدهم يجعل ذلك من جملة اعتراضاته على الموضوع، ولكنى سبقت فقلت: إن هؤلاء قوم لا شرف عندهم. والشـريف وغيره يظـهر من معـاملاته وطبـاعه وسـيرته، والبحـث يفرق بين الضدين فلا يعقل أن يستمر الرجل شريفاً فى كل أمر يأتيه مع إخوانه ومعامليه ثم تتغير ذمتـه فجأة عند زواج ابنتـه! إن هذا يكاد يكون مستـحيلاً. ثم إن هناك قـوماً يعجـبون بالخاطب وبأخـلاقه ولكنهم يردونه خـائباً لأن المهر الذى عـرضه عليهم قليل. فـياليت شعرى أيشترى العاقل الراحة بالمال أم يشترى المال بالراحة؟ وماذا عليهم لو كانت ابنتهم سعـيدة غير غنيـة؟ إن أكثرهم يطلبونهـا غنية قبل كل شىء، ويحـسبون السعـادة تابعة للغنى. ألا ساء ما يحسبون.

ومن أكبر الأسبـاب المنتجة لشقاء الزوجين عندنا عدم ائتلافهـما؛ أن يكون أحدهما راغبـاً فى زواج آخر يعـرفه أو يحـبه فـيجـبره أهله على التـزوج ممن لا يريد. والمثل

الفرنسى يقول Vouloir C'est pouvoir أى الإرادة هى المقدرة. فإذا تزوج فتى من غير من يحب فإنه بالطبع يريد أن لا يهنأ معها، وأن يعذبها من غير ذنب. فيقدر ولا شك على ذلك. والمثل بالمثل مع الفتاة وذلك ظلم بين من الأهل لا يغتفر.

وهذه العادة كثيرة الشيوع بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين الأصحاب، يكون لأحدهم ابن فبمجرد ما تولد ابنة أخيه أو ابنة صاحبه يتفقون على أن المولودة الجديدة هذه من نصيب الصبى فلان عندما يكبر ويأخذون العهود والمواثيق على ذلك. وربما ربى الصبى تربية غير التى نشأت عليها الفتاة أو رأى أخرى أعجبته وهنالك الطامة الكبرى. أنت لا تأكل مكرهاً ولا تنام مكرهاً فلم تزوج ابنك أو ابنتك بالقصر والإجبار؟ ربما كان من يختاره الأهل أجمل وأغنى ولكنه فى حال البغض يكون كأنه أقبح خلق الله وأفقرهم. على أن الجمال والغنى ليسا من شروط الوفاق بخلاف الرغبة فهى داعية له.

فنتيجة شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما مقدماتها الأسباب التى شرحت قبل وهى:

(١) جهل أحد الزوجين بالآخر.

(٢) زواج مختلفى الطباع كعالم وجاهلة وبالعكس، أو غنى وفقيرة، ومختلفى الدين والبلد.

(٣) الطمع فى الغنى بغير نظر إلى الأخلاق.

(٤) الزواج القسرى.

(٥) تأويل الدين الحنيف على غير ما أريد منه فى أحكام الزواج والطلاق.

وهذه الأسباب كلها شعب لأصل واحد هو عدم الحكمة. فإذا روعيت شروط الحكمة والتحرى قبل الزواج فقل أن نرى هذا الشقاء المخيم على البيوت المصرية الهادم لمعنى الزوجية. وخير للفتاة والفتى أن يعيشا أعزبين من أن يتزوجا بثالث أيضاً هو البؤس والعذاب.

تعدد الزوجات

(أو الضرائر)

٧

إنه لاسم فظيع تكاد أناملى تقف بالقلم عند كتابته. فهو عدو النساء الألد. وشيطانهن الفرد. كم قد كسر قلباً، وشوش لباً، وهدم أسراً، وجلب شراً. وكم من برئ ذهب ضحيته وسجين كان أصل بليته. وإخوة لولاه ما تنافروا ولا تناثروا ففرقهم أيدى سبا وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم، ويضمرون السوء بعضهم لبعض، يثأرون ولا ثأر بنى وائل وكانوا لولاه متفقين.

إنه لاسم فظيع ممتلئ وحشية وأنانية. كم أحرج رجلاً وعلمه الكذب فأفسد عليه خلقه. وكم بذر مالاً كان يعده لبعض رزقه. وكم أحفظ قلب والد على ولد. وكم علم الوشاية والحسد. فإذا ما لهوت أيها الرجل بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسة تصعد الزفرات، يتساقط من مآقيها أمثال لؤلؤ عروسك، ولكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلاً. واخش الله فى صغار يبكون لبكائها، علمتهم الحزن فاستعاروا يواقيت عرسك أعينا. أنت تقرع سمعك الطبول والمزامير، وهم لا يسمعون إلا دق الحزن فى طبول آذانهم وكانوا من قبل ذلك جذلين.

وهذه البادية التى أقطن الآن لا أبالغ إن قلت إن جميع نسائها جربن الضرائر لشيوع عادة الجمع بين زوجتين في رجالهن، ولى من مخالطتهن ما يجعلنى على ثقة من هذا الموضوع.

طالما سألت امرأة من الحى هذا السؤال: «ترى هل تحبين زوجك الآن كما كنت تحبينه قبل زواجه من غيرك؟» فكان جواب كل من سألت سلباً.

وقد حقق لى ذلك بعضهن. وسمعت عن أخريات أنهن فى الحقيقة كن يفضلن أن يرين نعش أزواجهن محمولاً على الأعناق على أن يرينهم متزوجين بأخريات. فيا لله

أإلى هذا الحد يبلغ بغض المرأة لـلضرة؟ فلـيتـأمل الرجـال. أرى «القـديمة» حـزينة و «الجديدة» كذلك. فـإذا قلت للأولى ماذا يحزنك أجابت: يحـزننى ذلى وانكسار قلبى وأنا على مـا ترين لست أنقص عن الجـديدة جـمالاً ولا أدباً وكنـت أبذل جهـدى فى مرضاة زوجى، أما الآن فلا. على أنه لا يزال يستـرضينى فيقول لى أنت أحب إلىّ من الأخـرى، وأنت أول من ملك قلبـى وأنت جمـيلـة وأنت وأنت .... إلخ. وأنا لم أتزوج عليك لنقص فـيك وإنما كـان ذلك مقـدوراً. وإذا ما سـألت الجديدة عن سـبب انقبـاضها قالت: يحـزننى أن أرى لى شريكة ومنافسـة على أن زوجى يحقق لى أنه لا يعبأ بها، وأنه لو كان مـقتنعاً بها لما تزوج عليها، وأنه يريد طلاقها ولكنه يبقـيها رحمة منه لتربى أولاده فقط. فما أقدر زوج الضرتين على التفنن! ولو انصفوا لعينوا زوج كل اثنتين سياسياً أو ناظراً للمستعمرات! (ولكن الذى يؤسف له أنه ليس لنا مستعمرات).

المرأة إذا ابتليت بالضـرة انطفأ سراج بهـجتهـا، والتهبت مكانه نار حـقدها وذوى غصن قـدها وزرعت محله بذور شرورها. فإن لـم تك تقية وإلا وسوس لهـا الشيطان وعلمها أساليب الانتقام والكيد. وكثيراً ما دست امرأة السم لزوجها أو لضرتها أو لابن ضرتها فكان القضـاء عليهم جميعاً، وكـثيراً ما عمدت للوشاية بـها عند زوجها أو ثلم صيتـها عند الناس، وأغلبهن يبـذلن مالهن ويبعن مـصوغاتهن للسحـرة ليكيدوا للزوج ولامرأته على زعمهن.

فزوج الثنتين غـير سعيد كـما قد يخيل له. إذا تغـيب لبعض شغله اتهمـته إحدى المرأتين بأنه كان عند الأخرى. وياليت التهمة تقتـصر على هذا فإن هناك التغير والتدلل والكراهية والبـذاءة أحياناً. وإذا نسى واشتـرى لواحدة منديلاً ولـم يشتـر للأخرى صب عليه سوط العـذاب وألزم بأضعاف أضعافه. فمـا كان أحوجه للراحة وما أشـد اشتغال باله. الإكثار من الزواج داء إذا تأصل صعب استئصاله.

ولا أعذر الرجل يتزوج مرتين إلا إذا تعذر عيشه هنيئاً مع زوجته الأولى، لسبب ما شرعـياً كان أو غيـر شرعى. فيضطر للـزواج اضطراراً، ولكن الحازم لا تنسيه أفـراحه أولاده ولا امرأته الأولى إن كـانت لا ذنب لها. أمـا إذا كان يعـد بقاءها مـعه منغـصاً لحياته، أو كان كارهاً لها، فليطلقها بتـاتاً فربما يجد مع غيرها راحة وتجد هى كذلك مع غيره «وفى الأرض عن دار القلى متحول».

والطلاق، على مذهبى، أسـهل وقعاً وأخف ألماً من الضـر. فالأول شقـاء وحرية والثانى شقاء وتقييد. فإذا كان الشقاء واقعاً على كل حال فلماذا تلتزم المرأة الصبر على الشدة وترى بعينيهـا ما يلهب قلبها ويدمى محجريها؟ ألا أن حـزيناً حراً خير من حزين أسير. وبعضهم يخادع المرأة الأولى بأن يجعلها حاكمة على البيت معها مفاتيح خزائنه، ولكن مـاذا تفيد مـفاتيح الخـزائن والحكم على السمن والعـسل وأين هذه من مفـاتيح القلوب وحب الزوج؟

تعدد الزوجات مفسدة للرجل، مفسدة للصـحة، مفسدة للمال، مفسدة للأخلاق، مفـسدة للأولاد، مفـسدة لقلوب النسـاء. والعاقل من تمكن من اكـتساب قلوب الغـير فكيف بقلوب الأهل والعشراء؟

مفسدة للمال؛ لأن الرجل فضلاً عن تحمله أعباء أسرتين وقيامه بلوازمهما يرى كل زوجة من الثنتين تجـتهد فى التـبذير لتعجـزه عن الإنفاق على الأخرى، أو لتـمنعه من الزواج بأخرى. ولا تلام إحدى الزوجتين على تبذيرها فـذلك طبيعى إذ تقول ما الفائدة من اقتـصادى؟ أنا أحـرم نفسى مما ربما أشتـهيـه وزوجى ينفق ذلك المتوفـر على امرأته الثانية؟ فخير لى أن أمتع نفسى بمطالبها كما تفعل ضرتى. أما الأولاد فإنهم بدلاً من أن يكونوا من امرأة واحدة يولدون من امرأتين فيتضاعف عددهم. فإذا أخرجنا الأغنياء من حكمنا كانت مـعيشة الأب المتـوسط أو الفقيـر ضنكاً وعوزاً لأن زماننا هذا غيـر الزمان الأول. فغلاء المعيشة ونفقة أسرتين وتعليم أولادهما ليس بالأمر السهل.

مفسدة للأخلاق؛ لأن زوج الضرائر دائمـاً يحتال ليطمع كل واحدة فى حبه، وهذا تكفى فيه المداهنة والتطبع. على أن زواج الضرائر فى ذاته طمع وشره.

مفـسدة للأولاد لأنى رأيت بنفسى أن كـل ضرة تطبع كراهتـها لضرتهـا فى نفوس أولادها. فيشب الطفل وقد أشرب كره إخوته لأبيه وأمهم بلا مسوغ سوى ما زرعته أمه فى عقله من مـبادئها. فـمهما فـعلت امرأة الأب لترضى ابن زوجـها ومهمـا أحسنت معاملته فإنه لا يفتـأ يتهمها بكراهتها له، وبأن ما تعمله معـه من خير ومعروف فإنما هو لخـوفهـا من أبيه أو مـداراة لما فى قلبهـا منه! وإنك لتـرى أبناء الرجل الواحد يغـارون ويحسدون بعضهم البـعض كما علمتهم أمهاتهم. وفى كلام العامـة وأمثالهم الجارية ما يؤيد صحة هذا المبدأ.

مفسدة لقلوب النساء؛ لأن الأولى تكرهه بلا شك لإغضابه إياها وجرحه لعواطفها والثانية لا تصافيه مطلقاً مادام متعلقاً بغيرها فهو «المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

ويسرنى أن عـادة الجمع بين زوجتين كـادت تتقلص الآن من بين الطبـقات المتنورة والعالية. لأن التمـدين والاستنارة يحرمانها وإن ادعوا أن الشـرع يحللها. ولأن العيش أصبح سعياً وتناحراً فإذا كان أجدادنا يكفى أحـدهم أن يمتلك عشرة أفدنة لينام مستريحاً فى بيتـه ويتزوج اثنتين أوثلاثاً فإن رجل الـيوم لا يكفيه مـائتا فدان مع تعـبه واجتـهاده للإنفاق على بيت واحد صرف التمدين الحديث محب الظهور.

سن الزواج

٨

بينت فى مقالى الأسبق ما يجب مراعاته فى الخطبة والزواج من حيث اتحاد مشارب الزوجين فى الدين والأخلاق والمعارف على قدر الإمكان، ومعادلة البيئات. واليوم أفرد موضوعى هذا لشرط آخر لا يقل عن هذا أهمية وهو السن الملائمة للزواج.

«الشرق» كما قـال لورد كرومر فى أحد تقاريره عن مصـر «يتم فيه بلوغ كل شىء متقدماً». وهذه حقيقة جغرافـية لا ريب فيها. إذ بنسبة حرارة البلاد يكون نضج النبات والثمار ونمو الإنسان والحيوان. هذا ناموس الطبيـعة الثابت، بغير نظر إلى تفاوت درجة العلم والعناية، وما يتخذ من التدابـير لإنماء ذلك الشىء أو لتحسين الآخر، مما يكون له أثر فى البطء والإسراع. فبلوغ الفتـيات فى مصر يكون عادة فى الثانية عـشرة أو الثالثة عشـرة لجيـدات الصحة بعـكس فتيـات أوربا والبلاد البـاردة الأخرى فإنـهن ربما جزن السـادسة عـشرة أو الثـامنة عشـرة ولـم يبلغن. وعليـه فلا نقـيس سن الزواج عندنا به عندهن، لأننا كما نسبقهن فى البلوغ يجب أن نسـبقهن أيضاً فى الزواج، فضلاً عن أن فتـياتنا أقـرب إلى السكينة، وأبعد عن الطيـش من أخواتهن الغربـيات. وإنى لا أوافق بعض الأطباء الذى كـتب فى الجرائد مـرة ينص على أن سن البلوغ يجب أن يكون هو

بعينه سن الزواج. إذ بالله ماذا تفهم فتاة فى الثـانية عشرة من معنى الزواج، وماذا تعلم من أمور البيت، وماذا تعـمل لو رزقت بأولاد؟ إنى أكاد أتصورها تموت هى وإياهم إن لم يكن فى النفاس فـفى التربية. وقد ثبت بالتجـربة أن أكثر اللاتى يتزوجن صـغيرات جداً يصبن بأمراض الأعصاب (الهستيريا) وهذا هو السر فى وجود (الزار) كثيراً عندنا.

إن الزواج ليس بالشىء الهين ولا هو بالهزل. تظن الفتيـات الصغيرات والراشدات أيضاً أن الزواج معناه ضرب الموسيـقى ونصب السرادق ليلة العرس ولبس الحرير والماس والمبـاهاة بالأثاث والأوانى الفضـية، وغـير ذلك من ضـروب الفخـر الكاذب والطنطنة الفارغـة. ليس هذا هو الزواج يا سيدتى الصغـيرة، بل هو إرضاء الزوج وحسن الـقيام على ماله وتدبيـر بيته ومـؤاساة أهله وتربية أولاده ورئاسة خـدمه. فهل تسـتطيعين كل ذلك؟ لا أخالك تستطيعين.

تقص علينا جداتنا وأمهاتنا فى بعض سـمرهن أنهن تزوجن ولم تزل عليهن التمائم فكن يهربن فى (الحارة) ويبكين عند الجيـران ويأتين من المضحكات ما يبكى. فهل نريد أن نرجع القهقرى إلى زمن أجدادنا؟ حرام عليكم أيها الآباء ظلم بناتكم وتكليفهن ما لا يطقن ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. حرام عليكم أيها الآباء الإصغاء إلى أمانى النساء الجاهلات وزج بناتكم الصـغيرات فى سـجون الزوجية الـضيقة. حـرام والله أن تتزوج البنيـة اليوم وترجع لبـيت أبيهـا غداً. حـرام على الأم أن تقول «أريد أن أفـرح ببنتى» فتـزوجها طفلة ولا تنتـقى لها كفؤاً، بل تعطيـها لأول طالب لها. ولعـمرى أن الزواج ليتطلب الروية والتأنى والأم ملومة أكثر من الأب لأنها جربت الزوجية بنفسها، وسبرت غور مـصاعبهـا وأتعابها، إلا أن حب الظهـور متأصل فينا لدرجـة أننا نرمى ببناتنا فى المأزق الحرج كى يقـال عنا عرس فلانة كـان فخمـاً وما أبهى العروس، وغـير ذلك من الترهات.

والزوج قد يسر أولاً من عروسه الطـفلة، لكنه لا يلبث أن يستاء، وهى مظلومة لا جريرة عليها لأنهـا بالطبع لا تفهم ولا تستطيع القيام بحاجـات منزلها من نظافة وحسن ذوق فى وضع الأشياء فـى مواضعها. وهى لا تفـهم معنى المسئوليـة لكنها مع الأسف مسـئولة عن جميـع لوازم البيت من طعام ولبـاس وغيرهما. وهى تـنام مستغـرقة من الغروب إلى الضحى فإذا بكى ولـيدها لم تسمعه فيقـتله البكاء إن لم تقتله هى بالتقلب

عليه فى النوم. والطفل يحتاج لسهر الليل وللرضاعة، أفتقدر الصغيرة على حمله طول الليل، وإرضاعه، ومعـرفة أمراضه وأوجاعه وحسن العناية به؟ يا قـوم هذه إحصائيات الصحة ترينا كل يوم بأجلى ما يرى كثرة موت الأطفـال فى مصر، أو أصابتهم بما يعسر شفاؤه نتيجة جهل الأمهات بلا شك، والجـهل فى الصغر أكثر منه فى الكبر، فإذا قرن بما يستلزم الصغر من الضعف وعدم القدرة على تحمل مصاعب التربية كان أدهى.

ومن نكد الدنيا على الفتاة، قاصرة كانت أو رشيدة، أن تتزوج من فتى صغير تابع لأبيه وتكتفى من الزوج بأنه ابن فلان الغنى. فطالما سـمعنا بأن اختلاف الكنات أو سوء سير الفتى أدى إلى طرده هو وزوجه من بيت أبيه. فماذا يفعل إن لم يكن تعلم علماً أو صنعة تساعـده على المعيشة؟ لا جـرم أن يذوقا وبالاً، أو ينتجعا بيت أهـلها وتبقى هى وهو وأولادهما عالة عليهم إلى أن يشاء الله.

ومما يشقى الزوجين أيضـاً مختـصاً بالسن أن يتزوج هرم شـابت مفارقـه بشابة فى مقتبل العمر، أو بالعكس فتى بعجوز. فـإن مشرب الشباب يختلف عن مشرب الهرم، فضـلاً عن أن النسل الناتج من أبوين بعـيدى فرجـة السن الواحد عن الآخـر يأتى فى الغالب ضعـيفاً أو لا يأتى بتاتاً. وإنك إذا نظرت هرماً وشابة، أو شـاباً وعجوزاً ممسكاً أحدهما بذراع الآخر، كما قد ترى الفرنجة فى طريقك أحياناً، فإنك لأول وهلة تستنكر هذا المنظر، وتحكم إن حقاً وإن كذباً، بأنها ابنتـه فى الأول أو أمه فى الثانى. وما يمجه النظر فهو ليس طبيعياً. وإذا كان الله سبحانه أحكم أمر الملاءمة فى الطبيعة؛ فلم يخلق الجبل الوعـر فى السماء الرقيقـة الصافية، ولم يبـرأ النجوم الجميلة المتـألقة فى الأرض الخشنة القاتمة، فلم نجمع نحن بين الأضداد ونخالف ذوق الطبيعة الصادق؟

الشابة تفكر فى زينتها وحسن هندامها والتأنس بجمال الاجتماع بصديقاتها، والهرم يفكر فى علبة السعوط والثريد ودواء السعال فيا:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

كذلك الشاب لا يلذ سمعه الشينات الكثيرة والياآات فى موضع السين والراء، ولا زيادة مصروفاته فى تركيب الأسنان المستعـارة، وصبغ الشعر، وطلاء الوجه، وغيره من لوازم سيدتنا أو (أمنا العـجوز) كما كنا نقول فى قصص الطفـولة. أحب فتى مرة امرأة أعجبه شكلها فخطبها إلى نفـسها، فقالت له: أنت فتى وأنا عجوز لا أصلح لك، فلم

يقبل قولها وظنها مازحة وألح عليها فى قبوله بعلاً، فلم تر بداً من إجابته إلى طلبه، فلما دخل عليها ليلة العرس جلس يكلمها وإذا بها خلعت أسنانها ووضعتها على منضدة أمامها فهلع قلبه إلا أنه بقى صامتاً ينظر إليها ريثما تتم عملها، ثم خلعت إحدى عينيها، وكانت صناعية من الزجاج، ثم جردت رأسها من شعرها المستعار فظهر أصلع مخيفاً، وبينما هى تنزع القطن من صدرها هرول الشاب نحو الباب مسرعاً فنادته: لماذا تهرب وقد كنت تدعى أنى فتنتك بجمالى؟ فأجابها: يا سيدتى "نعم أهرب ويحق لى لأنى رأيت أغلب أعضائك من الدكان وأخاف أن تكون حواسك كذلك أيضاً" فهل يغبط الرجل على زوجة مثل هذه؟! وإذا لم يغبط فلماذا تكره الشابة على تزوج الهرم؟ اللهم أنت خالق الخلق ومحدد الأعمار، تزعم الجاهلات أن زواج الهرم دلال فى حياته وغنى بعد موته فهل ضمنت المرأة الطماعة أن المنية ستعدو عليه أول؟ وهل تطيب الحياة الزوجية إذا كان الواحد يترقب الموت لرفيقه؟ وهل تصح معاشرة هذه التى تعد موت القرين ربحاً؟ إن هذا إلا ضلال كبير.

فعلى ملاءمة سن الزوجين يتوقف شىء كثير من الوفاق والمحبة والواجب أن لا تتزوج الفتاة إلا متى صارت أهلاً للزواج كفؤاً لتحمل مصاعبه، ولا يكون ذلك قبل السادسة عشرة. وتزويج الصغار لعب فيه شقاء للأمة من عدة وجوه؛ عناء فى الزوجية نتيجته دائماً الشقاق أو الانفصال، كثرة وفيات الأطفال، ضعف النسل، إصابة النساء بالأمراض العصبية والأمراض النسائية الأخرى.

وزواج مختلفى السن إضعاف للنسل وشقاء للزوجين وقلب لنظام الطبيعة الدقيق.

فمتى يلتفت لهذا الآباء والأمهات؟ ومتى تنقشع سحابة هذا الشقاء عن سماء بيوتنا؟ ومتى ننظر للزواج بعين الجد والاهتمام؟ اللهم أرنى ذلك اليوم فهو أمنية النفس وسبيل سعادة الأمة وترقيها.

طلاء الوجوه

٩

أول ما يلفت نظر باحثة مثلى عند زيارتها القاهرة كثرة وجود الخدود البيض في شوارعها وطرقاتها ومنازلها. فيا ليت لى علم الغيب كلنا من جنس واحد؛ إما من سلالة العرب الفاتحين، أو من الفراعنة، والأولون والآخرون لم تؤثر عنهم الشقرة، ولم يأت فى أوصافهم الصحيحة وتواريخهم ذكر لاشتداد حمرة الخدود وزيادة بياض الوجوه إلا ما كان مبالغة خيالاً فى حبيبة أو حقيقة نادرة. فلماذا نجد نساء القاهرة كلهن شقرا ونساء المدن الأخرى أقل بياضاً؟ أو لماذا نجد الدم ضارباً فى وجوه الحضريات قليلاً عند الفلاحات والبدويات مع إنهن دائماً معرضات للشمس، تنقى الدم وتجدد الصحة. إن فى الأمر لسراً. نعم إن المسحوقات والمراهم وضروب الأصبغة تفعل بالوجوه فعالها «وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر»؟

تزعم عاشقة الطلاء أن البياض حلية، ولكن هل تعتقد أن هذا الأبيض، الذى خيل لها أنه أبيض، يبقى إذا فرض أن خيالها صحيح. كلا إن هذا الأبيض الذى تتعمده وتجتهد فى تنميقه لا يلبث أن يزرق فيصير وجهها بنفسجياً. فهل سمعت فى أشعار المتغزلين والمشببين أن الوجه البنفسجى من آمهات الجمال؟ وهل إذا لفح الحر الوجه المدهون فسال عليه العرق يخطط جداول وغدراناً، وينقل من كحل المحاجر إلى صفحات الخدود، فيختلط الأسود والأحمر، هل يرى ذلك الوجه مشرقاً جذاباً؟ ولماذا تعد الشقرة خيراً من السمرة، ألا تتساوى فى ذاتها الألوان؟ إن مسألة اللون اعتيادية صرفة لا أثر لها من الصحة، فأنا أحب اللون الأخضر وجارتى تحب الأحمر. فهل تفضل إحدانا الأخرى من هذه الوجهة؟

إن هؤلاء السيدات يقلدن، ولكن تنقصهن ملكة الذوق فى كثير مما يعملن، فإن الوجوه الشديدة البياض والحمرة يكون فيها دائماً عينان زرقاوان وحاجبان أخطبان ويكسو رأسها شعر أشقر فتلائم بعضها بعضاً. أما نساؤنا فإنهن بينما يصبغن حواجبهن

بالسواد الفاحم إلى نصف الأنف وأعينهن يكاد كحلهـا يخلق لها حاجبين آخرين تراهن بعد ذلك يصبغن وجوههن بالشقرة. فأين الذوق الحسن من هذا الترقيع الشائن؟

الوجه المدهون يضيع كثيراً من معـانى الجمال؛ فإن تأثرات النفس وطبائعها تنعكس على مرآة الوجه فتكسبه أثرهما فيما لا يمكن وصفه؛ فى العينين وفى الفم وفى الابتسام وفى أسارير الوجه الصغيرة وفى الجلد نفـسه أيضاً. ولكن الطلاء يظهر الوجه كأنه ليس فيه حيـاة، ويغطى جلده المملوء معنى وينزع بصاحبتـه إلى تصنع الحركات والسكنات، والتصنع يذهب بهجة الجـمال. ولست مبالغة إن قلت إنى أعد كل طالية وجـهها تمثالاً من الرخـام فإذا كـان حافظ يعـجب لصـمت تماثيل الطليان فـأنا أعـجب لتكلم تماثيل المصريات.

لتقـف سيدة من هؤلاء اللاتـى يستعـملن الطلاء بجـانب تمثال من عرائـس (ستين وكموان) ولتنظر فى المرآة فتتحقق من حكمى عليها.

ضمنى مجلـس بصديقتين من المتعلمـات المهذبات، وكنا ننتظر سيدة فـرنسية أتت مصر لأول مرة لتسيح فى الشرق وتخبر عادات أهله، فحضرت السيدة السائحة وأخذت تسألنا عن عاداتنا وأخـلاقنا، وأظنها سرت بحديثنا، وإذ دخلت علينا زائرتان مـصريتان (من قسم التماثيل) فبهتت السائحة وخجلنا نحن الثلاث لهذا المنظر غير الجميل، وبينما كانتا تتحـدثان مع صاحبة المنزل بالعربية، والسـائحة لا تفهمهما، كـنت أسارقها النظر فأراها تكاد تجهر بضحكة عالية احتقاراً واستهزاء من هاتين المرأتين. فيا ويحنا أما يكفينا أن يحكم علينا الغـربيون بالجهل والتـأخر حتى يروا مـا يسجل علينا العـار؟ وبعد أن خرجتا قامت السائحة وطفقت تقلد لنا حركاتهما، وتشمئز لذكر وجهيهما، ولم يسعنا إلا موافقتها.

هذا الطلاء مضيع للجـمال الحقيقى المعنوى والحسى أيضاً، فـإنه يسمم الجلد ويسد مسامـه ويجهد عضلات الوجـه. فإذا استعملتـه سيدة وانقطعت عنه يوماً ظهر وجـهها شاحبـاً أصفر متغضناً وتـغور عيناها وتسود ولا حور. وعـملية الطلاء هذه ربما تعذرت حيناً؛ فقد تمرض المرأة أو تـتأخر فتفاجئـها الزائرات. فماذا تعمل؟ أتقابلهن طبـيعية أم تجبرهن ساعة على الانتظار ريثما تتم عملها الشاق؟

السيـدة التى تغش زوجها يجب أن تحـتقر، لأنهـا تزدرى بصنع الخالق سبـحانه،

وتعمد إلى تغييره، ومن يزدرى بصنع الله كـافر. لأنها تخدع الرائين والرائيات والخادع يجب أن يمتهن. لأنها تجنى على صـحتها وتعجل الهرم لنفـسها. فهى، إذن، لا تدرى النافع من الضار. ومـن لا يعرف نفع نفسـه من أذاها أبله لا يحترم. لأنـها تجنى على الآداب فتجعل من نفسها قدوة فاسدة لبناتها.

وإذا كان الوجه الذى هو أظهر أعضاء البدن يعـمد لغش الناس فيه فكيف بالضمير الخفى؟ إن الطالية وجهـها ساقطة فى رأيى. فلتغضب من هذا القول من كـانت غاضبة فإنى لا يهمنى رضا التماثيل.

ولولا تشجيع الرجال النساء فى غرورهن لما تمادين فـيه، فإن بعض الرجال يشترون بأنفسهم علب المسـحوقات وأنواع المحسنات لنسائهم وبعضـهم يتكدر عندما يرى امرأته فى وجهها الأصلى وهيئتها البسيطة.

ألا يا نساءنا اتركن هذه العـادة الذميمـة. وإن كان لا يسليكن غيـر صناعة النقش بالألوان فأمامكن الورق، ليس أكثر منه، انقشن فيه صوراً ورسوماً تحلى جدران المنازل، واشكرن الله على نعمه الجزيلة، واعلمن أننا مـصريات، فإن لم يكن فى أجدادنا أصل العجمة فمن أين لنا هذا البياض الناصع والاحمرار الشديد؟ وما أحلى السمرة الجاذبة لو تفهمين معناها. إنها جميلة لأنها جميلة، ولأنها مصرية، ولو لم يكن فيها غير المصرية والطبيعة لكفى. وكل طبيعى جميل.

مبادئ النساء

المبدأ الأول: عدم الثقة بالزوج أو الغيرة العمياء.

١٠

أول مبدأ تحـفظه المرأة الجاهلة عند زواجهـا هو عدم الثقة بزوجـها، مهمـا أكد لها براءته من تهمة الخـيانة، ومهما كـان الباعث له على تغيبـه عن منزله، فتراها إذا ذهب زوجها لديوانه ودعـاه صاحب له إلى الغداء معـه فلم يؤب لمنزله إلا بعد، تراها تتكدر

وتثور زوابع غضبها وتتهمه إما بزواج جديد أو بمصاحبة غير شرعية. تراها إذا دعى للسهر مع إخوانه فتأخر قليلاً بالليل تسأله: أين كنت ولا تصدقه إذا قال الحقيقة. تراها إذا كان ممن ينتدب فى تحقيق قضية أو البحث عن جناية وتغيب يومين أو ثلاثة تتهمه بالتغيب عند زوجته الثانية. فمبدأ عدم الثقة هذا يسبب ما تخافه المرأة، ويصير الخيال حقيقة، فيلتفت الزوج إلى ما تقول امرأته، ولا يلبث أن يتزوج أو يخال، لأنها علمته أن هذا الأمر مستطاع له، وسهلته على أذنيه وروحه بكثرة ذكره له، وشدة الضغط تحدث الانفجار.

إذا ركز هذا الأساس فى رأس الزوجة نغصت عيشها وعيش قرينها، لأن السعادة والشقاء وهميان، فإذا تخيلت أنى سعيدة انبسط أمامى الكون، ووجدت مخرجاً من المضايق التى تعترضنى، ووجدت من ثقتى بنفسى واعتدادى بسعادتى سعادة حقيقية، وصرفت الأمور على قاعدة أن أكون دائماً جذلة، وإذا انقلب الأمر رأيت كل حادث هين جالباً للشقاء. وهذا مشاهد فى النساء، لاسيما الجاهلات، لأن اعتقادهن فى أى شىء لا يتزعزع حتى ولو سطع أمامهن برهان يكذب ما يعتقدن، ولأن أعصابهن أسرع تأثراً وأنفسهن أكثر انفعالاً منها عند الرجال.

وقد يتفق أن يرى الإنسان سيدة دائمة الحزن مقطبة الجبين بلا مسوغ، وأخرى دائماً جذلة وكل ما حولها مثبط للهمة مزعج، فأى الأسباب عكس كل قضية إلى ضدها؟ إنه هو الاعتقاد والنفس.

وإذا فقدت المرأة الثقة فى قرينها فقد يفقدها هو أيضاً منها، فيالهول تلك العيشة المنكرة. مرتبطان اسماً منفصلان معنى، والنساء الملتفات حول الزوجة يزدنها كرهاً له بأن يزعمن أنهن رأين خليلته أو زوجته الأخرى، وينهبن الزوجة الساذجة ويطمعنها فى أن ما يأخذنه منها هو لنكاية عدوتها، وسلاحهن الوحيد هو السحر. فياضعف السلاح والمقاتل. لماذا تعتقد المرأة دائماً أن الرجل ليس مخلصاً لها الود كما هى مخلصة له؟ إنها ولا شك مخطئة فى ذلك التقدير إلا إذا رأت بعينها ما يثبته. ومما يجسم لها خيالها لسانها الذى لا يفتأ يقلب للزوج مواضيع لم تكن لتخطر له، فهى تعيدها صباح مساء، وتقوم معها وتنام، تحلم بها وتأكل، وهى من جوارشها (أى مشهياتها للطعام) فيتضايق الزوج لأن الموضوع فى ذاته ثقيل، ثم هو مكرر ومعاد مراراً، والشىء حتى الجميل إذا

كرر مراراً ضاعت طلاوته، وذهب رونقه، فما بالك بهذه التـهمة الشنيعة وفقدان الثقة.
إذا تضايق الزوج من هذا الحـديث، وبلغت روحه التراقى، ولـم يفلح فى إثبات براءته وإخلاصه لزوجته، لم يجد أمامه إلا أحد طريقين؛ إمـا أن يكثر من مجالستها ويستغنى عن رأسه وأذنيه، وإما أن يهيم حيث لا مضايق وحـيث يبجل مع إخوانه ويتبادل معهم أطايب الحديث، ولكن يستعد لسماع قـوارص الكلام كلها ليلاً عند أوبته لمنزله. فبحق الألفة والسعادة هل يعد ذلك عيشاً؟

هل علمت سبب تلك الوساوس؟ نعم هى الغيرة العمياء.

الغيرة القليلة ممدوحة، لأنها تدل على حب الشخص للآخر وعلى اهتمامه به، فإذا رأت سيدة بعلهـا غير مستقـيم السيرة وتأكدت ذلك من طريق الصدق لا من شـياطينها وأعوانهـا ولم تغر عليـه، فإنها لا إحـساس لهـا والحجر أقـرب للتأثر عنهـا. وأما إذا استـعملت الغيرة فى غـير موضـعها فإنهـا تشقى نفسهـا وتشقى زوجهـا وتشقى أهله وأهلها.

هل يجسر بعل يومـاً أن يكلم عجوزاً أو يضاحك طفلة أمام زوجـته الجاهلة؟ وهل إذا قصدته أرملة فى إنجاز عمل لها، لم تجد أكفـأ منه فى القيام به، هل تغفر له زوجته هذا الخطأ العظيم فى مكالمة الأجنبية عنه؟

يجب أن لا يجـعل محـل للريب، إذا رؤيت الريبة رأى الـعين. قد تحـمل الرجل سلامـة نيتـه على أن يبوح لامرأته ببـعض ما رآه فى صـباه، أو أن يصف لهـا ملاهى باريس وغـيرها من البـلاد، التى ربما كان سـاح بها قبـل زواجه، فيـلاحظ وهو يقص الحديث أنهـا تتغيـر، أو تسأله عدم تكملتـه، ولكن هل تغارين أيضاً من الماضى أيتـها السيدة وقد ابتدأ وانتهى قبل تعرفك بهذا الزوج الشقى؟

والسـيدات يملن دائمـاً لفتح مـثل هذا الحديـث، وليس عندهن أرقى منه طبعـاً، فتجتهـد كل واحدة فى إظهار المساوئ التى تسمع بها أو تخترعهـا عن زوج صديقتها، وتظن ذلك خدمة لها، لأنها توقفها على مـبلغ إخلاص زوجها لها، فإذا فرض وكانت هذه المساوئ حـقيقيـة، فإن تلك الصديقـة الجاهلة تضر صديـقتها من حـيث تريد لها النفع، وتسبب شقاء أسرة بأكملها، وإذا كانت اختراعاً وافتراء على رجل برىء فما كان أجدر هذه الصديقة بضبط لسانها، وهو لا يكلفها أكثر من إطباق فكيها.

وقد شوهد كثيراً أن اختلافات وخصومات جناها أرباب الأسر المتفقة المتحابة من أمثال هؤلاء الواشيات، فإذا علم الزوج أن امرأة صاحبه، أو أمه، أو قريبته، هى التى غيرت عليه زوجته، واكفهر من غيم حديثها جو سعادته ووفاقها، لا يسعه، وهو مصيب، إلا أن يأمر ذلك الصاحب بحجز تلك المنتمية إليه عن الإيقاع به، وعن الدخول إلى منزله فتؤلم هذه الإهانة صاحبه وتوجعه، وربما بتت بينهما حبل الوداد.

الثقة ما أحلاها بين الزوجين، حتى وإن كانت على غير أساس، لأن الزوجة إذا تحققت انحراف زوجها عن الصراط السوى فلتنبهه أولاً باللطف والمحاسنة، فإذا لم تفلح ملاينتها فماذا تعمل؟ إما أن تبقى معه إن كانت ترجو عيشه وتؤمل تحسنه، وإما أن تنفصل عنه وهذه إحدى الكبر. فإذا فضلت معاشرته بسبب حبها له، أو لارتباطهما بأولاد، أو لانقطاعها من الأهل والإخوة، فأولى لها وقد تحتم عيشها معه أن تفرض أنه مخلص لها، وأنه لا يتغيب إلا لأشغال نافعة لمستقبلها ومستقبل أولادها، وأنا على يقين أن هذا الفرض متيسر وسهل جداً لمن تبغيه وجالب لطمأنينة وهدوء بال لا يفرقان كثيراً عن مثلهما الصحيحين.

مبادئ النساء

بغض أقارب الزوج أو الأثرة.

المبدأ الثانى

١١

مما يطرب له النساء أن يكون أزواجهن لا أهل لهم. فترى الخاطبة أول ما تذكر حسنة للشاب الراغب فى الزواج، سيان صدقت أو كذبت، أنه لا أهل له، وتبالغ بقولها "إنه مقطوع من شجرة". معاذ الله أيجب أن تفنى أسرة بأكملها ليتزوج منها فرد! والإنسان مدنى بالطبع فالاجتماع بالغير لا مندوحة عنه والاحتياج للمخالطة ضربة لازب. والمرأة تميل للاستئناس كما يميل الرجل، وتعتز بالأهل كما يعتز هو، وتدرك

معنى القرابة والصلة. إذن، فماذا يجعل المرأة تحترم هذا المبدأ فتاة وتتجاهله زوجة؟! أو لماذا هى تحب أقارب نفسها وتبغض أقارب الزوج وتحمله أيضاً على مجاراتها؟! إن هى إلا الأثرة أو التنازع على السلطة. الزوجة تريد أن تكون حاكمة بأمرها، مطلقة التصرف فى شيئين عزيزين عليها؛ قلب الرجل والبيت. فإذا كانت وحدها لا يعيش معها من أهل زوجها أحد ظنت أنها نالتهما، أما إذا عاشرتها حماة أو أخت لزوجها أو ابنة له من غيرها فهناك تنازع البقاء والبغض الذى لا نهاية له. كل تريد أن تستأثر بالسلطة على المملكتين، وتجتهد فى الفوز بقلب الرجل أولاً، فإذا ما وفقت له نالت الأخرى بغير كبير عناء. ولا تخلو إحدى المتنازعتين من خطأ وصواب، إذ لا يمكن أن تكون الواحدة على خطأ محض، والأخرى على صواب صراح، ولو علمتا لرضيت كل منهما بقسمها من حب الرجل. فالحب البنوى غير الحب الزوجى، وإذا ابتغت امرأة أن تغير على الاثنين كانت مخطئة وتعدت ما وراء حدها.

إذا أرادت الزوجة أن لا يحب زوجها أمه ولا يحترمها ولا يتكفل بلوازمها وهى محتاجة إليه فقد أثمت. وكذلك أمه إذا حدث زوجة ابنها على ابتسامة ألقاها عليها زوجها، أو تغشمرت، وأرادت أن تجعلها كالصنم لا رأى لها بينهما، فهى أيضاً قد تناهت فى الظلم والقسوة.

نساء اليوم غير نساء الأمس، وأذواقهن تختلف باختلاف الزمن، ولكن إذا تحتم أن تعيش فتاة الجيل الجديد مع حماتها ذات الفكر القديم فما العمل؟ المخاصمة والمعاندة لا تجديان نفعاً، فضلاً عن أنهما من صفات الطبقة الدنيا. أما النساء المهذبات فلا يبعد أن يختلفن فى الرأى، ولكنهن يصرفن الخلاف حالاً، ولم تسمع واحدة من الأخرى ما يغيرها عليها.

التساهل أول ما تجب مراعاته فى الأسرة، واللطف أجمل صفات المرأة. ترى الزوجة وضع هذا الشىء على اليمين وترى حماتها وضعه على الشمال، فلتتساهل الزوجة، فإنها أصغر سناً، ولتبين آراءها فيما تختار بلطف وتواضع، واللين كفيل بتسوية الخلاف. أما إذا تشبثت وأظهرت كبرياء المتمدنات وأصغرت حنكة حماتها وتجاربها بجانب تمدينها الحديث، فربما وصل الأمر إلى أوخم العواقب. وأصعب قضية يحكم فيها الرجل هى التى بين أمه وزوجه، لأنه إذا أرضى أحد الخصمين

أغضب الآخر، وأمامه أم واحـدة، أما النساء فغير زوجته كـثيرات، فتدور الدائرة فى الغالب على الزوجة، ولو كان رأيها صواباً.

الزوجـة التى أول ما تدخل البـيت تفرق بين أعـضـائه المتحـابين المربوطين بصلة الأمومة والأخوة شـيطان رجيم. يجب عليها أن تتذكر أنهـا لم تأت إلا من قريب أما هؤلاء الذين معه فـمنهم من ربته وتعبت فيه إلى أن صيـرته رجلاً، ومنهم من يفضله على نفسه ويفديه بما يعز وأحدث واحد فيـهم أقدم منها حباً له وارتباطاً به. والغريب أن كل امرأة من هؤلاء العجـائز كانت تكره حماتها وتريد أن تحبهـا امرأة ابنها، ولكن الجزاء الحق من جنس العمل.

وإذا سألـت الأولاد وجدت أغلبـهم يحبـون أبناء أخوالهم أشـد مما يحـبون أولاد عمهم، وهذا ناشىء، ولا شك، عن حب أمهم لأقاربها وبغضها لأقارب زوجها، على أنهم بعيدون عنها ولا ينازعونها السلطة التى تخـاف عليها، ولكن كره واحدة سرى فى جميع من ينتمون إليها، فـالزوجة تكرههم بحق أو بغير حق. فضلاً عن أن أهل الزوج يحبون الرقابة على امرأة قريبهم، وقد ذكرنا أنها عدوة الرقابة والتقييد ومبادئها استقلالية مطلقة. على أنى لا أفهم كيف تزعم المرأة أنهـا تحب زوجها ثم هى تبغض أقاربه؟! إن هذا تناقض غريب. فإذا كان ادعاؤها هذا حقيـقة وجب أن تحبهم وتحتمل من أجله كل صعب مهما كلفها ذلك الاحتمال.

تنازع الرئاسة على البـيت أحد سببى الـبغض، والسبب الآخر تنازع الرئاسـة أيضاً ولكن على قلب الرجل. ألا فلتطب نفـساً كل امرأة غـيور فإن حب الزوجـة المكتسب الظاهر غير حب الأهل الغريزى الدفين. كل له صفـة خاصة به تجعله لا يقل أهمية عن الآخر، وهمـا مخـتلفان لا تدل كثـرة أحدهمـا على قلة الآخر، فهـما منفـصلان تمام الانفصال.

فالزوجات المتمدينات يجب أن يخفضن قليلاً من غلوائهن ولا يبخلن على الحاكمة القـديمة فى البيت بشىء مـن السلطة، لأن من تعود الحكـم صعب عليـه أن ينزع منه، وأمهـات الأزواج أولى لهن أن لا يتشـبثن كـثيراً بآرائهن العـتيـقة، فكل زمن يقـتضى إصلاحـاً مغايراً لما قبـله، والصلاة والصيام خـير لهن من إلقاء مـسؤولية البـيت وتربية الأولاد على عواتقهن، لأنهما مريحان فى الدنيا مكسبان أجراً فى الآخرة والسلام.

مبادئ النساء

المباراة والإسراف

المبدأ الثالث

١٢

يمتاز الجيل السابق على أخيه الحالى بقلة اللزوميات، ورخص أسباب المعيشة، كذلك له ميزة أخرى، لا أعرف ألاحظها الجمهور أم لم يلاحظها، وهى لزوم كل طبقة من الناس حدها من جهة الغنى والفقر، فلم يكن الفقير ليستنكف من خصاصته، ولم يكن المتوسط يقلد الأوسع رزقاً، والأعظم جاهاً، كما نفعل نحن الآن. ولعل السبب الأصلى فى ذلك هو نقص الحرية من أخلاقهم وتأثير شدة الضغط عليهم.

نفقات الأسرة اليوم كثيرة فى ذاتها لتعدد الحاجات وغلائها، كثيرة جداً لأننا نتأنق فى الكماليات الزائدة، ونحاكى الغير فيها ممن هم أوسع ثروة وأفخم مظهراً، ولا مبرر لنا فى ذلك إلا الحرية الشخصية وحب التقليد. أما الحرية فنعمة من الله ورحمة، وأما التقليد إلى هذه الدرجة: درجة التلف، فليس من العقل فى شىء اللهم إلا إذا ابتغينا به تأييد مذهب دارون فى النشوء والارتقاء، ولا أخالنا نبغى التسجيل على أنفسنا بأننا وحدنا من سلالة القرود.

إذا استثنينا الطبقة السفلى من النساء، فإننا نكاد نرى الباقى من الوسط والثريات شبيهات فى الملبس والزينة، تضارع الواحدة الأخرى فى عدد الخدم وكمية الأثاث ونوعه. فهل يمكن أن نكون كلنا فى درجة متساوية من الغنى؟ هذا يستحيل. وإذا لم نكن متساويات فى ماليتنا فمن أين نسد هذا العجز فى النفقة عن الإيراد؟ جواب صغير مفهوم: من الرجل أباً وزوجاً.

إذا تزوجت الواحدة منا كلفت أباها مالا طاقة له به كى لا ينقص جهازها عن فلانة جارتها أو قريبتها، فإذا قدر فنعم القادر لا انتقاد عليه، ولكن إذا عجز فمن خرق الرأى أن يستدين ليكسب فخراً كاذباً أطول مدته يومان. وإذا تزوجت لم تشأ أن ترى

صاحبتها تشترى عشرة أثواب وهى لا تشترى إلا أربعة مثلاً، وكيف تجد عند جارتها خمس خادمات فيهن الأوربيات وليس فى بيتها إلا واحدة مصرية وهى تكفيه. فهى دائماً تزن نفسها بميزان الغير، لا تفتأ تقلده مهما فعل، فإذا لم يكن لها ميراث رفيع خاص بها يصرف فى مآربها فإن هذا يحمله الزوج المسكين ولا راحم له. يصرف دخله كله، وفى الغالب لا يكون له إلا جعالته الشهرية دخلاً، ويحمد الله إذا لم يستدن على حساب الشهر التالى، فإذا فصل من الوظيفة أو لحقه ما يستلزم النفقة كالهرم أو المرض لم يجد شيئاً يعتمد عليه إلا رحمة رب العالمين.

علة المباراة الحقيقية هى الحسد، يأكل القلب ويكثر الهم، فلا تطيق صاحبته أن ترى أجمل منها هيئة أو أغنى مظهراً، وتهتم فى أن تكون هى المشار إليها بالبنان فى المجالس، ويسكرها الطرب إذا ذكر غناها واقتدارها على اقتناء العربات الجميلة والخدم الكثير، وبعضهن تبيع حليها أو شيئاً من أملاكها لتشترى سيارة (أوتوموبيلاً) أو لتسافر إلى أوربا، لا لأنها تحب السياحة أو تستفيد من الأسفار، ولكن لأن غيرها فعلت ذلك. ولو تأملنا لرأينا أن الإنسان مهما حاول أن يجعل نفسه الأول فى صفة ما فإنه لا يلبث أن يرى أعلى منه وأمكن فى تلك الصفة بعينها. تبذل سيدة كثيراً من مالها ووقتها للتفتيش عن أجمل عقد فى القاهرة فتجده، ولكن لا تدوم أوليتها به أكثر من أن ترى أخرى عليها عقد أنفس أتت به من الآستانة أو باريس مثلاً، وإذا تطلع المرء لغيره لم يقتنع قط بما عنده.

أرى أنه لا يجمل بالسيدة العاقلة أن يستحكم منها داء التقليد، لأنه يدل على صغر النفس والإحساس بصغرها (وإذا ذممت المحاكاة هنا فإنى لا أقصد المعتدلة منها، فقد تكون لازمة أحياناً، وإنما أذم المتطرفة ولذلك وصفتها بلفظة داء).

وإذا كنت بارعة رشيدة فلماذا لا أبتكر فى ملبسى ومنزلى ما يجعل غيرى من النساء يقلدننى فيه بدل أن أجرى دائماً وراء ما يفعلن؟

يقول الحديث الشريف: «الناس بخير ما تباينوا» وهى حكمة بالغة، أو هى كل نواميس العمران ولباب نظامات الاجتماع، وإذا كد الاقتصاديون أذهانهم وألهب الاجتماعيون أدمغتهم يستنبطون القوانين ويسنون النظامات لصالح بنى البشر فلن يأتوا بأجمع للحكمة، ولا أدعى لسير هذا العالم سيراً آلياً منتظماً (ميكانيكياً) أحسن من هذا

الحديث على إيجـازه. وعليه فلا يمكن أن يتساوى البـشر، ولا يمكن، مع الأسف، أن نكون كلنا غنيات. نحن نريد أن نظهر كلنا بمظهر الموسرات «وهل بالفقر من عاب»؟

الفقـر وحده لا ينزل الإنسان من رفـعته، فـالاعتبـار بالنفس والفضائل لا باليـسر وعدمه. ماذا يضر المجتمع الإنسانى إذا كنت أفقر من صاحبتى أو كانت هى أفقر منى؟ بل ماذا تفيد محـاكاتى لها إذا كنت لا أستطيعها بمعناها الصحـيح؟ هى تقدر أن تتجمل بالثياب الحـريرية والماس الكثير من مالها وفـضل الغنى عليها، ولكنى قصـيرة اليد عن الإتيان بمثل ما عندها. أفليست القناعة، إذن، خير ذخيرة للقاصرات؟

وقد تكون امرأة مثرية جميلة الملبس يعجبك منزلها ويبهرك أثاثها، وتكون مع ذلك شحيحة لا ينال العـاجزين نفعها، أو تكون فظة سيئة العشرة. وتكـون أخرى غير جمة المال، ولكنها جـمة الفضائل محـسنة على المعوزين. فأى الثنتين أنفع للإنسـانية وأولى بالدعاء؟ أعجب لنا لماذا نتبارى فيما لا يفيد ونترك النافع من الأمور؟!

المباراة تسـتدعى الإسراف. والإسـراف يعجز مـالية الزوج ويثقـل كاهله بالديون، والمرأة التى تضطر زوجها ليـصرف عليها أكثر مما يستطيع لا تخـلو من أحد باعثين؛ إما أن تكون تفعل مـا تفعل غير عـالمة بعواقب التبـذير، فهى، إذن، كثيـرة الشطط جاهلة لاتصح أن تكون مديرة للبيت وللأسـرة. وإما أن تكون عالمة بمصير مـالية الزوج وتفعل ذلك مختـارة، كما يفعل كـثيرات كى لا يوفرن للرجل ما يمكن أن يـتخذه فى يوم من الأيام مهراً لحليلة جديدة أو خليلـة عنيدة. فهى مزعزعة اليقين كثـيرة الشك تقدر البلاء قبل نزوله ولا بلاء إلا التزوج بمثلها.

وأكثـر ما تنزع المرأة للإسراف فى مال الـزوج إذا كان لها ضرة تقـتسم معهـا فؤاد الزوج وماله، فـإنها تصرف بحـساب وبغيـر حساب كى لا يجـد ما يقوم بمصـروفات ضرتها، أو كى تنتقم منه لنفسها ليعجز عن الجمع بين اثنتين، ويندم، وتحسب أن عجزه وندمه يجعلانه يكتفى بهـا وحدها، ولكن ما أدراها أنه إذا أراد حذف إحدى الثنتين من جدول نسائه لعلها هى تكون المحذوفة الخاسرة.

وعلى ذكر التصـرف بمال الزوج أصرح باستهـجان عادة التوفيـر السرى الذى يأتيه كثـير من النساء ويحسبن ذلـك محمدة؛ فـيشترين بما يـوفرن حلياً ولباسـاً ويزعمن أن أهلهن أتوا به لهن، أو يصرفنه فى السحر والخرافة. وفى ذلك منقصتان؛ نقيصة الكذب

ونقيصة السـرقة، وأسميها سـرقة لأنها لا تفرق عن سرقة اللصـوص البتة، وربما كانت الأخيرة أخف من الأولى لأن اللصوص فضلاً عن كونهم غرباء عن المسروق منه فإنه قد يعثـر بهم فيعـاقبهم، أو على الأقل لا يهـتدى إليهم، ولكن يدرى أنه فـقد شيئـاً، أما السرقة الأخرى فإنها من أقرب الناس إليه وألصقهم به ثم هو جاهل بالمرة قد لا يهجس بها. فإذا وفرت المرأة شيئاً فإن ذلك يعد مهارة لها واقتداراً، ولكن لتريه لزوجها فيعطيها إياه عن طيب خاطر وسماح، فذلك أهنأ لها وأشرف.

والخلاصة، أن الغنى ليس متيسـراً لكل فرد فأولى أن يلزم كل حده لئلا يكون مثلنا كمثل الضـفدع التى أحبت أن تبلغ كبر الثـور فاستعانت بالماء فـانفجر جوفهـا فماتت. ولتعلم المرأة أنها وكـيلة الزوج فى ماله وبيته، والوكيل يجب أن يكون أمـيناً تقياً، وأن التكالب على المبـاراة صفة مـصغرة للنـفس، وإنى لأزعم أن رجالنا وأبناءنا يقل فـيهم الباحث ويندر المخترع، أو لا يكاد يوجد، لأننا متشبـعات بحب التقليد لا تتجدد همتنا بالبحث والاستـنباط فيكون لهم من زوجيـتنا وأمومتنا محك لأفكارهم أو أسـوة ومثال حسن.

مبادئ النساء

سرعة الغضب والتهديد بالفراق.

المبدأ الرابع

١٣

اتحاد الزوجين وارتباطهما بالحب الصادق هما السعادة الكبرى، التى نفتقدها، والتى لا غنى لأحـد المتزوجين عنهـا، ولو رأى سعـادة أخرى فى غـير ذلك. فالمـمول الذى يحسب نفسه سعـيداً إذا أحرز الملايين، والعالم الذى يغبط نفسه إذا اشتـهرت تعاليمه، والسيـدة التى ترى هناءها فى اقتناء الـنفائس، كل هؤلاء مع فرحـهم بما وفقـوا إليه لا يستغنون عن تلك المحـبة الزوجية، ولا يستكملون سعادتـهم وهى ناقصة، لأن الإنسان

مهما قويت إرادته لا يستطيع أن يتفرغ لأعماله ويفكر وعنده شاغل يزعجه. ولشد ما يقاسى أحد الزوجين من تنغيص الآخر له.

ومن أكبر دواعى الكدر والتنغيص أن تنفعل الزوجة لأقل كلمة وترجع إلى قومها غضبى آسفة.

عادة التهديد بالفراق شائعة عندنا شيوعاً هائلاً مستهان بها كثيراً. فكما ترى الرجل يحلف بالطلاق لغير داع كذلك ترى المرأة تنهزم من بيت زوجها لأوهى الأسباب. يهدد بعضهما البعض بالانفصال فى عرض كلامهما، يريد أحدهما بذلك بث خوف الفراق فى نفس الآخر ليخشاه. وما من زوجين مرتبطين برابطة ما إلا ويخشيانه، ولكن فاتهما أن ذكره ساعة الغضب مما يثير العواطف ويعلو بالنفس إلى سماء عزتها. وكيف يرضى إباء المهدد وغيظه محتدم أن لا يطلب ما يهدد به ويستخف بالعقاب، وإن عظم، فينسى الحقيقة والصالح، ويدوس العقبى، تفادياً من ضيم نفسه المثارة الهائجة. ولا يشجع النفس الجائشة أكثر من تذكيرها بالخوف، كالجند إذا صح عزمها على القتال، وكانت على حق منه، تراها أكثر ما ترمى بنفسها فى حلق الموت حينما ترى نار الحرب مستعرة متأججة. فشدة الموقف تذهب الخوف وتبعث على الإقدام. والغضب كذلك إذا أرخى له العنان ملك صاحبه، ورمى به إلى حيث لم يقدر وهو حليم، والمرأة التى تتغنى دائماً بذكر الفراق لأقل خلاف يحدث بينها وبين حليلها، أو بينها وبين أهله، قد لا تأمن أن يصدر عليها حكم الفراق المؤبد من زوجها ساعة الغضب، وهى لم تكن لتعضده بالجد وإنما كان هزلاً وعادة مستقبحة. سمعت أن إحدى السيدات كانت تطلب الفراق من قرينها كلما شجر بينهما خلاف بسيط، أو كلما كدرتها حماتها، وقد تشبثت بذلك الطلب مرة وألحت فيه وألحفت، فسألها الزوج هل تبغى الطلاق حقيقة، فأجابت نعم، فلم يسعه إلا أن أخذها إلى القاضى ليترافعا إليه ويتخاصما، وبعد أسئلة وأجوبة رأى القاضى أنها مصرة على تنفيذ رغبتها فأصدر حكمه بالطلاق، ولم يكد يتم كلمته حتى صرخت وأعولت وندمت على ما جنت، ثم طلبت أن ترد إلى زوجها ثانية. فما هذا التناقض واللعب؟! إن هذه المرأة مثلها كثيرات يجنين على أنفسهن وأولادهن، ويبعثرن أسراً كانت ملتئمة لولا الحمق واللين. إذا تعسر عيش المرأة مع زوجها صافياً تعذر إذا

طلبت الفراق، وأما إذا كان ذلك تجنياً ومزاحاً فالزوجة أحكم من أن تفصم عراها فى التجنى والمزاح.

الوالدان أو الأهل لا يزوجون بنتهم إلا وهم راسمون لها خطة سعادتها المستقبلة، ومقتنعون بها ومقررون هدوء بالهم من جهتها، فما أحراها أن تحقق ما يرجون، وهى بزواجها قد انتقلت بالطبع إلى دار غير دارهم، وعش لم تدرج فيه من قبل، فكان الواجب بطبيعة الحال أن تخفف مسئوليتها كثيراً عن عاتقهم، أما وهى تشكو لهم مما لا يوجب الشكوى فإنها تبدل صفاءهم كدراً وتأتى بعكس ما كانوا ينتظرون.

يجب أن نقرن رقة شعورنا وسرعة تأثرنا بفضيلتى الصبر والحلم، لأننا فى منازلنا بين استقبال الزائرات وزيارتهن وترتيب الأوانى وجلائها، ولعب الأطفال والذهاب من اليمين إلى الشمال، والاضطجاع على الفراش الوثير، من مزركش وحرير، لا ندرى ما يكابده الرجل من الآلام من تعنت الرؤساء، وما يقاسيه من العذاب فى غلاء المأكل والشراب. ربما كد فكره وأنهك قواه ولم يصادفه التوفيق وأخطأه الرزق وهو لو لم يكن له إلا نفسه فقط لرضى باليسير، ولكن ماذا يفعل ووراءه أم وأولاد، أو قلب وأكباد، أيتركهم يتضورون جوعاً وهم لم يألفوا إلا الرخاء؟ أفمن كانت هذه حاله يشتغل ليحفظنا ويتعب ليريحنا يصح أن نقابله بالعبوس والغضب إذا ما بدا متأففاً يوماً من طول إعمال الفكرة أو من شدة النصب؟!

كل شريكين قد يختلفان اختلافات بسيطة ولكنهما لا يذيعانها. ومن أحق بكتمان السر من شريكى الحياة؛ أعنى الزوجين. والحازم من لا يجعل للاختلاف الصغير محلاً من اهتمامه، بل يزيله بمجرد الفراغ من التكلم فيه، فإذا ما اختلف زوجان أديبان فى تقدير حسنات الشاعر الفلانى، أو تفضيل هذا المذهب على ذاك، واحتدم بينهما الجدال وبدرت من أحدهما كلمة شديدة للآخر، أفيغضبان ويسببان الفراق لأجل ذاك الشاعر، أو ذلك الحكيم صاحب المذهب، وهما لا يدريان كما قال أبو الطيب المتنبى:

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

بقيت لى كلمة عن هؤلاء اللاتى يغضبن ليقبضن ما يبقى لهن من الصداق عند

أزواجهن، وهى عبارة شائعة كثيراً عند بعض الطبقات. أما قبحها فجلى لأن المرأة بذلك تبرهن على أنها تقدر النقود أكثر من الحياة والسعادة، وهذا جشع لا يليق إلا بالمرابين ومهووسى المال، والمرأة يجب أن تكون ملك اللطف ومثال الرقة والنزاهة. وبعضهن يتذرعن بالغضب والاحتماء بالأهل ليصالحن الرجل، والعادة أن يصالح الرجل زوجه بقطعة حلى وثياب كثيرة. فما أسخف هذه العقول تفدى المرأة راحتها وهناءها وسعادة أولادها بذلك المتاع الفانى.

وقد تغضب المرأة أيضاً لتجرب محبة زوجها لها، وترى من آيات الود شيئاً جديداً، ولكنها فى غنى عن هذه المخاطرة والتجربة الصعبة، لأنها تعلم مبلغ حبه لها من أحواله معها.

المنزل لا بهاء له إلا بالمرأة، كما أن قوامه الرجل، فترك المرأة بيتها يمسخ ذلك الهناء المرفرف عليه، ويسبب حزن الأولاد وانقباضهم، كما أنه يتلف وتعبث به أيدى الخدم فيخسر الرجل خسارة مضاعفة.

طريق الكذب والتمويه هذه وعرة المسالك، غير مأمونة دائماً، فإما أن تقرر المرأة أنها تعيش مع زوجها وتشاركه السراء والضراء فتحتمله ولا تحنق عليه لصغير الهفوات، فلا يلبث أن يندم إذا كان أساءها، ويعتذر لها، ويغفر أحدهما غلط الآخر، ويزيلان أثر كل خلاف بينهما، فيعيشان سعيدين، ويتحتم على الزوجة، إذن، أن لا تسرع الخطو نحو منزل أهلها، بل تظل فى منزلها تديره. وإما أن تغضب وترجع لأهلها حين ترى أن لا خير فى البقاء مع رجل فظ سيء الأخلاق فتفارقه إلى الأبد، ولا تعود ترى وجهه البتة. أما الذهاب والإياب فأعده طيشاً لا يليق بعاقلة مهذبة تعلم عواقب الأمور.

مساوىء الرجال

الطمع

١٤

أريد مما كتبت، وما أكتب فى الجريدة بعنوان النسائيات، تخفيف ويلات الزواج على قدر الإمكان. وقد بينت فى مقالاتى السابقة ما يرجع منها إلى المرأة، واليوم أرانى مضطرة لأن أكتب عن الرجل لأنه أحد طرفى الزواج، لأنه كثيراً ما يظلم ويطغى. ولست أقصد كل رجل على الإطلاق، كما أنى لم أكن أقصد كل امرأة، وإنما الكلام على من فسدت أخلاقهم (وهم مع الأسف كثيرون) فسببوا شقاء النساء وهدموا بناء الزوجية.

انقلبت الحال وصارت الفتاة بائرة فى سوق الزواج إلا إذا شفع لها غناها. عكست آية الإسلام واستبدلت بها عادة لم تأت فى شرائع النصارى ولا اليهود وإنما اتبعوها بدعة وضلالاً.

ازداد طمع الرجل فملك عليه حواسه، فصار ينام يحلم بالمال، ويقوم يشتغل له، ولا عيب عليه فى ذلك، وإنما الذى يعيبه إنه زادت خميرة جشعه فحمض ذوقه واستحكم منه الطمع فى كل شىء حتى فى عروسه!

"ماذا عندها"؟ كلمتان ألفناهما وهما أول ما يفتح به للخاطب، وقد لا يسأل غير هذا السؤال. فأبو العروس الذهب وأمها الفضة وأخلاقها النحاس وسمعتها الطين ومعارفها العقار. متى وجد المال صحت المصاهرة ولزم الزواج، وإلا فتبقى الفتاة إلى أن تسن وتدفن معها طيبة قلبها وحسن عشرتها وقدرتها على تربية أولاد بررة ربما كانوا، لو ظهروا فى العالم، نافعين.

يلبث إعجاب الرجل بزوجه وغناها قليلاً، ثم يتحول إلى استبداد واغتصاب، فيجبرها على أن توكله على مالها توكيلاً شرعياً ليتصرف فيه على هواه، فيبدده على

ملاهيه وخليلاته، أو يتذرع به للظهور فى مظهر الموسرين. ورب معترض يقول لماذا تستحل المرأة مال الرجل وتحرم مالها عليه؟ فهل فاته أن الرجل مكلف شرعاً بالإنفاق على زوجته وعياله أما المرأة فلا؟ اللهم إن كان محتاجاً وعند المرأة فضل، فليس من المروءة ولا الحنان أن تتركه يقترض من غيره ولا تعطيه هى مما عندها وتعتبره شريكاً لها فى كل شىء على أن ذلك تكرم منها لا تجبر عليه، فإذا سمحت أعطت وإن شاءت منعت. كذلك إذا تزوجت المرأة من رجل كان يكفى بيته ثم عضه الدهر فأعسر فلا يصح أدبياً ولا اجتماعياً أن تتخلى عنه وقت عسره أو تبخل عليه بمالها، إذ هما شريكان فى السراء والضراء، فضلاً عن أنها لو لم تكن ذات مال لوجب عليها أن تساعده بما تستطيع فيما لا يتعدى الشرف. فمساعدة المرأة للرجل بالمال واجبة إذا أعسر بعد يسر اشتركت فيه معه، بشرط أن تكون تلك المساعدة فى غير ضرر عليها أو إفساد له. أما إذا كان ممن يلعبون الميسر، أو ممن يقضون حياتهم بين القنانى والقيان، فأحر بزوجته أن لا تقرضه فلساً واحداً.

وهناك آخرون تحل له أخلاقهم أن يجازوا الإحسان بالإساءة، فبعد أن يبددوا ثروة نسائهم ويلحق أصفرها أبيضها يكافئونها بضرة جديدة وبئس الجزاء!

مال المرأة يجب أن يبقى لها ولكمالياتها وترفها، وهو على أى حال يوفر على الرجل بعض النفقة. وإذا اتحدا ولم يتفارقا فالمال باق لأولادهما فأى ضرر عليه فى ذلك؟ وهل الأنفع له أن يبدده ويحتاج لغيره أو أن يوفره فيجده كنزاً لم يتعب فى الحصول عليه؟ وهى إذا وفى لها وأيقنت بحسن نيته لا تضن عليه بروحها فضلاً عن بعض مال سيفنى وتأتى عليه الغير.

لا أعد الرجل ذا مروءة ونخوة وهو يبيع حلى امرأته ويجردها حتى فى حال عسره. لأنه لا معنى لرجوليته ووصفه نفسه بالقوة والنشاط مع اعتكافه على الكسل. ولماذا لا ينقب له عن عمل يرتزق منه، وهو لا يمنعه عن الارتزاق مانع إلا أنه وكل؟ لا يعذر الرجل على مد يده لمال زوجه إلا إذا كان له من ضعفه وعدم اقتداره على العمل مبرر.

على أن هذه المسألة من التعقيد بحيث يسهل عندها ذنب الضب. فإن بعض النساء يهددن بالفراق إذا لم يعطين أزواجهن ما يطلبون ويذكر لهن الزواج إرهاباً. فأى الأمرين

تختار المــرأة البائسة. لاشك أن إعطاءها المال أهون الشرين، ولكن أتأمــن غدره بعد أن أظهر لها أنه قادر على إتيانه فى أى لحظة وهى لا تعلم؟ اللهم أن رجلاً هذه أخلاقه مع زوجه وهذا مــبلغ جشعه لخليق بأن يفــارق. ولكن المداراة مما أوصى به النبى صلى الله عليه وسلم. فلتداره ما أمكن فذلك خيــر لهما من الخلاف وأولى للمرأة التى تشك فى أمانة زوجها الطماع أن توكله توكيلاً مدنيــاً فقط، لا شرعياً كما يريد، فتكون وسطاً بين الطرفين تحفظ العين من الضياع وتتساهل قليلاً فى الريع. المرأة مظلومة دائماً؛ إذا كانت فقيرة لا يرغب فيها، وإن كانــت وارثة يطمع فى مالها. والوارثة مظلومة أيضاً؛ فإما أن لا تتزوج لتأمــن الطمع والطماعين، وإما أن تتزوج على غــير بصيرة كعــادتنا. ولو كان للخطبة والزواج عندنا نظام آخر لأمكن التحــقق من أخلاق الخاطب، وتمييز الرجل ذى المروءة من الشره الزنيم.

مساوىء الرجل

الظلم

١٥

من الأنبــاء ما يتــرك فى أعمــاق النفس أثراً لا يزول، ومن تلك الأنباء مــا أثر فىّ تأثيراً خاصاً وسأقصه فيما يلى:

كنت يوماً عند صاحبة لى، فسألتها عن سيدة، كان لى بها معرفة قديمة، ولم أرها منذ زمن بعيد، فتنهدت، وأجابت بلهــجة المحزون أن تلك السيدة فى أشد ما يكون من الأسى، وأنها لفرط حزنها وكثرة بكائها قد حل بها السقم، وذلك لأن زوجها عقد على امرأة أخرى، وستزف إليــه قريباً. فأخذ منى العجب مأخذه، ورأت صــاحبتى دهشتى، فقالت لم تعجبين من ذلك الخبر؟ أليس كثير الحدوث عندنا مألوفاً؟ قلت: نعم. ولست أعــجب من حدوثه فى ذاته وإنما الــعجب فى أنه حــدث لتلك الســيدة، وهى على مــا

تعلمين على أحسن ما يكون عليه النساء من الخلق، وعلى جانب غير قليل من الجمال والعلم، وقد كنت أسمع منها أنها فى راحة مع قرينها، وقد رأيتها بعينى تشتغل فى بيتها، ولم يكن ينقصه شيء من النظافة والترتيب، ولها منه أطفال صغار، فماذا يريد الرجل فوق ذلك تربية وعقل وملاحة وإنجاب؟ فقالت محدثتى إن ولدى تلك السيدة توفيا فى شهر واحد وهذا ما حدا بالزوج إلى البحث عن أخرى، وقد خطب فى نفس الشهر الذى فقد فيه ولديه، وامرأته الأولى أم جنين لم تكمل مدته بعد. فيالقساوة الرجل! أكل ذنبها أن ولديها توفيا؟ وهل لم يكفها حزنها على فقدهما فيسدد إلى فؤادها المكلوم سهماً آخر مسموماً؟ وهل ضبط منها رسالة لعزريل تستزيره بها وتحثه على خطف فلذتى كبدها؟ وهل كان هذان المفقودان ولديها ولم يكونا كذلك له؟ نعم إن الرجل أقوى عزيمة من المرأة، وأشد احتمالاً للمصائب، ولكن هب أنه جلد، أفينسيه الجلد الشفقة، ويخطىء به الصبر مواضع الرحمة؟ اللهم إن هذا منكر لا يرضيك.

إذا احتاجت المرأة للمواساة والعطف فى زمن ما فأشد ما يكون ذلك فى أيامها السود، وهل أحلك من يوم تفقد فيه ولدين معاً؟ فإذا ما اشتد حزنها وشاركها فيه القريب والغريب أيصح أن يتنصل عنها زوجها ويتركها هدفاً لسهام الأرزاء والأشجان والحزينة زوجه والذاهبان ولداه؟ إنها إذا حزنت على أخ لها أو قريب كان من الواجب عليه أن يشاطرها الحزن، حتى ولو ظاهراً، أما وهى محتسبة ابنها وابنه فمن أحق بتخفيف آلامها إذا خلا هو من مثلها؟ إنه إذا لم يحزن ولم يواسها فلم يكن أقل من أن يتركها ونفسها كما قال الشاعر:

تخذتكم حصناً منيعاً لتمنعوا سهام العدا عنى فكنتم نصالها

إذا كنتم لا تدفعون ملمة عن النفس كونوا لا عليها ولالها

ولكنه هو يتزوج عليها يكلم قلبها الكسير فضلاً عن أنه أقدم على أمر لا يضمنه. أفلا يجوز أن تكون امرأته الجديدة عاقراً فلا تلد، أو ولوداً ويموت أبناؤها كالأولى؟ إن القدر لا يعاكس ولا يستطاع تحويله عند أمر كهذا. فالولادة والحياة والموت بيد الله لا ندرى متى هو مانحها ومتى يقبضها. إن جوف تلك السيدة لا يسع شيئين فى آن واحد: الجنين والشجن. ألا يكون زوجها جانياً عليها وعلى ولده الجديد إذا ما زاحمه البث فلفظه ميتاً. ألا أن ذلك الزوج القاسى لجان فى عرف القانون. جان فى عرف المروءة.

جان فى عرف الإنسانية والحنان.

تذكرنى تلك الحادثة المؤلمة بحادثة أخرى تشبهها. ذلك أن رجلاً من ذوى الرتب عاف زوجته لأن أولادها منه كلهم بنات، فطلقها واقترن بأخرى على أمل إنجاب الذكور. فأتت له بأنثى ثم بأخرى، وهكذا أبى الله إلا أن يتم ما أراد. فكأنه استبدل بنات بغيرهن، ولكنه خسر ود امرأة صالحة كانت تحبه، وغير عليه قلوب بناته الشابات، وظن أنه كسب ود أخرى وما هو إلا واهم فيما زعم.

ليت شعرى إذا فرضنا أن ولادة البنات عيب كما يرى بعضنا فهل للمرأة يد فى ذلك ولماذا لا يعيب الرجل كما يعيبها؟ لماذا لا تعافه المرأة وتطلب إليه أن ينفصل عنها وتتزوج غيره لتلد ذكوراً؟ إذا صح أن يتشبث أحد الزوجين بهذه الخرافة صح للثانى أيضاً. إذ هما فى حقها وبطلانها سيان.

إن لنا من شؤوننا البيتية الأخرى ما يكفى لشغلنا، ولنا من عاداتنا القديمة المستهجنة ما يبح فى طلب إصلاحه صوتنا، فجدير بالرجال أن لا يشغلوا وقتنا وفكرنا بالشكوى من أعمالهم، وأظنهم يقع عليهم ظلم الحكومة مرة وضيق العيش أخرى، فلا يجدون من ينتقمون منه لأنفسهم سوانا، وما أخال محروباً أضعف منا سلاحاً وأقل طلباً للثأر. فيارب ألهم رجال حكومتنا السداد، فإن ظلمهم الأمة له أثر مضاعف فينا، ولعلنا لم نزد عن الرجل فى شىء البتة إلا فيما يؤلم. إذن، لقد عكسوا آية القرآن القائلة «للذكر حظ الأنثيين».

مساوىء الرجال

الازدراء بالمرأة

١٦

لعل عدوى التشاؤم من النساء سرت إلينا وانتقلت إلى بعضنا بالوراثة من عرب الجاهلية الأولى، أولئك الذين كانوا يئدون بناتهم خشية الإملاق أو العار، كما كانوا

يزعمون. وقد نسخ النبى - صلى الله عليه وسلم - تلك العادة المنكرة، إلا أن أثرها لم يزل باقياً فينا إلى اليوم، إذ نحفل لولادة الصبى ونستاء لظهور البنية فى هذا الوجود. وقد يعذر المتقدمون على اعتقادهم هذا لحاجتهم إلى الرجال لكثرة حروبهم وغاراتهم أما نحن فلا عذر لنا إلا قليلاً. وفى ما عدا حفظ لقب الأسرة ومالها من الضياع يتساوى الصبى والصبية فى نظرى، لأن عدد جنودنا محدود ونحن قوم مسالمون نجتنب الحرب ما أمكن وترانا نقلد العرب ولا نحكيهم فهم يهبون الصبى من يوم ظهوره للحرب، ويفتخرون بدخوله فى غمارها، أما نحن فإذا دخل أحد أبنائنا الجندية يكاد يقتلنا الحزن، وأعرف أمهات فقدن أبصارهن من شدة البكاء على أبنائهن المجندين.

ذلك كان زمان الكثرة والشجاعة أما اليوم فزمن السياسة والصناعة. ها هى دولة الإنكليز يربو عدد نسائها على رجالها، وقد سادت أمماً كثيرة رجالها ضعف الإناث فيها، وها نحن بحمد الله يزيد رجالنا عنا عدداً، فأى خير جلبنا وأى شر دفعنا عن بلدنا المفدى وحنكة وزير واحد أطيب أثراً من مائة ألف مقاتل، ويقظة من قليل خير من نوم الكثيرين.

هذا بيان لابد منه لتنفيذ رأى القائلين بعدم الاعتداد كثيراً بالبنات.

المرأة المصرية مسلوبة الحق مظلومة فى كل أدوار حياتها. نراها يتشاءم منها حتى وهى جنين، فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الجباه مقطبة والصدور منقبضة والثغور صامتة. ترى القابلة وهى تحملها منكمشة لا تبدى ولا تعيد، كأنما كان لها بعض الذنب فى ولادتها أنثى. نرى أقارب النفساء وصديقاتها يكثرون لها الهدايا إذا كان مولودها ذكراً ويقللون منها عدداً وقيمة إذا أتت بأنثى. نرى كل من نقل الخبر يطفح اليأس من عينيه ولسان حاله يقول ناقل الكفر ليس بكافر، فإذا انقضت ستة أيام كان سابع أيام الصبى عيداً نوقد فيه الشموع نهاراً وتجلب أنواع الحلوى وتعزف الطبول وآلات الطرب، أما الصبية فيكتفى لها ببعض النقل ويحسب تفضلاً.

كذلك حالهما فى التربية والتعليم، فإن نصيب البنت قليل عندنا حتى أن من كعبت وهى فى المدرسة تعد شاذة، ولست أعجب من جهل الأمهات أكثر مما أعجب لقوم متنورين تربوا تربية عالية ينادون بقصر البنت على تعليم القراءة والكتابة والطبخ والغسل، كأنما العلم خلق لهم وحدهم فى حين أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف به

طائفة دون أخـرى، فكأنهم يجرحون عـواطفنا علناً بقولهم لنا نريدكم خـادمات منازل فقط لا سيدات مهذبات. وكيف يأبون علينا حقنا الطبيعى فى مشاركتهم الحياة ويطلبون الدستور؟!

وليس حالنا فـى سن الشباب بأدعى للطمـأنينة منه فى الطفولة، فـإننا لا نزيد عن المساجين شيئـاً إلا بالاسم فقط فبينا تجد الفتى حراً فى كل شىء تـرانا يحجر علينا حتى فى استنشاق الهواء النقى، حتى فى اختيار لون الثوب الذى نلبسه، وإذا سمح لنا ببعض المشى أو التنزه رمـانا المارة بكل مـعيـبـة وأخجلونا ببـذاءتهم، وهم أحق بالخـجل من وقاحتهم وفحشهم.

وإذا تزوجنا لم نزدد إلا ضـغطاً فيقـوى الرجل ويستـبد. تكتم حـرية الزوجة إلى درجة تميت نفسـها وتعدمها الإحسـاس والحياة. أرأيت أطغى من ذلك الرجل الذى يمنع زوجه من رؤية أمهـا وأهلها لغير جنايـة حدثت منهم؟ أرأيت أطغى من ذلك الذى يمنع الزائرات من دخول بيته، ويحـجب امرأته عنهن خوفاً من أن يفسدنهـا عليه أو يعلمنها شيئاً جديداً يأباه جموده واعتسافه؟ يتحكم فـيها وفى صحتها وفى مالها وفى وقتها وفى حريتـها وفى كل شىء ويأبى عليهـا أن تسأله سؤالاً بسـيطاً عن شغله، بحجـة أنها لا تفهمه! أو عن نفقاته معتذراً بأنه لا مدخل لها فى شؤونه! وهل يحتقر الرجل المرأة أكثر من أن يجلس لطعامه وحده، ولا يدعوها لمشاركته فيه، فإذا فرغ منه تأخذ لقمة من هنا وأخرى من هناك كما يفـعل الخدم؟ تظل واقفة، وإذا غاب ليلاً يتحتم عليـها السهر إلى أن يحضـر، ثم إذا مرضت يأنف أن يناولها جـرعة من الدواء، ويستنكف الـبقاء معـها قليلاً، فـيترك لها المنـزل بما فيه، وليس أصعب على المـريض من أن يرى نفسه مهـملاً متروكاً.

يظهر احتقار الرجل للمرأة جلياً فى أفعـاله وتصرفاته. إذا حزن يوماً لا يكاشفها بما يؤلمه، وإذا نوى الشروع فى عمل يعدها غريبـة عنه، فلا يخبرها، يخرج من البيت ولا يعود إليه إلا لأمر ضـرورى، فمؤانسته وأسراره نهب للخلان. أمـا زوجه فلا يعدها إلا طاهية أو خادمة، وأظن أن الرجل لولا بقيـة حياة فيه لما هوى منزله، ولولا أن أكله فى الفنادق يكلفه كثيراً لما ذاق طعام بيته.

أى ازدراء للمرأة وعـبث بحقـوقهـا أشد من أن تخـرج كلمة من فم الزوج سـاعة

غضبه فتفرق بينهما وتشتت ملتثمهما؟ وأى أمل لها فى مستقبل مظلم لا تدرى متى ينهار بنيانه؟ إن الدين لم يسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق هكذا من غير شرط كما يفعل الآن رجالنا، وإنما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتبعت لما أن منها النساء البائسات.

زار أغلب رجالنا أوربا والبلاد المتمدينة، ورأوا بأعينهم كيف يحترم الرجل الأوربى امرأته، حتى أنها مقدمة عليه فى كل مجتمع، فعادوا ينادون بوجوب تعليم المرأة، ويصرحون فى كلامهم بأنهم من أنصارها، وأنها واجبة الاحترام، ولكن لا يلبث كلامهم أن يذهب مع الهواء. إلا أنهم إذا اجتمعوا بسائحة إفرنكية أو امرأة غربية تلطفوا لها كثيراً، فساعدوها فى النزول من عربتها، وأمسكوا لها حقيبتها، ورفعوا الطرابيش إجلالاً لها، فى حين أن أحدهم يستنكف أن يركب مع امرأته فى عربة واحدة، وإذا سافرت أو انتقلت إلى محل آخر تركها ونفسها، كأنه لم يكن هو صاحب الأفكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة، وإذا ازدحمت الطرقات فى مولد أو موكب مثلاً رأيت الرجال يدوسون النساء ويضربونهن بالمناكب، كأنه زحام الحشر. فهل هذا مبلغ احترام النساء عندنا؟!

أى سبة للمرأة العفيفة أنكى أو أشد إيلاماً من أن يحوطها زوجها بالرقباء والحشم كلما انتقلت خطوة، كأنها غير أمينة على نفسها، أو كأن العفة ملاكها الرهبة لا الرغبة؟

وهل يزدرى الرجل عواطف المرأة بأكثر من أن يجالس خليلته أمامها، كأن شعورها ميت، ويريدها أن لا تغضب. فهل قد فؤادها من حجر صلد؟

لا أنكر أن لنا عيوباً يجب إصلاحها، وأن بعضنا لا يستحق كثير احترام، ولكن أيؤخذ البرىء بذنب المجرم؟ وهل يصح تطبيق القانون إلا على من ثبت إدانته؟ وفى اعتقادى أن الرجل لو خفف قليلاً من كبريائه، وعلم أن امرأته مساوية له فى جميع الحقوق المشتركة، وعاملها معاملة الند للند، أو على الأقل معاملة الوصى لليتيم لا معاملة السيد للعبد، لما رأى منها هذا العناد الذى يشكوه، ولأطاعته حباً فيه لا خوفاً منه، ولا يجهل أن الاستبداد يأتى بعكس المراد.

ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه. فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلاح الأمة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور! أما والله لو آرانا رجالنا عناية واحتراماً لكنا لهم كما يحبون، فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم، ولنا قلوب

تشعر كمـا يشعرون. فإن أرادوا إصلاحنا فليصلحوا من أنفسهم وإلا فلينظروا ماذا هم فاعلون.

احترام الآراء وآداب الانتقاد

١٧

اللسان والقلم رسولا القلب إلى الناس، أو هما جدولان صافيان تنعكس عليهما صورة النفس وما حواليها من الصفات، وإن شئت فقل هما سلك الكهرباء بين ذهن المرء ومن يخاطبهم أو يكتب لهم، تنقل عنه رسالة أخلاقه حرفاً حرفاً بغير زيادة ولا نقصان. والفضائل والرزائل كامنة فى الأشخاص، لا يورى زنادها إلا الأقوال والأفعال بالمتكلم والكاتب تظهر أخلاقهما جلياً فيما يقولانه أو يخطانه وإن حاولا إخفاءها لأن الطبع غالب، والتطبع سمل بال، قليل الستر، إن دارى شيئاً تظهر منه أشياء. والفكرة، وإن جانبتها، لا تزال تحوم حولك وترفرف إلى أن تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب.

فإذا قرأت كتابة شخص لم تلحظه عيناك أمكنك بالتفرس فيها أن تحكم على أخلاقه بالإجمال. فالمتكلف تعرف من كتابته بأنه لا يزال ينتقى الألفاظ الوحشية، ويتقعر فى أسلوب إنشائه، ليدل على علمه وبراعته. والرجل البسيط يتجنب الألفاظ ومعقد التراكيب، من غير تبذل ولا ركاكة فى عبارته، كذلك من كرمت نفسه ترى أثر ذلك الكرم فائضاً على كلماته وفى ثنايا سطوره. واللئيم بالمثل تكاد تلمس لؤمه وضعة نفسه وأنت تقرأ أماليه على القرطاس. وأظهر صفات الكاتب على الورق الحكمة والحلم والحسد والجهل، لأن الغرائز كلها، حسنة أو قبيحة، هادئة لا يستفزها الشىء القليل، ولا يهيج لاعجها إلا إذا هيجت كالرائحة لا يبعثها إلا الهواء، أو كتراب الأرض لا يثور إلا مع الرياح. أما الحسد والجهل فهما أبداً جائشان، يغلى صدر حاملهما ويكاد ينبثق من تلقاء نفسه من شدة الفوران كالبركان

المضطرم يقذف الحمم لحر ما احتواه جوفه من النيران.

والكاتب أو المفكر يخطىء إذا لام معارضيه على وقاحتهم فى الرد عليه، أو النظر إلى فكرته بغير العين التى تستحقها، لأنهم معذورون فيما أرى. معذورون لأنهم لا يمكنهم التجرد عن غرائزهم، ولا يستطيعون نزع نفوسهم أو تنزع أرواحهم من جسومهم. وما قلمهم إلا أنبوب تصب فيه تلك النفوس سائلها فيجرى على القرطاس. فأقلامهم لا ذنب عليها، وأيديهم لم تأثم، وأذهانهم خفيف جرمها، إنما العيب كل العيب فى نفوسهم فإنها مصدر الوحى للذهن واليد والقلم.

على عدد اختلاف أشكال البشر وألوانهم ومناهجهم تجد اختلافاً فى آرائهم ومعتقداتهم. يخطىء الأبيض إذا لام الأسود على حلكة لونه. كذلك يخطىء ذو الفكرة إذا عاب غيره لعدم رضائه عنها. ورحم الله البارودى إذ قال:

أسير على نهج يرى الناس غيره　　　لكل امرئ فيما يحاول مذهب

من العدل أن تترك الحركة لكل إنسان يعتقد فى خلده ما يعتقد، لأن المصادرة لا تجوز فى الأفكار، والاضطهاد، إذا ضيق دائرة العمل والكلام، فلن يبلغ التضييق على الهاجس والوجدان.

فالفكرة مادامت فى الخلد خفى أمرها، ومن التحامل أن يتكهن قوم بمعرفة أسرارها، والوقوف على حقيقتها. وإن العمل الذى يقصد به النفع هو بذاته ما يصح أن تقصد به الشهرة وحب الذكر. ألا ترى إلى المحسن كيف يتهمه أعداؤه وحساده بأنه لم يحسن ابتغاء وجه الله، ولكن سعياً وراء المحمدة. ويقول أنصاره وعاضدوه إنما أتاه لحب الخير المحض. كذلك السياسى وصاحب الصحيفة فقد يناضل عن مبدأ يعتقده صواباً، أو يرد على رأى مخالف، فيقول قوم ما أصدق وطنيته، ويقول آخرون إنه مأجور. ولم يخل عمل من الأعمال من العاضدين والمعترضين. ومذهبى أن العمل، مادام نافعاً، فسيان أن يعتبره قوم للمنفعة وحدها، أو للشهرة، فإن فائدة حاصلة على أى حال. وقد تكون الشهرة وحسن الصيت جزاء وفاقاً لصالح الأعمال، تأتى عفواً بغير قصد صاحبها، فما حيلته؟ أيردها وقد لا تدفع، أم يترك عمله كى يبرهن لأعدائه

أنه صادق، وأنه لم يقصد إلا الفائدة خالصة لوجه الله؟ أما الأفكار والكتابات أو الأعمال التى تظهر للملأ فيجب على من لا توافقه أن ينتقدها، وليس أحب للمنصف من أن ينتقده الناس بالحق فيصلح من خطئه ويقوم من معوجه. وإذ قد بينت أن الآراء تختلف بحسب الأشخاص والعقول، فما على المنتقد إلا تخطئة ما يرى فساده، على أن يقرع الدليل بالدليل، والحجة بالحجة، حتى يقتنع صاحبه ويفحم، فلا يجد مناصاً من الرجوع إلى الصواب، ويرى الناس صدق الأدلة أو كذبها، فيكونون حجة له أو عليه. أما من ينتقد بغير الدليل أو يشوب كلامه بالتهكم والسب القبيح فيخرج من عداوته لشخص عفريتاً يخيف به كل من يلوذ بذلك الشخص أو ينتمى إليه أو يذكر اسمه فأحر بكلامه أن يضرب به عرض الأفق، فهو هراء. وإذا كان الله، وهو يعلم صدق دينه، وفى قدرته أن يجبر البشر على أن يدينوا بما ينزله لهم، لم يرض أن يذكر مسألة القرآن إلا وهو مبين أدلة نفعها، وأوجه ضررها، وضارب لها الأمثال كى يقتنع من له عقل صلاحها أو فسادها. إذا كان الله، وهو القادر المتعالى، يفعل ذلك فهلا نفعله نحن عبيده الضعفاء؟

ومن أدب الكتابة أن لا يخلط الكاتب الشخصيات بالعموميات، إذ ما علاقة انتقاد مبدأ مثلاً بأم المنتقد أو زوجه أو فقره وغناه؟ وأين الشجاعة والشهامة فى كيد الخصم من هذا الهذيان؟ لعلهم جعلوا مكان الأسنة الطوال ألسنة طوالاً وبدل خضاب الدماء صبغة من قلة الحياء.

كل ذى رأى يجب قدر رأيه واحترامه وتمحيصه، حتى إذا ظهر فساده يحاج بالدليل إلى أن يقتنع. ومن البلاهة أن يتشبث كل بفكرته وحدها، ويزعم أنه علمها ومفردها، فيأبى قبول البرهان، ويغمض عينيه على القذى.

الصياح والتحامل لا يجديان، بل قد يزيدان المتشبث عناداً. واختلاف المبادئ والآراء لا يحمل على العداوة إلا من لا يفقهون. ثم إن العداوة لا تستلزم الهجر وفحش القول إلا من القوم السافلين. ومن لى بصلاح الدين الأيوبى يلقى على كل عدو درساً مما أتاه مع خصمه ريتشارد قلب الأسد ملك الإنكليز؟ ومن لى بمن يعلم الجهلة ما ورد فى القرآن والإنجيل والتواريخ من مقابلة الأنبياء أعداءهم بالصبر والصدر الرحب.

وبما يجمل ذكره من آداب الانتقاد أن لا ينتقد الكاتب أمراً كان قد أتاه هو، أو أتى شراً منه، لأنهم يقولون: من كان بيته زجاجاً فلا يقذف الناس بالحصى.

هذا رأيى فى احترام الآداب، وآداب الانتقاد، أوجهه للفتيات والسيدات فقد ابتدأنا نعترض، ويعترض علينا، وإذا كنا ننقد الرجال فى كثير من الأمور، لأنهم سبقونا فى التعلم والبحث، وهؤلاء قد بلغ بعض كتابهم من الهوس وسقط المتاع إلى الخبط والخلط، وحشو عام المواضيع بالشخصيات، ومزج الانتقاد بالعداوات والمشاحنات، فأنبه أخواتى من النساء أن يجتنبن الهوة التى وقع فيها بعض إخوانهن، فالباطل أولى أن يجتنب، والحق أحق أن يتبع، والسلام.

لماذا يضيع الرجل تأثيره الحسن فى أسرته

١٨

يأخذ منى العجب مأخذه كلما دخلت بيت أحد العلماء ورأيت نساءه على جهل مطبق، وتنال منى الدهشة كلما سمعت أن ابنة فلان الغيور غاية فى الخلاعة، وأن أخت ذاك المستنير تدعو أترابها لحفلة زار، وأن أطفال ذلك الأستاذ مثقلون بالتمائم. وأكاد أحزن إذا سألت امرأة الصحافى المشهور، وهى تعرف القراءة وتدعى العلم، عن مبدأ زوجها السياسى فتخبرنى ببرود أنها لا تقرأ الجرائد، ولا تشتغل بمعرفة المبادئ!! يحزننى جهل هؤلاءأكثر مما آسف لجهل عامة النساء.

يعذر الفلاح على عدم تعليم ابنته العلوم، لأنه هو ذاته لا يفقهها، وربما لم يسمع إلا بقليل من أسمائها، فضلاً عن احتياجه لفتاته فى مساعدته فى الحقل ومساعدة أمها فى البيت. ويعذر العامل الصغير إذا لم يدخل ابنته المدرسة، لأن ما يشتغل به قد لا يكفيه لسد الرمق، فضلاً عن تحمله أجرة تعليم أبنائه. يعذر هذا وأمثالهما جد العذار، ويعذر أيضاً صغار الناس، ممن لم يتعلموا إلا القليل، ليمكنهم من نيل وظيفة تكفيهم العيش، لأن نفوسهم لم تتشرب روح العلم، ولم يأخذوا به إلا وهم لا يجدون غيره

وسيلـة للارتزاق. ولكن ما عـذر رجالنا المسـتنيرين المتـفقـهين فى ترك بناتهم تنشـئهن الطبيعـة، كيف اتفق، وتربيهن الأمهات وسط التـرهات، وهم إذا كلمك أحدهم أظهر لك واسع خبرته فى العلم الذى يتقنه، وفهمت من مجمل حديثه أنه فيلسوف، وأنه ذو أفكار ومبادئ قويمة، وأنه يلتـهب غيرة على أمته. مثل هؤلاء يصـدق فيهم المثل العامى (باب النجار مخلع) أو هم كـالرجل الذى إذا دهمه أمر ظل كالحديد يتـجاذبه مغناطيس الحيرة من كل الجهات فلا يكاد يرى له مخرجاً من الضيق.

إذا رأيت ابنة شيخ الإسلام لا تقيم الصلاة، وإذا حادثت امرأة الطبيب فوجدتها لا تفرق بين فعل الأدوية الأكيد وبين تأثير الرقى والتـعاويذ فى شفاء الأمراض، فهمت من حالهما أحد أمرين: إما أن يكون رب الأسرة لم تمتزج روحه بالعلم الذى يشتغل به تمام الامتزاج، فهـو لا يشعر به حقيقـة، وإنما يظهر به ليتذرع إلى كسب مـعاش أو احترام، وإما أنه صـادق فى ادعائه، ولكنه لا يختلط كـثيراً بأفـراد أسرته، ولا يوضح لهم آراءه ومذهبه، وهذا هو الغالب فى رجالنا.

يقضى الواحـد منهم نهاره فى الديوان، أو مـحل شغله، ويتسلل من العـصر إلى (القـهوات والبـارات) فيـقتل الوقت فـيمـا لا ينفع، ولا يعود لمنزله إلا وجـفنه مثـقل بالكرى. وقد يمضى الأسبوع ولا يرى أولاده إلا يوم بطالة المدرسـة، فيشبون لا يدرون شيـئاً من أخلاق والدهم، ويقصـر هو فى مخالطتـهم والتحدث معـهم، كأنه يأنف أن يضيع وقاره فى مـحادثة الصغار. وبعضـهم يظل أمام زوجه صامـتاً حتى إذا مل وملت أخذ صحيفـة من صحف الأخبار يطالعها، ولكنه لا يفهمهـا ما بها، إن كانت جاهلة، ولا يقرأ ليسـمعها، إن كانت تفـهم القراءة، فكيف تعلم مبادئه ومـيوله وهو لا يتكلم؟ إنها ليست نبـية فينزل عليهـا الوحى، ولا قدرة لها على كشف حـجب الغيب. وكيف يبلغ أولاده التربية الكاملـة التى بلغها هو ومن يرشدهم فى الحوادث اليـومية إلى مكارم الأخلاق ويخلص لهم النصيحة؟ إن المدرسة وحدها لا تفى لأن تكيف ملكة الشخص، والأم لا تجد من وقتها فراغاً لتجالس أولادها وتثبت فيهم أخلاقها، هذا إذا كانت مهذبة عاقلة لها أخلاق فاضلة، أما غيرها فعليها العفاء.

وإن الصبى لاعتناء والده به، ولكثرة اختلاطه بأخدانه خارج المنزل، تفيده التجارب ويعرك الحـوادث، فيعـرفها، أمـا الفتاة فحـظها قليل من التربيـة النفسيـة، وهى ملاك

الأخلاق. ولا عبرة بما يعلمه الإنسان من العلوم إذا لم يكن ذا إرادة قوية؛ معتمداً على نفسه فى كل أموره، ثابتاً حازماً، لا يابساً ولا طرياً، وفى اعتقادى أن الأب الرحيم العالم باجتماعه مع أولاده وبناته يعوض عليهم كثيراً مما لم يدركوه بالتجربة.

لا أحب الأب يتكبر على أهله وأولاده؛ فيظهر لهم بمظهر الجبار العنيف ويظن أن ذلك استجلاب للهيبة، وهو لا يعلم بما يشعرون. إن الهيبة واجبة فى حد الاعتدال، ولكنها إذا زادت تعدت إلى الخوف فيفقد الوالد الرحمة على أولاده، ويفقدون هم كثيراً من المحبة والثقة بوالدهم. وتجد أغلب الأطفال يحبون والدتهم أكثر من آبائهم لهذا السبب عينه. وهذا التجبر من جانب الأب يضعف الأخلاق فى الطفل ويفسدها إذ يربى فيه الجبن والذل، ثم الاستبداد متى كبر، وأولاد البخلاء أكثر الناس تبذيراً متى كبروا. زرت مرة سيدة ممن ابتلين بمثل هذا الزوج القاسى، وكنا نتكلم وأولادها الصغار يلعبون قريباً منا، وبناتها الشابات يضحكن، وإذا بهن سكتن فجأة، وارتبكت أمهن، وغارت أعينهن، وعلاهن الاصفرار، وقامت إحداهن تهرول إلى الصغار لتسكتهم، والثانية تتسمع على السلم، والأخرى ترى ماذا يمكنها ترتيبه فى حجرة والدها، فعجبت من هذه الحركة الفجائية، وسألت عن الباعث لها، فأخبرتنى السيدة والحزن باد عليها وتكاد لا تنطق إلا همساً «إن البك ربما يكون قد حضر» فقلت فى نفسى إذا كان كل هذا الاضطراب وفى حضوره شك، فماذا يفعل هؤلاء النسوة إذا قيل لهن «أنه قد والله حضر»؟! وأخذ البنات يشرحن لى أنهن لا يتكلمن أمام والدهن، وأنهن يجتهدن دائماً فى البعد عن طريقه، لأنه غضوب، وأنه لا يسمح لهن بزيارة قريبة ولا صديقة، وأنه إذا أخطأت إحداهن فى خدمته أو تأخرت قليلاً (وشدة الوجل تبعث على الخطأ والتأخير) كدرها وأهانها. وإذا تناول الطعام تظل أمهن وثلاثتهن واقفات كالإماء إلى أن يفرغ منه. فعجبت لذلك وأسفت على تأصل روح الاستبداد فى بعض رجالنا إلى هذا الحد المعيب حتى وهم فى منازلهم بين أهلهم وفلذات أكبادهم.

هذا مثل الأب القاسى الذى إذا اختلط بأسرته ليعلمها لم يستفد أفرادها من تعليمه، لأن شدة الخوف تذهب بالفكر. سألت عن هذا الرجل ومعاملته فى الخارج فأكد لى أخى أنه غاية فى اللطف والتواضع، وأنه يحب المزاح أحياناً، فاستغفرت الله له. أيتفضل على الغرباء بالمؤانسة والمزاح أيضاً ويضن بابتسامة على أولاده وأهله؟ ولكن

لله فى خلقه شؤون.

ألا فليعلم الآباء والأزواج أن السلطة التى يطلبونها فى منازلهم يكفى منها أن يقلدهم أبناؤهم، وتتشبه بهم فيها زوجاتهم وبناتهم، ويخشينهم على البعد والقرب. وإن الأسرة الواحدة يجب أن تكون تامة الامتزاج، مرتبطة بالحب الصحيح، فلماذا يضيعون ذلك الحب الطبيعى بقسوتهم وجفائهم؟ ولماذا لا يبثون روحهم فيمن حواليهم من بنات وأخوات؟ ولماذا لا يجعلون لهم تأثيراً حسناً فى أسرهم؟ وكما يتوارث الأولاد اللون والخلقة عن والديهم يجب أن يتوارثوا عنهم أيضاً أخلاقهم الحسنة ومميزاتهم. وبودى لو يجتهد كل شاعر فى أن يجعل أبناءه ذكوراً وإناثاً شعراء. وكل رياضى أن يعلم أسرته الرياضة. وكل سياسى أن يجعل زوجته وذويه يتباهون بمبدئه حتى يتم الامتزاج المطلوب، وتظهر فينا روح الحياة الطبيعية. والسلام.

الكلفة بين الزوجين

١٩

بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلف لا يتفق مع ما يريده الله لهما من سكون الواحد إلى صاحبه، ويشذ عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسلة إرسالاً من غير تعقيد ولا إبهام. فالسماء معقودة على الأفق فى مصر، وهى كذلك معقودة على الأفق فى اليابان وفى جرينلاند. لم يضع الله لها عمد المرمر فى إيطاليا، ولا قوائم العاج فى السودان، ولم يقرها على حوائط البلور فى النمسا. تنيرها الشمس نهاراً (إلا فى القطبين) والقمر ليلاً، وقد نثرت فيها النجوم نثراً، إلا قليلها فهو منظوم. ولم يشأ الله، وهو قادر، أن يجعلها فى شكل عقود وتيجان، أو يرسمها دوائر ومثلثات مرصوصة رص البلاط الملون، وهى مع ذلك يأخذ جمالها بلب المتأمل المتفكر. والأرض بسيطة أيضاً لا تحول لنظامها؛ فالصخر يفتته توالى الريح والمطر فيصير رملاً، والرمل تسقيه الريح ويعجنه المطر فيكون صخراً، والبذر ينبت إذا لقى رياً وأرضاً صالحة، وما أبسط

سوق النبات تظل قائمة ولكنها تميل مع الريح، ويثقل عليها ثمرها فيتدلى، أو يسقط إلى الأرض.

زعموا أن ملكاً من ملوك الصين أمر أن يعرض أصحاب الحرف والملكات مخترعاتهم ومجهوداتهم على باب قصره ليكافئ المجيد منهم. وبينا هو ذات يوم يفحص تلك المعروضات استوقف نظره جمال لوحة مصورة، فأمر أن يمثل صاحبها بين يديه ليكافئه على مهارته فى النقش، فلما أن حضر الرجل عرض الملك اللوحة على جمع من أهل النظر ليحكموا فيها، فاستحسنوها كلهم، وأشاروا بإجازة المصور، إلا رجلاً حاذقاً قال إن بالصورة عيباً وتكلفاً لا ينطق على الطبيعة، فسئل عنه فقال: صور الرجل عصفوراً على إحدى سنابل القمح المرسومة فى اللوحة، ولكنه رسم السنبلة قائمة، مع إنها ضئيلة، ولو اعتلاها عصفور لمالت كل الميل، فرأى الملك صدق رأيه، وأخرج المصور بخفى حنين. هذا مثل ضربته لقبح التكلف وحلاوة البساطة. ولكننا مع الأسف نسمع الزوجة عندنا تقول لزوجها يا سيدى، أو يا أفندى، وهو يناديها بقوله «يا هانم»، كأنهما غريبان بعضهما عن بعض، وما اثنان أحق بزوال الكلفة بينهما من الزوجين، المطلع أحدهما على سر الآخر، المشرف على نفس صاحبه. ولو اقتصر الأمر على النداء لقلنا بعض الشر أهون من بعض، ولكنك ترى الرجل يرائى فى حديثه مع امرأته ويطريها بمحاسن ليست بها، فما أكذبه، وما أكذبها، إذ تغش نفسها، وإذ تتكلف له فى كل شيء حتى لون وجهها فتصبغه وتغيره، وعذرها أنها لو وثقت من رضاه عنها، وهى فى صورتها الفطرية لما ظهرت له متكلفة.

أعرف نساء، وأسمع عن أخريات، تظل إحداهن واجمة أمام بعلها، تخطئها الكلمة إذا نطقت، وتتعثر إذا مشت، وتكسو وجهها الصفرة إذا سمعت صوته، «وتعروها لذكره رعدة» فياسبحان الله! أى سعادة فى تلك العيشة النكدة، عيشة الخوف والوجل؟ إن الزوجة مهما كان الرجل مهيباً شجاعاً ليست موضعاً لإظهار بسالته وقدرته على سحق البشر! ويقول العامة فى أمثالهم «السبع لا يأكل أنثاه» وهو مثل من الحكمة بمكان. وحبذا لو اقتدى به ساداتنا المتجبرون. وحسبهم شرفاً أن يقال إنهم كالليوث، وإلا يصدق فيهم قول الشاعر «أسد علىّ وفى الحروب نعامة». فعندهم مواطن عدة لإظهار شجاعتهم، فليتشجعوا لها وليتركونا.

تعجبنى طريقة العرب والفلاحين والفرنجة فى معاملة أزواجهم. ينادى الرجل زوجته باسمها وتناديه باسمه. تشاركه فى الراحة والتعب وتقاسمه الطعام والشراب. إذا غضب عليها ظهرت له فى مظهر الشمم والإباء، فإن حاسنها حاسنته، وإن التوى لم تقصر هى فى كيل الصاع بالصاع.

أما طبقتنا، نحن نساء الحضر فى مصر، فلا يمثلها فى العالم طبقة جمعت بين الأضداد. فبينما نحتكم فى الرجل من شأن حلينا وحللنا، حتى نجعل نهاره ليلاً أو يذعن لمطالبنا، ترانا نكسر شرة النفس ونحملها من الكلفة وضيمها فوق ما تحتمل، فكم من امرأة تقبل إهانة زوجها لها صاغرة، وكم من أخرى تلدغها أصابعه لدغ الأفعى فتجعل من دمعها المدرار ترياقاً لها، ثم لا تلبث أن تستغفره كأنها هى المذنبة، على حد قول الشاعر:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

إنها لو أظهرت له أنها مساوية لما استرضته مخطئاً، ولكن هل ظواهر الإنسان دائماً بواطنه؟ إنك تحترم الأمير، ولكن لا تعتقد أنه أشرف منك مجداً، ولا أعرق منك فى الإنسانية، وتظهر هذه النزعة فى كلامك عنه، خصوصاً إذا استفزتك إهانة منه فأثارت نفسك عليه.

فالزوجة بتحملها أذى زوجها لا تعتقد أنها أذل منه، ولكنها تخضع صاغرة لاحتياجها إلى إنفاقه عليها، أو تفادياً من أن يقال طلقت وبانت، أو حباً بأولادها، وخوفاً عليهم من أن يذلهم بعدها. وهذا الخضوع، وإن كان يعلمها مزية الصبر الجميل، تكلف منها وتصنع. فالحاجة والحياء يغطيان جراحها ظاهراً فتظهر كأنها اندملت، ولكنها تنغر نغراً ممتلئة صديداً وصدوداً.

الكلفة رياء، والرياء سرطان يسطو على النفوس فيصدعها ويصرعها. والزوج القاسى أو المتكبر يفسد أخلاق زوجته بتكبره ويعلمها الصغار والكذب. ومن كانت هذه حالها كيف ينتظر أن تربى أولادها على الفضائل؟ كيف تقول لابنها لا تكذب وهى تكذب.

أظن أصل تأليه البعول سرى إلينا من ذلك الزمن الذى كانت فيه الجوارى حظيات! ولكن إذا جاز أن تقول الجارية لسيدها، المالك لها، البانى بها، يا سيدى، فكيف يجوز لحرة أن تدخل نفسها فى الرق مختارة والرق أسر فضلاً عن أنه غير مباح الآن؟

وهناك أخرى تقول لزوجها حضرتك وسعادتك فما هذا التكلف البارد؟

إننا بتسميتنا فلاناً بصاحب العزة، وتلقيبنا أحد الملوك بصاحب الجلالة، لنكفر ونلحد. فما صاحب العزة وذو الجلالة إلا الله الواحد القهار. ولو أنصف كتابنا لحذفوا تلك الألفاظ الدالة على الشرك من كتاباتهم وأقوالهم.

يكلم الفرنسيون الغريب بلفظة الجمع (suov)، ولكنهم يضحكون إذا قال الطفل لأمه أو الرجل لزوجته Vous لفظة التعظيم، لم يقل Tu أى أنتِ، وكذلك الحال بين الأهل والأصدقاء والأصحاب.

الزوجان بعقدهما عقد الزواج تعاهدا أمام الله أن يرتبطا بعضهما ببعض. فكيف يقف الإنسان حياته على من لا يوافق مشربه أو يتعالى عليه؟

سمعت أن المرأة اليابانية تسجد لزوجها، وعجبت من ذلك، وهى قد أخذت من التمدن الغربى حظاً وافراً، ولكنها مشركة بالله، فلا غرو، إذن، أن صدق ما سمعته عنها فى هذا الشأن. فعلى رجالنا المستكبرين، الذين ستغضبهم مقالتى هذه، أن يخطبوا منهن. فإننا مسلمات مؤمنات لا نشرك مع الله أحداً. أو أولى لهم إذا قبلوا أن يتحملوا مسئولية المحاكمة أن يختطفوا الجوارى من جبال القوقاز، أو من مجاهل أفريقية، ويدربوهن على عبادتهم من الصغر ولكن بأى لغة!!

لعل مصلحة منع الرق لا تعتبرنى محرضة على العبث بقوانينها فتحاكمنى قبلهم معتبرة الدال على الخير كفاعله.

زواج الأختين

٢٠

وصلنى فى بريد الخيال كـتـاب ذو بال أثار من النفس أشجانها، واعـترض سرورها بأحزانها، وجعلها بين اليأس من الإصلاح والرجـاء فيه، فتارة أنا متسنمة ذروة الأمل، وطوراً أرانى فى حـضيض القنوط. ومـعاذ الله أن أسـتسلم لليـأس، وهو سم القلوب ومعول الحـياة. ومعاذ الله أن تـسترجعنى الصـعوبات عن عهد أخـذته على نفسى بينى وبين الله أن أصلح مـا أستطيـعه من فـساد. ومـا كان لمثلى أن تنكث المواثيق أو تـغدر بالوعد مهما كانت وعورة الطريق. وهذا هو الكتاب.

مصر فى ٣ شوال سنة ١٣٢٧ هجرية.

عزيزتى ملك:

شوق وسلام وبعد، فـإنى أهنئك بالعيد السعيد، كمـا يقولون، وإن كنت لم أشعر به، ولا حفلت له.

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما مـاضى فقد كـان غير سـعيد، اكـتنفته الأحـزان وأخذت عليه طريقـه تقلبات الزمان. ومستقبلى لا أراه، أشد حلكة وأبعث على اليأس منه على الرجاء، فقد تولتنى مصيبة دهماء ليس لها سلوان. واحدة لكنها متعددة إذا تعزيت بأولادى ألح على فراقهم لى على الرغم منى ومنهم. وإذا أنسـانى عزاء الصـديقات بعض الأسى على بـعدهم، ذكرنى غدر شقيقتى خيانة بعـلى. ولولا الإيمان والثقة برحمة الله لفضلت الانتحار على حياة سئمت تـكاليفها، ولكنى لم أعش ثمانين حولاً كزهير عندمـا سئم، بل عمرى لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

عزيزتى، لقد أفرغ الدهر جعبة سهامه علىّ فأصاب منى مقاتل شتى. طالما سمعتك ونحن نلعب تقولين لشقيقتى إنها غليظة القلب جافية الشعور، ولا أكتمك أن قولك هذا كان يؤلمنى، وقد عاتبتك عليه مراراً إلى حـد التعنيف، ولكن ستأخذ منك الدهشة الآن

إذا جاريتك على رأيك فيها، بل زدت عليه أن فؤادها قد من الجلمود.

أتدرين ماذا فعلت؟ إنها كانت تكثر من زيارتى فأنشرح لها، إذ كان يلذنى شعورى بحبها الأخوى لأننا كما تعلمين فقدنا الأبوين منذ نعومة الأظفار، فكنت أستعيض بها عنهما. وكانت تجالس بعلى وتخاطبه وليس عندى شك فى إخلاصها لى، وأمانتها نحوه، ثم تحولت المحادثة البسيطة إلى مضاحكة ومغازلة، فحملتها على أنهما كأخوين مرفوع بينهما التكلف، ثم زاد الشغف فكان يأخذها للفسحة معه خارج البيت ويتركنى به، وهكذا تدرجا فى الحب كما قيل:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

ولم يداخلنى ريب البتة فى حسن نيتهما نحوى. وأخيراً لم أدر إلا وقد فاتحنى يوماً بأنه يريد التزوج من أختى لأنه كلف بها وهى كلفت به، وإذ كان الدين الإسلامى لا يسوغ الجمع بين الأختين فقد تحتم طلاقى منه وحم القضاء. وقد تركت له منزله فأقام فيه عرساً بهجاً، واقترن بشقيقتى بنت أمى وأبى، وأخذ منى أفلاذ كبدى، وتركنى أندب حظى، وأندب اجتماعى بأولادى، بل أندب الوفاء وأندب الإنسانية. أما والله لو كان تزوج غير أختى لهان الخطب، ولما أسفت على عيشة نكده.. قضيتها معه؛ تحملت سوء معاملته بالصبر الجميل، وعذرته فى سكره وعربدته، فكنت أصفح ويسيء. كما قال معن بن أوس:

وإن سؤتنى يوماً صفحت إلى غد ليعقب يوماً منك آخر مقبل
كأنك تشفى منك داء مساءتى وسخطى وما فى ريثتى ما تعجل

إنى لأشك فى أنى وأختى رضعنا ثدياً واحداً أو حملتنا أم واحدة.

لم يكف أختى ــ سامحها الله ــ ما فعلت، بل إنى ذهبت بعد شهرين من زواجها لأرى أطفالى، الذين حرمنى الدهر منهم على غير جريرة ارتكبت، فامتنعت عن أن تسلم علىّ، وتركت الطبقة (الدور) التى كنت بها إلى الطبقة العليا. وأرسلت لى خادمتها تأمرنى بالانصراف حالاً عن منزلها خيفة أن أكون استصحبت لها سحراً يقلل من محبة زوجها لها. خرافة والله، وما كان ليهمنى زوجها وحبهما بعد أن حصل

منهما ما قد حصل. على أنى لا أعتقد فى السحر إلا كاعتقادى فى وجود العنقاء.

وأنا الآن فى بيت خالى، وقد طالما نصح لأختى هو وجـدتى. نصحا لها أن ترجع عن غيها وتنسى زوجى، والرجال كثير، وهدداها بأن يبرءا من نسبتها إليهما، فلم تحفل بما بذلاه لديها من النصح والتهديد، وصمت إلا عن هواها وأنانيتها.

إن هذه الحادثة يا عزيزتى جعلتنى أمقت ذكـر الزواج والرجال. وأعتقد أنه لا يزال بهم جزء وافر من البهيمية، وإن كانوا يدعون أنهم أرقى منا عقلاً وأصفى جوهراً. نعم إن أختى عليها بعض الجرم، ولكن من أغواها وأضلها؟ أليس هو الرجل؟

هذه حكايتى قـصـصتـهـا عليك، ولى فى إخـلاصك ما يخـفف بعض لوعـتى، والسلام.

صديقتك الوالهة سعاد.

كلمتى: تقع أمثال هذه الحادثة كثيـراً فيتفطر لها قلب الإنسانية، ولا أدرى هل عند حضرات العلماء والمجتهدين فتوى تحرم الزواج فى مثل هذه الحادثة.

نعم إن الشـرع نص على أنه لا يجوز الجـمع بين أختين فى آن واحـد، ولكن ألم يضع الدين كل ما يكفل راحة البشر وسعادتهم؟ وإن فى طلاق أخت لأجل زواج أختها من نفس بعل الأولى لشقاء لا يعادله شقاء، وقطيـعة بين ذوى القربى، أو عصياناً لأمر الله تعالى، فإنه نص على البر بهم نصاً صريحاً لا يحتاج لتأويل.

من الملوم فى مـثل هذه الواقـعـة؟ لا ريب أن اللوم لا يتـخطـى كـلا الزوجين الجديدين، ولكـنى أعتقـد أن المرأة أضبط للنفس من الرجل، مـتى أرادت. وليس ذلك بالفطرة، ولكن بفضل المبادئ والتقاليد، فلو كانت أخت سـعاد أرجعت بعل أختها عنها لارتجع، أو لو ابتعدت عن طريقـه لامتنع عن التمادى فى الغواية، ولكنها كـانت ميالة للغـدر بأخـتهـا، فـلا رعاها الله، ولا رعـى كل امرأة لا تقـوى على ضـبط نفـسهـا وامتلاكها.

المدن والقرى

٢١

قل ما أنقى الهواء وأعذب الماء وأصفى السماء فى القرى، وما أكذب الحياة وأقرب الوفـاة فى المدن. القرى جـميلة لأنهـا على الفطرة. أمـا المدن فلا تعـدم أثراً للتكلف والرياء.

أين دوى الكهرباء من خرير الماء، والدخان المتـعاقد فوق المداخن من جو لا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلا رؤوس النخل الباسقات؟؟ وأين وحل الشوارع وعثيرها من أرض كسيت ببساط النبات؟؟ وأين الرائحـة المنبعثة من مقاذير المنازل، وروث الدواب من شذى أزهار الحقول؟؟ بل ما أوصل البصـر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور من نظر تسـرحه حيث شـئت فلا تجد إلا اللانهـاية للفضاء؟؟ وأين كـثرة التلفت والحذر من رسل عـزريل، السيارات والمركـبات، من اطمئنانك وسـيرك على صراط سـوى، لا يقتـفى أثرك إلا ظلك، وهو على ما تعلم من التـبعـية والولاء؟؟ وبالاختصار قل إن جملة المدن فيها إجهاد للحواس وتشويش للفكر، وإن القرى فيها هدوء الكون والجسم والبال.

فى القرى تجود الـصحة لنقاوة الهواء وحـسن الغذاء واتباع سنن الطبيـعة فى النوم والراحة والاستيقاظ. أما فى المدينة فـغذاء مغشوش وماء آسن لا يكاد يصل إلى المنازل إلا بعد مروره ببطـن الأرض فيتلوث بما فيهـا من المستنقعات والرواكـد والأقذار. وجو مكتظ بأنفاس السكان من أقوياء وأعلاء، ومساكن اشـتركت فى عمرها الرطوبة، فضلاً عما بـها من الضيق، وساكنهـا من حين لآخر ينتظر زائراً، أو يزور صاحبـاً، أو يخرج ليرى منظراً، أو يلتقط خـبراً، فيضيع وقـته سدى فى أحاديث منمقـة كاذبة. تراه يقول لزائره «أوحشتنا وآنستنا» وقد يؤثر زيارة الحمى على زيارته.

المدن باعثة على الفساد، من كان عنده ميل إليه، أو كان ضعيف الإرادة يجره أولو السوء إلى مساوئهم كما يجر الجزار الشاة، ويجذبه زخرف المدينة الباطل فلا يقوى على

رد هجمته. لا تصلح المدن لتربية الأطفال على قـواعد الصحة والاستقلال، وكذلك لا توافق المرأة كثيراً. والمتصفح لكتاب التربية الاستقلالية، أو أميل القرن التاسع عشر ــ لا يسعه إلا التـأمين على ما قاله مؤلفـه من وجوب تربية الأطفال فى القـرى. وقد ضرب لذلك مثلاً أن الطفل فى المدينة تجتهد أمه فى تزويقه وتحسين بزته ليفتن كل من رآه، فإذا مشى يريد الفسحة حمله هذا وقبله وأطراه ذاك، وإذا أراد اللعب أو تتبع حشرة أو جرى تنشيطاً لرجليه، منعتـه مربيته لئلا يلوث ثيابه الجميلة، فينـشأ الطفل ضعيف الجسم لأنه لم تترك له الحرية ليستـعمل حواسه وأعضاءه كيف شاء. ولا غرو فـإن استعمال الشيء يقويه ويصلحه ويشب ضـعيف الإرادة مغلوباً على أمره لأنه يجبر على الخـضوع لمربيته خضوعاً مـزرياً. حتى أنه ليستشيرها فـيما يقول أو يفعل، ويشب كذلك مـغروراً بنفسه لتعـوده سماع الثناء عـليه والإطراء. ثم يظل جاهلاً لكثـير من الأمـور، لأنه فى القرية يستغنى عن كثير من «دروس الأشياء» والجغرافية الأولية يتعلمها بنفسه، والعلم المكتسب من النفس والتجـارب ثابت بخلاف مـا يحشى به الرأس قسـراً فإنه سريع الزوال غـير مؤثر. فـبدلاً من تلقينه أن الشـمس تبزغ من الشرق وتغـيب فى الغرب، وترديده تلك الألفاظ كـالببغاء وقـد لا يرى شروقهـا وغروبها لعلو المساكن المـلتصق بعضهـا ببعض وحجبها الأفق. بدلاً من ذلك يمكنه فى القرية أن يلاحظ الشروق والغروب بنفسه لسعة الفضاء حوله.

يضحكنى فى دروس الأشيـاء وكتبها أن يقـال الجمل من ذوات الأربع، وله سنام، والقط وله عينان وشاربان، والسمكة لهـا ذيل وحرافيش، فإن ذلك يجب أن يراه الطفل بنفسه، أمـا ذكره له فأراه حطاً من كرامتـه، وتضييعاً لوقتـه، وتعويداً له أن يتكل على غيره. وعندى أن تركه يلعب ويمرح خير له من تلك الدروس العقيمة، ولكن قد لا ينتبه أطفال المدن لتلـك الحيوانات لقلتـها عندهم، ولعـدم تعودهم البحث وإجـالة النظر من تلقاء أنفـسهم، وهم لو تربوا فى الـقرى لعلموا كل مـا يتعلق بهـا أو جله، ولأمكنهم معرفـة خصائص النباتـات، ومتى وبأى وسيلة تنمو، ومـاذا يصنع بها فى أدوار نموها، وبعد نضجها، وغير ذلك مما يفيدهم ويسليهم فى آن واحد.

ترى الطفل فى القرية يستيقظ مع الشمس وينام مـعها، ويأكل متى جاع، فلا ينتظر وليمة يأخذ منها فطيـرة قد تفسد معدته، ولا يجبر نفسه على الســهر ليحضر الملاعب،

وهو فى كل أوقاته بعـيد عن السكارى والمهـوسين وصرعى العجـلات (الترام) فتـمتلئ نفسه ثقة وإيماناً واطمـئناناً، ويكون أبعد انفعالاً وحمقـاً من مثله فى المدينة. يؤيد قولى هذا أن أعظم النوابغ فى مـصر وأشـرف الرجال مبـادئ أصلهم كلهم تقـريباً من أولاد أولئك القرويين الأصحـاء البنية والعقول، أثرت فيـهم تربيتهم الاستقـلالية فنشأوا ذوى عزيمة صـادقة وحب غـريزى للعمل. أمـا أولاد (الذوات)، وهم العريقـون فى سكنى المدن، فلا حاجة لوصفهم ويكفى القول بأنهم لا يصلحون لشىء ما، ولا ينبغ منهم إلا النزر القليل.

والمرأة ليست أقل سـعادة من الطفل فى سكنى القـرى، بأنها فـضلاً عمـا تجد من جودة الـصحـة والراحة، تراها تتـفرغ لبـيتـها أكـثر وتزاول بعض الأعـمال مما يشـغل عضلاتهـا، أو على الأقل يستدعى انتبـاهها وملاحظتها. فـبدلاً من أن تنام وتنتظر بائع الخبز يحضره لهـا، تراها فى القرية تشتغل بتحضيره، أو تلاحظ خدمـها عند اشتغالهم بالقمح وتجهـيزه. كذلك تجد نفسـها فى المدينة كسولاً لأنها ببـذل بعض الدراهم يمكنها استـجلاب جميع لـوازمها، فلا تخـيط والخياطات كـثيرات، ولا تلاحظ نظافـة البيت وترتيبه، كما تفعل لو كـانت فى القرية، لأن خادمات المدن أرقى بالطبع من الفلاحات فى مثل هذه الشـؤون. فتتكل ربة البيت عليـهن، ولكنهن لا يقمن بما عهـد إليهن تمام القيام، أما سوق التنافس فرائجة جداً فى المدن لكثرة الاختلاط، وقد يجر تنافس النساء إلى تحميل الرجال فوق طاقتهم ومضايقتهم إذا لم يكونوا فى سعة من الغنى.

ماذا تعـمل نساء المدن عندنا؟؟ لا شىء اللهم إلا كنس الشوارع بذيول حـبراتهن، وإثارة ترابها وجراثيم الأمراض المنتشرة، ووقتهن ضائع بين استقبال الزائرات وزيارتهن، وبعضهن يحضرن التمثيل ولكنهن مع الأسف لا يخرجن منه بفائدة ما، ولا يتعلمن من مزاياه والتـاريخ المنطوى تحته والمعانى السـامية التى يحتـويها إلا ألفاظ العشق والتـهتك ووسائل الهرب والفجور. مثل هؤلاء تفسدهن المدن وتدعوهن للتبذير والابتذال.

قارن بين المرأتين المدنية والقـروية تجد فرقاً هائلاً فى الصحة والأخلاق؛ فـبينا تنشأ الأولى خمولاً عليلة تجـد الثانية مفتولة الذراعين طاهرة السـيرة والسريرة. تمشى الأولى فى الطريق محتجـبة، ولكنها غير محـتجبة عن أعين السفلة وألسنتهم فـيغازلونها على قارعة الطريق، وهى تمشى الهوينا مـتبخترة، أما القروية فإنها تلـوح عليها دائماً ملامح

الجد والنشاط، فإذا مشت خارج بيتها تجدها تسرع الخطى لا تلوى على شيء، وهى لا تغطى وجهها، ولكن هل يجسر أحد على «معاكستها»؟؟

رأيت سيدات كثيرات لا يستطعن العيش فى القرى أسبوعاً واحداً فعجبت من ذلك. هؤلاء من يسميهن الإنكليز (Society Women) أى نساء المجتمعات، وهن اللاتى لا يهمهن إلا أن يظهرن فى كل حفلة ويذكرن بالحسن والتأنق فى الملبس ونفاسة المصوغات، ويطربهن أن يكن موضع الإعجاب، وأن يشار إليهن بالبنان، ولو فيما لا يستحق الذكر. مثاله أن إحداهن رهنت أملاكها واشترت سيارة وأوصت أن تدهن تلك السيارة بلون ليس له مثل فى البلد، وأن يجعل لصفارتها صوت خصوصى تعرف به، فإذا مرت وسمعت قولهم هذه سيارة فلانة، هزها الفرح ونسيت أن أملاكها مرهونة، وأنها خير من السيارة وأبقى. فهذه السيدة ومثيلاتها، ممن يرصعن أحذيتهن بحجارة الماس الكريم ويتركن الفقراء يتضورون جوعاً، لو نشأن فى القرى أو لو سكنها لوجدن أنفسهن بعيدات عن مثل هذا الترف الباذخ ولواسين الملتفات حولهن من الفلاحات البائسات.

السيدة الفاضلة هى التى ينال غيرها نفعها، لا التى ترفل فى الدمقس وفى الحرير. وفى القرى يمكن بث التعاليم المناسبة لأهلها فتستفيد منها كثير النساء الجاهلات، كتشويقهن للنظافة، وإلقاء بعض النصائح الصحية عليهن، وحثهن على إرسال بعض أولادهن للكتاب، وتعويدهن الاطمئنان لتحوطات الأطباء أيام الأوبئة، وتشجيعهن عند أخذ أولادهن للجندية، وغيره كثير. وقد جربت ذلك بنفسى ويسرنى أنه ناجح والحمد لله. إلا أن هذه القلوب الطيبة والنفوس المطمئنة لتجعل الملتفات حولها تشعر كأنها ملكة فى مملكة صغيرة ويلذها أن تنفعها وترقيها. فليتدبر ذلك نساؤنا اللاتى يكرهن زيارة القرى لا لذنب إلا لأنها بلد الفلاحين.

جمال السيدات

٢٢

البشاشة مفتاح ما أغلق من السعادة، ومعوان على قضاء الأشغال، يصل نورها إلى قلب صاحبها فيفعمه غبطة. كذلك يلقى شعاعه الكهربائى على من حوله فتنتعش به أرواحهم. وهى جميلة فى الكهل، كما تجمل فى الطفل، إلا أنها أبهى وأشد تأثيراً فى المرأة تلك التى تسيطر على القلوب ولا تدرى.

خلقت المرأة لطيفة بالفطرة، والبشاشة من لوازم اللطف، كما هى من المؤثرات فى الجمال. وإن لين صوتها ونعومة أديمها وتناسب أعضائها لتستدعى مراعاة النظير فى رشاقة حركاتها وانفراط أسرة وجهها. كذلك صوت المرأة يدل على تربيتها، فالمرأة المهذبة لا ترفع الصوت ولا تكاد تسمعها عن بعد إلا كالهمس. هذا إذا لم يبعثها باعث شاذ على إعلائه كأن تقف خطيبة على جمع حافل أو تلقى درساً فى حجرة واسعة. ولكنك إذا اجتزت أحد شوارع البلد الهادئة يذعرك كثرة ما تسمع من صياح النساء فى غير طائل إلا شتم الخدم والدعاء على الأطفال أو محض قص القصص أحياناً. فإذا دخلت المنزل تجد صاحبته مقطبة الجبين، يكاد يطردك عبوسها عن أن تقابلها، ولا توشك أن تجلس حتى تبدى لك سبب صراخها، فتشكو من هذا وتتألم من تلك إلى أن تجعل الدنيا فى عينيك كسم الخياط.

يلاحظ نساء الفرنجة ذلك، وكذلك السيدات التركيات، ويستدللن من صوت المرأة على مكانتها فى الاجتماع، فالمهذبة تخفضه أما عاليته فيصمنها بفساد التربية أو ضعة المنبت، ولكننا نحن المصريات قلما نراعى ذلك فقد تجد أعرقنا أصلاً أقوانا نبرة، وأكثرنا حشمة أشدنا صراخاً.

ثم إذا أرادت إحدانا التنقل من حجرة لأخرى تراها تتعثر بأذيالها، أو يصدمها حائط أو تكسر زهرية قريبة منها. وهذا كله نتيجة تربيتها الأولى.

يجب أن تتعلم الفتاة كيف تمشى وكيف تتكلم. لا أريد بذلك أن تتدرب على

التبـختر أو غنة الصوت. كـلا وإنما المراد تربيتها على مـلاحظة ما حولها والانتـباه له. فكثيرات عندنا وكثيرون أيضـاً من يمشون غير حذرين فيقعون فيمـا لا تحمد عقباه، وإن كثرة صرعى (الترام) فى مصر وتعدد السـقوط من النوافذ لبرهان جلى على فساد التربية سواء كانت فى الأطفال أو الكبار. وإن من العـمى لمن هم أشد حذراً فى التلمس وأكثر تؤدة فى المشى من هؤلاء المبصرين الذين (لا يستعـملون أعينهم) كما يقول الإنكليز فى اصطلاح لغتهم.

إذا كان الإنسان عاجزاً عن أن يحسن خلقته أو يغيرها تغيراً ثابتاً، فإنه يستطيع على الأقل أن يحفظها كـما هى زمناً طويلاً، وأن يحسن أخلاقه، وهذه الثـلاث الخصال أى البشـاشة والخفة وانخـفاض الصوت من مجـملات المرأة خلقاً وخُلقاً، ومن مـحسنات الصحـة أيضاً. فـقد ثبت أن تقطيب الوجـه يدنى إلى الشيـخوخة بما يخلـفه من الآثار والغضون، فـيثنى الجلد ثنايات لا انفراط لها فـيما بعد، وأظن هذا هو السـبب الوحيد فيما يظهر على نسائنا من الكبر قبل الأوان.

أما خفة الحركة فكفى بها ما تستدعيه من نشاط الجسم، وتوفير الوقت، تسافر المرأة الإفرنجـية الآن أو البدوية وحـدها، فتركب القطار أو الجـمل وتنزل وسرعان مـا تحمل متاعها أو تحضر من يحمله لها بلا ضوضـاء. أما المصرية فلا تسافر إلى محطة قريبة إلا ومعـها من الخدم والأقـارب من تعطلت أعمـالهم من أجلها، ثم تجـدها لا تكاد تحرك رجلاً لتنزل حـتى يتحـرك القطار وإذا ساعـدها الله (والأولياء)!! ونزلت فـما أكثـر ما تفتقده ولا تجده. ضـاعت حقيبة المصوغات، وانكسرت القلة فبللت حـبرتها، واشتبك برقعها بمفـتاح العربة فانقطع خيطه، وإذا لم يسرع حـشمها فى التقاط أطفـالها فقد يقع أحدهم تحت العجلات صريعاً.

أما انخفاض الـصوت، ففضلاً عن رقته ولـطفه فى ذاته، فإنه يريح الرئتين والزور من الإجهاد وكذلك يقع ليناً على آذان السامعين.

المرأة صاحبة البيت فى الحقيقة لا الرجل، فإنها بما لها من القيام على ترتيبه وحفظ من فيه وما فيه تسرى سلطتـها على من يسكنونه معها من زوج وأولاد وخدم. والرئيس له تأثير غريب على مرؤوسيه، يأتى طبيـعياً إن لم يكن بالتقليد لنيل الزلفى. فإذا دخل معلم على تلاميذه بحالة من الحالات النفسية تجد أن تلك الصورة بعينها قد انطبعت فى

التلاميذ إن فرحاً وإن غضباً. والمرأة لها نفس التأثير الغريب فى بيتها، فحرام أن تحزن معها رجلاً يتعب ويكد يومه ولا يغشى بيته إلا ليستريح، وأولاداً صغاراً لا يعرفون للهم معنى، وخدماً تبعث فيهم كلمة طيبة منها روح النشاط وحب العمل. حرام أن تكدر صفو هؤلاء على غير جريرة لأنها تشعر بملل من طول الكسل، أو بضيق صدر بسبب كان ذلك أو بلا سبب.

على أن بعضهن قد يفرطن فى التبسم وانخفاض الصوت إلى درجة تخرجهن عن اللائق. فالمرأة الضاحكة بلا سبب والخفيفة إلى حد الطيش والواطئة الصوت إلى حد الهمس كلهن مفرطات فيما يجب، إنما أعنى أن تصحب البشاشة الوقار، والخفة الحزم، وهدوء الصوت البيان. هذا هو الجمال الممكن نيله، الممدوح أثره، لا الطلاء والتطرية الكاذبان.

جمال السيدات

يضيعه التبغ والخمر

٢٣

الله أكبر ما جمال المرأة المعنوى إلا فى عفتها ووداعتها. والتبغ مذهب لتلك الوداعة مخل بصفائها. صور قدماء الرومان واليونان آلهتهم برموز وتماثيل تدل عليها، وكذلك يصور المعاصرون من الفرنجة كثيراً من المعانى فى أشكال مجسمة تعينها. مثلوا الحنو الوالدى والشفقة والصبر والحب وغيرها فى حجارة نحتوها وصور نقشوها، ولعلهم لم يفتهم تصوير الكسل، ولو أنصفوا لصوروه امرأة تقضى وقتها بين السيجارة والقهوة. وأظننا لا نجهل مُثلاً حية كثيرة له.

وكما يذهب تعاطى التبغ بالجمال المعنوى، كذلك يسلب الجمال الحسى. يرمى الأسنان بالصفرة ويغير اللثة والشفتين، وأظنه يغير طعم الفم أيضاً. ولو عاش الشعراء الأقدمون إلى هذا الوقت لما رأينا فى أشعارهم ذكر اللؤلؤ والبرد ووميض البرق،

وغيرها مما كانوا يشبهون به أسنان النساء لشدة بريقها. فإذا كانت المعاصرات، وخصوصاً المتدينات منهن، يزعمن أنهن أرقى من مثيلاتهن الغابرات فى كل شيء فقد أخطأن. وإذا كان دارون وأنصاره يدعون اطراد التحسن والارتقاء فى التسلسل الذى قالوا به، فقد كان يتحتم عليهم أن يستثنوا جمال النساء لأنه راجع القهقرى. ولو اقتصرن على تعاطى التبغ لهان الأمر. إنهن، والأسف ملء فؤادى، يتعاطين الخمر سراً وجهراً. أعوذ بالله من شر المدنية الحديثة، ومن شر التقليد الأعمى.

الرجل أبشع ما يكون حين يسكر، والمرأة أبشع ما تكون حين تشرب الخمر. وقد سرى هذا الداء العياء بين الطبقات العالية من النساء، بدعوى أنه من كماليات التفرنج، ويقلدهن فيه الباقيات تشبهاً، ويتبجح بعض النساء الآن فى الأعراس بطلب الكؤوس والأقداح وزجاجات الخمر، إذ يشربن بلا احتشام، ولا يلبثن أن يتمايلن ويهذين كسكان (السراى الصفراء).

حدثتنى سيدة ثقة من المتألمات لهذه الحال أنها دعيت إلى عرس أحد (الذوات)، ولما جن الليل قام من بين المخمورات اثنتان فهذتا ما شاء الجنون، وبعدها تشاجرتا وأمسكت كل واحدة منهما بتلابيب الأخرى فمزقتا أثوابهما المزركشة، وكانت النتيجة سخرية وفضيحة. وقد أكدت لى محدثتى أن ثوب إحداهما كلفها أربعين جنيهاً. فياللعار! إنها لبدعة وضلال كبير.. ذهب الوقار وانتشر الفجور فبئس التمدين وبئس التقليد. أَمِثْل هاتين المرأتين توكل تربية الأولاد، ومن مثلهما يطلب تدبير الدور؟ إن السكرى لا تعى ما تقول ولا ما تفعل، وقد يجرها الخمر إلى شر أنكى من الهذيان. وإن المتتبع لسير نسائنا ليدهش من كثرة الفساد بين الطبقة العليا منهن وهى تعدى كالجرب غيرها من الطبقات. أين وازع الدين؟ أين زاجر العقل والآداب؟ يا قوم لا تغرنكم زخارف المدنية وربوا بناتكم تربية إسلامية. ولا بأس من اقتباس الحميد من المدنية الأخرى، وإن تدهوركم هذا لآخذ شيء بكم وبالوطن إلى مهاوى الاضمحلال. وأى فساد أكبر من اندماج أمة فى أخرى، وتلاشى عاداتها وآدابها فى اتباع سنن لا تتفق مع دينها ولا مع مدنيتها؟؟

إن فساد كثير من النساء راجع إلى بعولتهن، فكثيرات من تعلمن منهم المسكر. وكثيرات من يسكرن معهم فى البيت حرصاً عليهم أن يسكروا فى الخارج فيرنوا إلى

غيرهن، أو تسلب نـقودهم، ويجعلن لأنفسهن عـذراً أن بعض الشر أهون من بعض. إلا أن المرأة الحكيمـة هى التى إن رأت فى بعلها خـصلة ذميمـة أخذته بالحـيلة وحسن السياسة والتأثير إلى أن يتركها، لا التى تحاكيـه فيها فيتضاعف الفساد. وأجدنى مضطرة إلى توجيه بعض اللوم إلى أطبائنا فى هذه الحال، فأغلبـهم يصفون أدوية فيها مزيج من النبيـذ وغيـره للسيـدات بدعوى أنها تقـوى الدم أو تجلب الدفء أو تمنع المغص وغـير ذلك. نعم إنهم يصفـونها بقصد حـسن لأنهم يعرفون من خصـائصها ما قد يـشفى ما وصـفت لأجله. ولكن فى إمكانهم أن يسـتبـدلوا بها عـقـاقيـر أخرى لهـا نفس تلك الصفات. ولا يبعد عليهم معرفـتها أو التنقيب عنها فى كتب الطب القديمة، لأن بعض النساء يتوكأن على أن الخمر داء، فيتعـاطينه لذاته، ويزعمن أنه للشفاء. وقد تترك فيهن الكأس الأولى، وهى دواء، ما يجعلهن يعدن الكرة فى غير ألم.

أما الضـرر الصحى من التبغ والخـمر فلا يقل عن مثـله الاجتماعى. فـقد أوضح الأطباء مفعوله وبينوا مقدار (النيكوتين) السـام فى كل لفافة (سيجارة)، وكيف أنه يضر الصدر والعيون ويفسد الشهية للطعـام. أما الخمر فكفى أنها تقطع الكبد وتفسد العقل. وفى تقرير كـتبه مـدير مستـشفى المجاذيب أن أكـثر من نصف ضيـوفه اللطاف أذهبت عقولهن المغيبات!

إن أثقل وقت تقضيـه السيدة التى لا تدخن هو الذى تجتمع فـيه بأخريات يدخن، فيرسلن سحب دخانهن فتستعير ويسـد عليها الدخان منافسها. ولعل الله بفضله وكرمه يسمعنا عن حـريق آخر فى مخازن الخمور كـما أحرق مخازن التبغ، فتـجد المتوسطات والفقيرات من غلاء أسعارهما ما يمنعهن من تعاطيهما، ويكون عزاؤنا الوحيد لأصحاب الخسائر بيت المتنبى:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد

جمال السيدات

والرياضة البدنية

٢٤

كثيراً ما يكون ضعف البنية من مشوهات الجمال. وإن لجودة الصحة لدخلاً لا يستهان به فى تحسين تقاسيم الوجه وتناسب الأعضاء. ولا تقوم تلك الجودةعلى حسن الغذاء فقط، كما يتوهم أغلب النساء، بل لها أساسات أخرى، أهمها الرياضة وخلو الفكر من الهم. والناظر لحالة نسائنا يدرك لأول وهلة احتياجهن الشديد إلى الرياضة البدنية، فإن فقر الدم المستحوذ على كثيرات منهن، والسمن المفرط المسببين عن طول مدة الجلوس، ليشهدان أن تلك الوجوه المصفرة لم ترها الشمس، وأن تلك الأجسام الضخمة لم تهذبها الحركة. ولو اقتصر الأمر على تشويه الجمال، وما ذلك بالهين على النساء، لما كان الخطب كما هو الآن جللاً. إن طول المكث فى محل واحد وعدم تنوع المعيشة عندنا يذهبان بطلاوة الجديد ويجلبان الأمراض المختلفة والسأم، كالماء الراكد إن لم يتغير أسن.

للرياضة أنواع شتى تستعملها النساء الغربيات، ولست أشير على نسائنا باقتباسها بأنواعها فقد لا تلائم مجتمعنا، فمنها الألعاب المختلفة والركض والسباحة وركوب الخيل وأقلها كلفة وأكثرها ملاءمة للشرقيات المشى. فهل ترانا نقوم به، وهو لا يكلفنا درهماً، وليس هو مما قد نعده من علائم الطيش الإفرنجى، أو مما يذهب برزانة الشرقيين ووقارهم الطبيعيين؟؟

إن عيشتنا كلها جلوس فى جلوس. نظل أسرى البيوت الضيقة، ويمنعنا زهونا عن أن نشتغل بشىء فيها، فتجمد عضلاتنا عن الحركة. وإذا طلبنا فكاكاً من هذا الأسر الممل فلا نجد سوى بيوت الجارات نزورها ماشيات خطوات معدودة إن كانت قريبة وإن بعدت فما أرخص العجلات وأكبرها مما تجره الخيل أو الكهرباء.

يشكو أغلب نسائنا الصداع وضيق الصدر وعسر الهضم وغيرها مما تكفى الرياضة

واجتلاء جميل المناظر لإزالته. وما الآلام العصبية و (الزار) إلا نتيجة ذلك الملل وبلادة الأعضاء. فإن المرأة المصرية لا تدرى بماذا تروح عن نفسها وتذهب سأمها ولا كيف تنوع معيشتها فتنزع إلى تلك الترهات لجهلها، ولكنها معذورة فيما أرى لأنها مضطرة، وقد يركب المضطر حد السيف.

إن آباءنا وأجدادنا كانوا أكثر منا مراعاة لترويض النساء من حيث لا يدرون، فإن المنازل القديمة كانت كلها مبنية على الطراز التركى، تحجبها أسوار عالية وداخلها الرحبات المتسعة والحدائق الغناء مما تمرح فيه نساء البيت ولا رقيب عليهن، وينعمن أنفسهن ببهيج منظر الحدائق وفوارات الماء، فمن لاذ للسمع وجميل للنظر وحلو للذوق ولطيف للمس وزكى للشم. طيور صادحة وغزلان سارحة وفاكهة جنية وزهور شهية وروائح عطرية. خضرة الزمرد وشفافية البلور فى النبات والماء، وبهاء الياقوت وأريج المسك فى الزهر والهواء، وسواق ناعرة تجلب النوم وتجعله هنياً، وبالجملة كان عيش تلك البيوت مريئاً ونساؤها كما قال شوقى بك:

يمرحن فى مأمن مثل حمام الحرم

أما اليوم فقد قضى الاقتصاد، أو بالأحرى البخل والتناهى فى تقليد الغربيين، على أصحاب البيوت أن يضيقوها. وما ضاقت إلا على النساء المظلومات فليس بها إلا الحجر. وتجد السلم مبتدئة من عتبة الدار، ووجهة البيت مكشوفة، فلا تستطيع صاحبات البيت التحرك ولا فتح النوافذ أحياناً. وهذا لعمرى آخذ بالخناق. ولعله سبب انتشار كثيرات منا فى الطرقات. ماذا يفعل الطير المحبوس فى قفص من حديد؟ إنه لا يتأخر لحظة عن الفرار إذا وجد وسيلة له.

إلا أن الشوارع والطرقات بها ما يوقر الآذان من بذاءة المماحكين وانتشارهم كالجراد، وقد يراهم رجال شرطتنا ويسمعونهم يتعدون على الآداب ويضحكون. ولو جاز أن تجعل طرق للنساء خاصة، وأخرى للرجال خاصة، لما تأخرنا عن المشى فى طريقنا، أما والطريق عامة فليس أمامنا إلا أن نتوسل إلى أولئك الطغام أن يكفوا عن مماحكتهم، وتعرضهم لنا، فيكفينا ضيق المساكن عن أن يضيقوا علينا السبيل.

إن المشى والنزهة ليكسبان علماً وتجربة، فضلاً عما يؤثران به فى الصحة وتنقية الدم وما يخلفانه من النشاط فى الأعضاء لمساعدتهما الجسم على إخراج فضلاته

المحترقة. فكم فى الطريق من مثار للرحمة ومن نافع لتعليم الأطفال. وليست الفضيلة دروساً تلقى على الآذان وتحفظ باللسان. وإنما هى فواعل تؤثر فى النفس فتكسبها صدق العزيمة على رد هجمات السوء، وتحبب إليها الحسن من الخصال. وكم فى المتنزهات من دروس صامتة لجمال الكون، وتسبيح الخالق والإيمان بما أنزله، وكم فيها من شياطين للشعر والموسيقى النفسية توحى للنفس ما توحى من جمال وحكمة.

إننا فى مصر ولكنا لا نعرفها. أرأيت أغرب من مبصر أعمى؟ إن الأهرام على قيد فلتة العيار من القاهرة، ولكن كثيرات منا لم يزرنها، والآثار تخبرنا عنها السائحات الأجنبيات فنبدى جهلاً مزرياً، ونعجب مما يقصص علينا، وتاريخنا مبعثر فى الأرض من قديم وحديث ولا من تلم به حياً من غير الكتب الجامدة الخالية من الروح. ألم يأن لنا أن نطلب الحرية قليلاً فقد طلبتها أرجلنا التى كاد يصيبها الكسح من طول الجلوس، وأعيننا لم تر من بدائع الكون شيئاً. خصصوا لنا متنزهات، إن شئتم، لا يدخلها غير النساء وخليق بالمحافظين والمديرين أن يجيبوا هذا الطلب كل فى مديريته. ووفروا قليلاً مما تصرفونه على الزخارف الكاذبة لبناء أو استئجار بيوت فسيحة الأفنية ليتروض فيها نساؤكم وأطفالكم بالمشى ليس إلا. أما نصيحتى للسيدات فهى أن يتركن الزيارات جانباً وينزهن أنفسهن فى الخلوات القريبة مع آبائهن أو بعولتهن، ليستفدن صحة وعلماً وجمالاً.

خطبة فى نادى حزب الأمة

وبحضور مئات من السيدات

أيتها السيدات:

أحييكن تحية أخت شاعرة بما تشعرن. يؤلمها ما يؤلم مجموعكن، وتجذل بما به تجذلن. وأحيى فيكن كرم النفس لتفضلكن بتلبية الدعوة لسماع خطبتى، إن أطلب بها إلا الإصلاح ما استطعت فإن أصبت؛ كان ما أرجو، وإن أخطأت فما أنا إلا واحدة منكن. والإنسان يخطئ ويصيب، فمن رأت فى خطبتى رأياً مخالفاً لما تعتقد أو أحبت

المناقشة فى نقطة فلتتفضل بإبداء ما يعن لها بعد انتهاء كلامى.

أيتهـا السيدات: ليس اجتـماعنا اليوم لمجـرد التعارف، أو لعرض مـختلف الأزياء ومستـحسن الزينات، وإنما هو اجتماع جدى أقـصد به تقرير رأى لنتبعـه، ولأبحث فيه عن عيوبنا فنصلحها. فقد عمت الشكوى منا، وكثرت كذلك شكوانا من الرجال. فأى الفريقين محق فـى دعواه؟ وهل نكتفى من الإصلاح بمجرد التـذمر والشكوى؟ لا أظن مريضـاً طاوع أنينه فشفـاه. ويقول المثل العـربى: لا دخان بلا نار. ويقول الفـيلسوف الإنكليـزى هربرت سبنسـر: إن الآراء التى يظهـر لنا أنهـا خطأ لا يمكن أن تكون خطأ محـضاً، بل لابد أن يكون فـيهـا نصيب من الصـحة والصواب. إذن، نـحن والرجال متساوون فى صحة الدعـاوى وبطلانها. كلنا متظلمون، وكلنا على حق مما نقول. بيننا وبين الرجال الآن شبه خصومة، وما سببها إلا قلة الوفاق بيننا وبينهم. فهم يعزون هذه الحـالة إلى نقص فى تربيـتنا وعـوج فى طريقة تـعليمنا. ونـحن نعزوها لغـطرستـهم وكبريائهـم. وهذا الاختلاف فى إلقاء المسئـولية زادنا اختلافـاً فى العيش، وأوسع هوة الجفاء بين الرجال والنساء فى مصر، وهو أمر لا ننظر فيه بعين الارتياح، وإنما نأسف له ونتوجس منه. لم يخلق الله الرجل والمرأة ليـباغضا ويتنافرا، وإنما خلقهـما الله ليسكن أحدهما إلى الآخر فـيعمر الكون إذ فى ائتلافهما بقـاؤه. ولو انفرد الرجل فى بقعة من الأرض وانعزلت النساء إلى أخرى لانقرض الحزبان وحقت عليهما كلمة الفناء.

تدركن معنى قولى هذا من صعوبة الرد على هذا السؤال: أى الجنسين أصلح للبقاء فى الدنيـا: النساء أم الرجـال؟ فإذا أجابـت إحداكن: الرجال؛ لأنـهم يقومـون بشاق الأعمـال من بناء واختـراع وزرع وغيـره، عارضـتها بقـولى ولأجل من نتجـشم تلك الصعـاب ولا نساء يتـسلسل منهن النسل لعـمار هذا الكون؟ وإذا قلنا: النسـاء؛ لأنهن مدبرات البـيوت وأمهات النشء. لقلت: ومن أين يأتى النشء ولا أب لـه؟ هذا قياس على نظام الطبيعة الحالى. ولن نتوسع فى الافتـراضات والمتوهمات، فقد كان الله قادراً على خلق نظام آخر للتوالد، وهو قادر على خـلق مثله، ولكنا للآن لم نسمع إلا بمثال واحد لهذا الشـذوذ هو مثال سيدنا عـيسى عليه السلام. فالمرأة والرجل للكون كـالخبز والماء للجسم أو الشـمس والماء للزرع. ولو استعاضت إحـدانا باللبن عن الماء فإن اللبن بالتحليـل يحتوى الماء. فـالكتب السماوية كلهـا مجمـعة على أن أصل البـشر من آدم

وحـواء. والقـائلون بـرأى دارون لم ينكروا ضـرورة لزوم الذكـر والأنثـى للتـوالد من الحيوانات الأولى التى زعموا أنها ارتقت بالتـدرج إلى مصاف الإنسان. كذلك الحال فى كل جسم حى نام. فـإن النباتات كلها فيـها الذكورة والأنوثة، والزهرة، على لطافـتها وصغـر حجمهـا، تحتوى شكلين مـختلفين من العروق أحـدهما لقاح للآخـر. كذلك جعـلهمـا الله لينتج منهمـا الحب الذى فـيه بقـاء النوع وسلط عليه الريح تسـفيـه إلى الأرض، فإذا ما جاده الغيث أو لقى رياً نبت ونما وصـار شجراً. فنظام التوالد مطرد فى كل الأجسـام الحية من حيـوانات ونباتات، لا شك فيه البـتة. وإذا راجعنا إحصـائيات العالم كله وجـدنا أن عدد الذكور والإناث فيـه يكاد يكون واحداً أو يفرق قليـلاً جداً. وهذا دليل على أن الله خلق رجلاً لكل امرأة. هذا بقطع النظر عن الحروب وغيرها، مما قد يخل بهـذا التوازن الطبـيعى الدقيق. إذن، فـمحاولة الاعـتزال بين الرجـال والنساء مستـحيلة، وعليه فلا فـائدة من هذه الغارات القلمية الشـعواء بيننا وبينهم. والأوفق أن نسعى للوفاق جـهدنا، ونزيل سوء التفاهـم والتحزب، لنحل بدلهما الثـقة والإنصاف، ولنبحث أولاً فى نقط الخلاف.

يقولون إننا بتعلمنا نزاحمهم فى أشغالهم، ونترك أعمالنا التى خلقنا الله لها، فليت شعـرى ألم يكونوا هم البادئين بمزاحـمتنا؟ كـانت المرأة فى العهـد السابق تغـزل الخيط وتنسج ثياباً لها ولأولادها، فاختـرعوا آلة الغزل فأبطلوا عملهـا من هذا القبيل. وكانت المرأة المتقدمة تغربل القمح وتهرسه وتطحنه على الرحا بيديها، ثم تنخله وتعجنه، فتهيئ منه خبزاً، فاستنبطوا ما سمونه (الطابونة)، واستـخدموا فيها الرجال، فأراحونا من ذلك العمل الكثيـر ولكنهم عطلوا لنا عملاً ، وكانت كل امـرأة من السالفات تخيط لنفـسها ولأفراد بيـتهـا، فابتكروا لنا آلة للخـياطة، يشـتغل فى استـخراج حـديدها وصناعتـها الرجـال، ثم جعلوا منهم خـياطين يخـيطون لرجـالنا وأولادنا. وكنا نكنس حجـرنا أو تكنسـها الخادمـات بمكانس من القش، فاسـتنبطوا آلة الكنس، التى يكفى أن يلاحـظها خادم صغير فتنظف الرياش والأثاث. وكانت الفـقيرات والخادمات يجلبن الماء لبيوتهن، أو لبيوت سادتهن، فاخترع الرجال القصب (المواسير) والحنفيات، تجلب الماء بلا تعب. فهل ترى عاقلة الماء يجرى عند جارتها فى أعلى طبـقات منزلها وأسفله، وتذهب لتملأ من النهر، وقد يكون بعيداً؟؟ أو هل يعقل أن متمدينة ترى خبز (الطابونة) نظيفاً طرياً لا

تتكلف له سوى ثمنه، تتركه لتغربل وتعجن، وقد تكون ضعيفة البنية لا تتحمل تعب تجهيز القمح وعجنه أو فقيرة لا تستطيع تأجير خدم له أو وحيدة لا مساعدة لها عليه. أظن الرجال لو كانوا محلنا لما فعلوا سوى ما فعلناه، وما من امرأة تقوم بهذه الأعمال كلها إلا القرويات اللاتى لم يدخل قراهن التمدين. بل إنهن يستعضن عن الرحا بوابور الطحين، وبعضهن عن الملء من البحر (بطلومبات) يضعنها داخل دورهن.

ولست أريد من قولى هذا أن أذم الاختراعات المفيدة التى اخترعها الرجال كثيراً من أعمالنا، أو أقول إنها زائدة عن حاجتنا، وإنما كان هذا الشرح ضرورياً لبيان أن الرجال هم البادئون بالمزاحمة، فإذا ما زاحمناهم اليوم فى بعض أشغالهم فإن الجزاء الحق من جنس العمل.

على أن مسألة المزاحمة هذه ترجع للحرية الشخصية. فزيد راقه أن يكون طبيباً. وعمرو رأى أن يكون تاجراً. فهل يصح أن نذهب للطبيب ونقول له لا تحترف هذه الصناعة بل كن تاجراً؟ وهل يمكننا أن نجبر التاجر على أن يصير طبيباً؟ كلا، فكل له حريته يفعل ما يشاء ولا ضرر ولا ضرار. وهل يجوز أن يمنع مهندس قديم من يحترفون هذه المهنة لأنه كان يكتسب ربح بلد بأكمله، فجاءه هؤلاء المهندسون الجدد يقتسمون أرباحه؟ على أن ذلك لو جاز قوة لما صح أن يجوز شرعاً وحرية، ولما قامت من أجله الشحناء بين الرئيس روزفلت وشركات الاحتكار، فإذا كان المخترعون والصناع أبطلوا جزءاً كبيراً من أعمالنا فهل نقتل الوقت فى الكسل أم نبحث عن عمل يشغلنا؟ لا غرو وأننا نفعل الثانى.

ولما كانت أشغال منزلنا قليلة، لا تشغل أكثر من نصف النهار، فقد تحتم أن نشغل النصف الآخر بما تميل له نفوسنا من طلب العلم، وهو ما يريد أن يمنعنا عنه الرجال بحجة أننا نشاركهم فى أعمالهم. لا أريد بقولى هذا أن أحث السيدات على ترك الاشتغال بتدبير المنازل وتربية الأولاد إلى الانصراف لتعلم المحاماة والقضاء وإدارة القاطرات! كلا ولكن إذا وجدت منا من تريد الاشتغال بإحدى هذه المهن فإن الحرية الشخصية تقضى بأن لا يعارضها المعارضون. قد يقولون إن الحمل والولادة مما يجبرنا على ترك الشغل، وقد يجعلون ذلك حجة علينا. ولكن من النساء من لم تتزوج قط، ومنهن العقيمات اللاتى لا ينتابهن حمل ولا ولادة. ومنهن من مات زوجها أو طلقها

ولم تجد عائلاً يقوم بأولادها، ومنهن من يحتاج زوجها لمعونتها. وقد لا يليق بهؤلاء أن يحترفن الحرف الدنيئة، بل ربما يملن إلى أن يكن معلمات أو طبيبات حائزات لما يحوزه الرجال من الشهادات. فهل من العدل أن يمنع مثل هؤلاء من القيام بما يرينه صالحاً لأنفسهن قائماً بمعاشهن؟؟ على أن الحمل والولادة إذا كانا معطلين لنا عن العمل الخارجي فهما معطلان لنا عن الأعمال البيتية أيضاً. وأى رجل قوى لم يمرض ولم ينقطع عن عمله وقتاً ما؟

يقول الرجال ويجزمون إنكن خلقتن للبيت، ونحن خلقنا لجلب المعاش، فليت شعرى أى فرمان صدر بذلك من عند الله، ومن أين لهم معرفة ذلك والجزم به ولم يصدر به كتاب؟ نعم إن الاقتصاد السياسى ليأمر بتوزيع الأعمال، ولكن اشتغال بعضنا بالعلوم لا يخل بذلك التوزيع. وما أظن أصل تقسيم العمل بين الرجال والنساء إلا اختيارياً. بمعنى أن آدم لو كان اختار الطبخ والغسل، وحواء السعى وراء القوت لكان ذلك نظاماً متبعاً الآن، ولما أمكن أن يحاجنا الرجال بأنا خلقنا لأعمال البيت فقط. وها نحن أولاء لا نزال نرى بعض الأقوام، كالبرابرة مثلاً، يخيط رجالهم الثياب لأنفسهم ولأفراد بيتهم ويتجشم نساؤهم مشقة الزرع والقلع حتى أنهن ليتسلقن النخل لجنى ثمارها. وها نحن نرى نساء الفلاحين والصعايدة يساعدن الرجال فى حرث الأرض وزرعها وبعضهن يقمن بأكثر أشغال الفلاحة كالتسميد والدراس وحمل المحاصيل ودق السنابل والبراعم (الكيزان) وسوق المواشى ورفع المياه بما يسمونه بالقطوة، وغير ذلك من الأعمال التى ربماشاهدها منكن من ذهبت إلى الضياع (العزب) ورأت أنهن يقدرن عليه تمام القدرة كأشد الرجال، ونرى مع ذلك أولادهن أشداء أصحاء.

فمسألة اختصاص كل فريق بشغل مسألة اصطلاحية لا إجبار فيها. وما ضعفنا الآن عن مزاولة الأعمال الشاقة إلا نتيجة قلة الممارسة لتلك الأعمال. وإلا فإن المرأة الأولى كانت تضارع الرجل شدة وبأساً. أليست المرأة القروية كأختها المدنية؟ فلماذا تفوق الأولى الثانية فى الصحة والقوة؟ هل ترتبن فى أن المرأة من المنوفية تصرع أعظم رجل من رجال الغورية لو صارعته؟ فإذا قال لنا الرجال إننا خلقنا ضعيفات. قلنا لا. وإنما أنتم أضعفتمونا بالمنهج الذى اخترتم أن نسير فيه. حدثتنى سيدة عالمة أنها فى سياحتها بأمريكا رأت بعينها هنودها الحمر تتحرك آذانهم من تلقاء نفسها تجاه الصوت الذى

يترقبونه كآذان الخيل والحمير. ذلك نتيجة استعمالهم لها، وقد توارثوه أيضاً وهم فى حاجة إليه لتسمع زئير السباع وعواء الوحوش التى ربما تهاجمهم فى فلواتهم. كذلك نجد حواس الوحشيين أقوى من حواسنا بكثير. فهم يشمون رائحة الوحوش من بعيد أما نحن فلا. ولم يكذب من قال إن الوظيفة تكون العضو. هؤلاء العميان يعتمدون كثيراً على حاسة السمع، فتقوى فيهم بالتدريج تلك الحاسة إلى أن تبلغ غاية قد تعد من الخوارق عندنا. فهل بعد أن استعبدنا الرجال قروناً طوالاً حتى خيم على عقولنا الصدأ وعلى أجسامنا الضعف يصح أن يتهمونا بأنا خلقنا أضعف منهم أجساماً وعقولاً؟ إنهم لو أنصفوا ولم يتحزبوا، لما عيرونا بأننا قليلات النبوغ وأنه لم يسمع بإحدانا غيرت قاعدة فى الحساب والهندسة مثلاً. وليتفضل أحدهم بإخبارنا عما استنبطه من تلك القواعد. أو ليست قواعد الحساب هى بعينها من زمن اليونان الأول إلى الآن. ونظريات الهندسة لم تزل تلك التى كان يعرفها قدماء المصريين والرومان؟ نحن نعترف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم أعمالهم، ولكنى لو كنت ركبت المركب مع خريستوف كولمب لما تعذر على أنا أيضاً أن أكتشف أمريكا. وحقيقة أن النساء لم يخترعن اختراعات عظيمة. ولكن كان منهن النابغات فى العلوم والسياسة والفنون الجميلة، أى فيما سمح لهن بممارسته. وبعضهن فقن الرجال فى الفروسية والشجاعة، كخولة بنت الأزور الكندى، فقد عجب منها عمر بن الخطاب وأعجب باستقتالها فى فتوح الشام حينما أرادت تخليص أخيها من أسر الروم. وجان دارك التى قادت جيش الفرنسيس، بعد هزيمته أمام الإنكليز، فشجعتهم على استمرار القتال وأصلت محاربى وطنها حرباً عواناً. ولن أضرب مثلاً بالنساء اللاتى تولين الملك فأحسن سياسته، ككاترينا ملكة الروسيا، وإيزابيلا ملكة إسبانيا، وإليزابيث ملكة إنكلترا، وكليوباتره، وشجرة الدر امرأة الملك الصالح، وأم طوران شاه التى حكمت مصر. فقد يقول معارضونا إنه دبره لهن الوزراء وهم رجال!! على أنه لو صح هذا القول فى عهد الدستوريين، كالملكة فيكتوريا مثلاً أو وولهمينا ملكة هولانده الحالية، فلا يصح تطبيقه على أيام الحكم المطلق.

إننا الآن فى ابتداء القيام بتعليم البنات. فقول بعضهم بالاقتصار على هذا وذاك مثبط للهمة ورجوع للوراء. فى حين أنه لا خوف من مزاحمتنا لهم الآن، لأننا لا نزال

فى الدور الأول من التعليم، ولا تزال عاداتنا الشرقية تثنينا عن الاستمرار على الدرس الكثير. فليهنأوا بوظائفهم، وما داموا يرون مقاعد مدرسة الحقوق والمهندسخانة والطب والجامعة خالية منا فليقروا عيونا ولينعموا بالأمان، فما يتخوفون منه بعيد. وإذا فرض أن اشتاقت إحدانا لتكملة معلوماتها فى إحدى تلك المدارس، فأنا واثقة أنها لن تقلد وظيفة أو تشتغل خارجاً، وإنما تفعله لإطفاء شوق النفس للعلم أو الشهرة ولما تفعله. فإذا كنا لم نشتغل بالمحاماة ولا بتقلد الوظائف الحكومية أفلا تشغلنا عن تربية النشء إلا قراءة كتاب أو خط جواب؟ أظن ذلك مستحيلاً. على أن الأم مهما تعلمت وبأى حرفة اشتغلت فلن ينسيها ذلك أطفالها، أو يفقدها عاطفة الشفقة والأمومة، بل بالعكس إنها كلما تنورت أدركت مسؤوليتها. ألم ترين الفلاحات والجاهلات يظل يبكى طفل الواحدة منهن ساعات وهى تسمعه ولا تتحرك؟؟ فهل يا ترى كان شغل هؤلاء أيضاً تحضير القضايا أو الاشتغال بالتحرير والقراءة؟

ولا يغيظنى أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا. إننا لسنا محلاً لإشفاقهم، وإنما نحن أهل لاحترامهم، فليستبدلوا هذا بذاك، والإشفاق لا يتأتى إلا من سليم لعليل أو من جليل لحقير، فأى الصنفين يعتبروننا؟ تالله إنا لنأنف أن نكون أحد هذين.

قال قائلهم لا تعلموا البنات من الحساب إلا القواعد الأربع لأنهن لن يحتجن إلى أكثر منها. فمن أين له أننا نودع نقودنا فى مصرف، أو نبيع وثيقة (كمبيالة)، أو يغالطنا وكيل فى قياس قطعة أرض؟ إنه إذا ادعى بذلك تفضيل الرجال على النساء فى علم التكهن والرجم بالغيب أيضاً قلنا لم تصح هذه الفراسة فقد أظهر الواقع غير ذلك. أما ما يذهب إليه من تفضيل لغة على لغة فى التعلم، فذلك ما لا أفهمه لأنى أعتبر اللغات كلها نافعة. ولو وجدت من يعلمنى البربرية أو الصينية لتعلمتها. إذا كان لآداب اللغة فإن الفارسية والألمانية والإنكليزية وغيرها ملأى بذلك، أما تعليم تدبير المنزل وتربية الأطفال فيجب أن نشكر للدكتور عبد العزيز نظمى بك اهتمامه بهما وحثه عليهما.

أيتها السيدات: العلم منور للعقل على أى حال سواء عمل به أو لم يعمل. فماذا يضرنا أننا لا نشتغل بمسح الكرة الأرضية ولا بالسباحة ولكن نعلم مواقع البلاد وأبعادها؟ إن الطبيب يتعلم الجبر فى تلمذته ولكنه لا يشتغل به فى صناعته. كلنا نسمع

بأخبار السياسة والرجال يشتغلون بها. ولكنهم لا يجدثون أنفسهم بأن يولوا مكان ذلك الملك المقتول أو السلطان المعزول. فهل نقول لهم إذا كنتم لن تتملكوا فى تلك الأمم فلا يجوز لكم أن تعرفوا سياستها وأخبارها؟ نسمع فى هذه الأيام أن جيش الدستور فى تركيا زحف من سلانيك إلى الآستانة، وأن حصن اسكودار تأخر فى التسليم. ألا يحسن بنا أن نعرف من (الجغرافيا) ما يهيئنا لفهم تلك الأخبار بعدما لاكتها أفواه الكبار والصغار. لو لم يكن للعلم لذة فى ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك، وهم واثقون أنهم لن يكونوا مهندسين ولا بحارة ولا سائقى قاطرات. وهل تفضل السيدة التى تعرف أن تطبخ البطاطس وتنسق الأزهار فقط، أم التى تعرفهما أيضاً ولكنها تعلم متى يؤكل البطاطس، وهل يوافق زوجها المريض بالسكر، أو جسمها السمين الذى تريد تضميره؟ وهل وجود أصص (قصارى) الزرع فى حجرتها ليلاً صالح لرئتيها الضعيفتين أم مضر بهما؟ فهذه تعرف تدبير المنزل وتلك تعرفه، ولكن تعلم واحدة علم النبات تحفظ لها صحتها وصحة عيالها من التلف، فضلاً عما تشعر به من السرور الناشئ عن العلم. نحن نعلم أن نقص تربيتنا الأولى وتربية أخواننا الشبان لا شك نتيجة جهل أمهاتنا. فهل نعرف الداء ولا نداويه، وقد قال الحديث الشريف لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؟؟ إن المدارس مهما اجتهدت فى تثقيف عقول النشء وتهذيبها فإن المنزل له تأثير خاص فى الأطفال. وإذا شعر تلميذ أن أمه عالة، أو لها نصيب من علم، فإنه يسعى جهده ليريها أنه أهل لحبها وتقديرها إياه، فيجتهد ليحفظ سلسلة العلم لتكون الصلة شديدة بينه وبينها. فتعلمنا الحالى ناقص يجب أن يزاد عليه لا أن ينقص منه.

أما ما أشكل على الرجال من علة فسادنا فهو ما ينسبونه خطأ للتعلم وحقهم أن ينسبوه للتربية. يرى كثيرون أن العلم يهذب، ولكنى لا أعتقد ذلك، بل أصرح أن العلم والتربية منفصلان تمام الانفصال إلا فى علوم الدين فقط. ودليلى على ذلك أن كثيرين من المبرزين والمبرزات فى العلوم لاخلاق لهم، وأن الكتاب الواحد قد يدرسه معلمان مختلفان فى فرقتين كل على حدة فتتعلم الفرقتان الكتاب ولكن نجد أثر الهمة وعلو النفس فى واحدة ولا نراه فى الثانية. فهذا ناشىء من تأثير روح المعلم فى تلاميذه، لا من العلم. وإلا فلو كان من العلم لتساوت الفرقتان، لأن الكتاب واحد والعلم لا يختلف. يظن بعض الناس أن حسن التربية معناه تقبيل أيدى الزائرات

وتكتيف اليدين خضوعاً. ولكن ما أبعد هذا عن الحقيقة. التربية الحسنة هى التى تؤهل الشخص لأن يدرك نفسه من سواه. وما أحزم من قال: ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه. التربية الحسنة هى التى تعود الإنسان من صغره احترام الغير، إذا استحق الاحترام، حتى ولو كان عدواً. فالتعليم لم يفسد أخلاق الفتيات، وإنما هى التربية الناقصة. تلك التربية فى الحقيقة يجب أن تكون من أعمال البيت لا المدرسة. ولما كانت بيوتنا لم تبلغ الدرجة التى تؤهلها لإحسان تربية الأطفال فقد وجب علينا أن نضاعف مجهوداتنا لإصلاح شأن أنفسنا ثم إصلاح النشء. ولا يتم ذلك فى لحظة كما قد يتوهم. ومن الظلم أن نلقى مسئولية الفساد كلها على المدارس، فإن المدارس لها تأثير فى التربية، ولكن ليس عليها كل الذنب، بل العيب فى الأسر.

من عيوبنا نحن النساء إننا لا نكترث كثيراً بالنصح. فإذا قامت سيدة تريد تقرير مبدأ أو إظهار حقيقة قال أكثرنا مالها ولهذا، أو إن كانت تغار فلتعمل مثلنا، ومن غير ذلك من الألفاظ!!

ومن عيوبنا السخرية والتهكم. فكثير منا تنتقد من تصادفه وتعيب عليه، لا عيباً حقيقياً يستدعى الانتقاد، ولكن لولوع بالانتقاد فى ذاته. فربما انتقدت فى ساعة واحدة اثنين على خصلتين متضادتين. ولا يمكن أن يكون الشيء ونقيضه منتقداً. فإذا رأت امرأة سمينة قالت إنها (كالبرميل) وكيف تستطيع الحركة؟ وإن أبصرت بأخرى رفيعة قالت إنها كعود الحديد تكسر يدها على ساقيها؟ وإذا وجدت سيدة قليلة الكلام قالت إنها متكبرة. وإن سمعت أخرى تتكلم كثيراً عابت عليها وقالت إنها تتصنع الخفة!!

ومن عيوبنا الصلف والاغترار. كنت وأنا طفلة أحفظ قصيدة سمعتها، ولكنى كنت أخلط فيها وألحن كثيراً غير عالمة بالطبع ما كنت واقعة فيه من الخطأ. وكانت زميلاتى الصغيرات لا يعرفن القصائد، ولم يسمعن بها، فكنت إذا قلتها أمامهن عددنها غريبة عليهن ووسمننى بالذكاء! فما لبثت أن اغتررت بقصيدتى، وصرت أفخر بها، حتى إذا ألقيتها ذات يوم أمام والدى أرانى خطئى، وبين لى أنها كانت مجموعة نتف من هنا ومن هناك، لا ارتباط لأجزائها ولا قافية لها، وأعطانى كتاباً فيه شعر. فأدهشنى أكثر لأننى كنت أحسب أن لا شعر فى الدنيا إلا تلك النتف التى كنت استظهرتها. فلو كان تركنى ولم يبين لى خطئى فربما كنت استرسلت فى الغرور. والإنسان مهما بلغ من

العلم لا يزال يقبل الزيادة فيه، ومهما كبر فيما يعرف فإنه لا يزال طفلاً إزاء ما يجهل كالبحر تستعظم منه ما رأيت وما لم تره أعظم. وكيف أصلح خطئى إذا كنت لا أشعر به ولا أقبل نصيحة من يراه؟

يشكو الرجال من تبرجنا فى الطرقات، وحق لهم لأننا خرجنا فيه عن المألوف والجائز. نحن نزعم أننا نحتجب ولكنا ما بلغنا حجاباً ولا بلغنا سفوراً. لا أريد أن نرجع لحجاب جداتنا، ذلك الذى يصح أن يسمى وأداً لا حجاباً، فقد كانت السيدة تقضى عمرها بين حوائط منزلها لا تسير فى الطريق إلا وهى محمولة على الأعناق. ولا أريد سفور الأوربيات واختلاطهن بالرجال فإنه مضر بنا. إن نصف إزارنا السفلى اليوم مرط (جونيلة) لا يتفق مع كلمة حجاب، ولا مع معناها، ولا مع الحكمة منه. أما نصفه العلوى فهو كالعمر كلما تقدم قصر. كان الحجاب الأول قطعة واحدة تلتف بها المرأة فلا يظهر من هيئتها شىء. ثم طرأ عليه تكمش بسيط ولكنه كان واسعاً يكفى لستر الجسم. ثم تفننا فيه فصرنا نضيق وسطه ونقصر رأسه. وأخيراً فصل له كمان وصار يلتصق بالظهور ولا يلبس إلا مع المشد، ويربط من أطرافه إلى الوراء، حتى تظهر منه الآذان ونصف الرأس أو أكثره فتبين الورود والرياحين والأشرطة المزين بها الرأس. أما البرقع فأشف من قلب الطفل. ما الغرض من الإزار؟ الغرض منه ستر الجسم والملابس، والزينة اجتناب الزينة التى نهى الله عنها. فهل يتفق هذا المئزر الحالى وقد أصبح (فستاناً) يظهر النهدين والخصر والأعجاز، فضلاً عن أن بعض السيدات ابتدأن يلبسنه أزرق وبنياً وأحمر؟ الأولى أن لا نسميه مئزراً بل (فستاناً بطرطور) فإنه فى الحقيقة كذلك. وعندى أن الخروج بدونه أدل على الحشمة لأنه على الأقل لا يسترعى النظر. على أن مسألة الحجاب قد اختلف فيها الأئمة فإذا كان تفنن بعضنا هذا يراد به الاحتيال على الخروج بلا إزار فليس عليهن فيه من حرج إذا كشفن وجوههن بشرط ستر الشعر والجسم. وأرى أن أوفق لباس للخارج هو تغطية الرأس بخمار وسدل رداء أشبه (بالبالطو)، المسمى (cache poussiere) عند الفرنجة، على الجسم إلى الكعب، ويكون طويل الكمين إلى المعصمين. وهذا اللباس مستعمل فى الآستانة، كما روت لى إحدى السيدات، للخروج إلى المحلات القريبة. ولكن من يضمن لنا أننا لا نقصره ونضيقه حتى نمسخه (فستاناً) آخر؟ وحينئذ تضيق بنا حيل الإصلاح.

لو أننا متربيات من صغرنا على السفور، ولو أن رجالنا مستعدون له، لأقررت بالسفور لمن تهواه. ولكن مجموع الأمة غير مستعد له للآن. وإن كان بعض نسائنا العاقلات لا يخشى من اختلاطهن بالرجال، إلا أننا يجب أن نتحفظ على غيرالعاقلات أيضاً، لأننا سرعان ما نقلد وقل أن نبحث عن حقيقتنا فيه. ألا ترين أن تيجان الماس أصلها للملكات والأميرات فأصبحت الآن يلبسها المغنيات والراقصات؟ ولعل الشعراء يعدلون عن كنايتهم الملكات بيارية التاج فقد أصبحت تلك الكناية شاملة لسواهن!!

على أن تفنننا فى هذا المئزر الحالى هو فى ذاته تقليد للأوروبيات. ولكنا فقناهن فى التبرج؛ فإن المرأة منهن تلبس أبسط ما عندها عندما تكون فى الطريق، وتلبس ما شاءت فى البيت أو فى السهرات. ولكنهن بخلاف ذلك يظللن أمام أزواجهن بجلباب بسيط جداً، ثم إذا خرجت إحداهن عمدت إلى أحسن ثيابها فلبسته، وأثقلت نفسها بالمصوغات وأفرغت عليها زجاجات العطر والطيب. وياليتها تقتصر على ذلك، بل تجعل من وجهها حائطاً تنقشه بالدهان وتصبغه بمختلف الألوان وتتكسر فى مشيتها كأنها الخيزران. فتفتن المارة، أو على الأقل يتظاهرون لها بأنها تفتنهم. إنى واثقة أن أغلب هؤلاء المتبرجات يفعلن ما يفعلن وهن خاليات الذهن من سوء القصد. ولكن من أين للرائى أن يتبين حسن نيتهن ومظهرهن لا يدل عليه؟

حجابنا يجب أن لا يحرمنا من استنشاق الهواء النقى، ولا من شراء ما يلزمنا إذا لم يقدر آخر على شرائه لنا. . ويجب أن لا يمنعنا عن تلقى العلم، ولا أن يكون مساعداً على فساد صحتنا أو سبباً فى تلفها. فإذا لم أجد فى بيتى حديقة واسعة أو رحبة طلقة الهواء وكنت فرغت من العمل وأحسست من نفسى بملل أو كسل فلم لا آخذ نصيبى من هواء الضواحى المنعش الذى خلقه الله للكل ولم يحبسه فى صناديق مكتوب عليها «خصوصى للرجال» وإنما يجب أن نختار الاعتدال وأن لا نخرج للنزهة وحدنا اجتناباً للقيل والقال وألا نمشى الهوينا وألا نلتفت يمنة ويسرة. وإذا لم يكن أبى أو زوجى يحسن اختيار ما أشتهيه من الملابس، غير الموجود لها عينة ولا يمكنه جلبها للمنزل، فلم لا يأخذنى معه لاختيار ما يلزمنى أو يدعنى أشترى ما أريد؟ وإذا لم أجد من يحسن تعليمى إلا رجلاً فهل اختار الجهل أم السفور أمام ذلك الرجل مع أخواتى من المتعلمات؟ على أنه ليس هناك ما

يجبرنى على السفور، بل إنه يمكننى التقنع والاستفادة منه وهل نحن فى إسلامنا أعرق أصلاً من السيدة نفيسة، والسيدة سكينة رضى الله عنهما، وقد كانتا تجتمعان بالعلماء والشعراء؟ وإذا اضطرنى المرض لاستشارة طبيب، لا يمكن لإحدى النساء القيام بعمله، فهل أترك نفسى والمرض وقد يكون خفيفاً فيعضل بالإهمال، أم أستشفيه فيشفينى؟

إن حبس المصرية السالفة تفريط. وحرية الغربيين الآن إفراط. ولا أجد أصلح ما نقتبس منه إلا حالة المرأة التركية الحاضرة، فإنها وسط بين الطرفين، ولم تخرج عما يجيزه الإسلام، وهى مع ذلك مثال الجد والاحتشام.

بلغنى أن بعض كبرائنا (أريد كبراء الوظائف) يعلمون بناتهم الرقص الإفرنجى والتمثيل، وهما أمران أحلاهما مر، وأعدهما تطرفاً ممقوتاً واستماتة فى تقليد الغربيين، لأن العادة يجب أن لا تغير إلا إذا كانت مضرة، والأنماط الغربية لا يقيمها قوم بينهم إلا إذا رأوا ضرورتها وصلاحيتها. فأى صلاح لنا من مخاصرة الرجال والنساء ورقصهم معاً؟ أو ظهور بناتنا أمام الرائين (المتفرجين) بصدور عارية يمثلن أدوار الحب والخلاعة على (المرسح). إن ذلك مناف للدين الإسلامى، هادم للفضيلة، مدخل لضار العادات بيننا. فعلينا أن نحاربه ما استطعنا ونظهر احتقارنا لمن تفعله من المسلمات القليلات اللاتى إذا شجعناهن بسكوتنا فإنهن لا يلبثن أن يعدين الغير منه.

وعلى ذكر العادات والحجاب أذكركن بمسألة تئن منها السعادة، وتكاد تندثر فى بيوتنا. تلك هى مسألة الخطبة والزواج. يرى أكثر عقلاء الأمة أن لابد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج. وهو رأى سديد لم يكن النبى - صلى الله عليه وسلم - والصحابة يفعلون غيره. وهو متبع عند جميع الأمم بأسرها والأمة المصرية أيضاً إلا فى طبقة واحدة هى طبقة أهل المدن. إذا ائتلف العروسان عندنا فهو من محاسن الاتفاق (الصدف). وكيف يمكن الجمع بين شخصين لم ير أحدهما الآخر ولم يختبره على أن يقضيا العمر معاً؟ إن إحدانا إذا اتفق أن رأت عرضاً فى إحدى زياراتها سيدة استثقلت ريحها فإنها لا تصبر على مجالستها، فضلاً عن النظر إليها، وتسرع بالتملص منها. فكيف تصبر على مضض الحياة إذا استثقلت أيضاً بعلها، وهى لم يمكنها التصبر على ثقل الغريبة لحظة واحدة فى غير بيتها؟ يشير قوم باتباع خطة الغربيين من وجوب

معـاشرة الخطـيبين زمناً ليـتمكن كـلاهما من اسـتطلاع طبع صاحـبه. ولكنـى أصرح باسـتهجان هذه العادة وأعـتقد أنها مـبنية على وهم لا على أساس مـتين؛ إذ من نتائج معاشـرة المتشابهين الألفة ومن الألفـة الحب. وإذا أحب الإنسان شخصـاً لم ير عيوبه، ولم يمكنه فحص أخلاقه، فيتـزوج العروسان حينذاك على حب باطل وعلى غير هدى، فلا يلبثان أن يتنازعا وتذهب ريحهما. إنما الـطريقة التى أود عرضها على مسامعكن هى أن يتراءى العروسان ويتكلما بعد خطبة النسـاء المتبعة، وقبل العقد، ويجب أن لا تظهر العروس إلا مع أحد محـارمها وتكون فى أبسط لباسها. قد يعـترض على هذا الاقتراح بأن اجتـماعـاً واحداً أو اثنين أو أكـثر لا يكفى لأن يقـف الواحد على أخـلاق الآخر، ولكنها على أى حال كافية لأن يشـعر الواحد باجتذاب دم الآخر له أو لا. على أن من صدقت فراسته يمكنه تبين الأخلاق من العينين، ومن الحركات والسكنات، فيبين إن كان صاحبه متصنعاً أو طائشاً وغير ذلك. أما معرفة ماضى العروسين وبقية أحوالهما فيجب أن يسأل عنهـا المعارف والجيران والخـدم وغيرهم. وخوفاً مـن أن يتخذ الشبـان فاسدو الأخلاق تلك الطريقة ذريعة لرؤية بنات الناس من غير قصد الزواج يجب على الولى أن يتحرى سلوك الخاطب، ويتـبين الجد من كلامه، قبل السماح لـه برؤية ابنته أو موكلته. ربما تسـتصعـبن قبول هذه الـفكرة والعمل بهـا، ولكن كل شىء يخيل لنـا صعبـاً عند الابتداء فـيه، وإذا مارسناه سـهل وهان. على أننا إذا كنا نعتقـد فساد طريقـتنا القديمة، ونتألـم منها، ونحـجم عن الإقدام على مـا نراه مفـيداً لنا مقـللاً لحوادث الشـقاء فى زواجنا، فما أشبه يومنا بالأمس، وما أشد إثمنا وما أبعدنا عن قول الشاعر:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد حياة لنفسى مثل أن أتقدما

وما الفائدة من تعلمنا إذا كنا لا نستطيع تغـيير عادة مضرة، لا هى من الدين، ولا من الحكمة؟ وقـد رأينا رأى العين سعادتنا العـائلية مزعزعـة تكاد تقتلعها صـرصر تلك العادة العائلية، وما مثلنا فى ذلك إلا كـمثل رجل غرق أو أشرف على التلف فلما بصر بقطعة خشب يمكنه النجاة بالتعلق بـها أبى لئلا يكون بها مسمار فيجرح إصبـعه فابتلعته اللجة. وقد كان يمكنه النجاة لو لم يقدر الخـوف من المسمار. وما أدراه أن ظنه وتخوفه

فى محلهـما. ولماذا نأبى أن يرانا خـاطب بحجـة أننا ربما لا نعجبـه؟ أو ليست مـضرة رغبتنـا عنه أو رغبته عنا أخف بكثـير من تعاقدنا على الزواج قـبل الرؤية. والإنسان لا يفعله فى شراء دابة فكيف يفعله فى اختيار قرين؟؟

إن امتناعنا عن أن يرانا الخاطبون صرف كثير منهم إلى الأوربيات، فيتحمل أحدهم أن يتزوج من خادمة أو عاملة يعتقد أنه سيـهنأ معها على أن يقترن ببنت الباشا أو البك المخبأة فى (علبة البخت). وليعذرنى صـديقاتى الغربيات على هذا القول، فإنى لا أريد به إهانة لهن. فإنهن يعرفن قبلنا أن امرأة ذات حسب مرغوبة فى شبان قومها لا تتركهم إلى فتى من غير دينها وجنـسها. فضلاً عن أن كل بلاد لها مدنيتهـا الخاصة بها وتقرير أحوال مدنيتنا لا يقتضى أننا نعيب مدنية الآخرين، قسماً بالله لو جاء البارون رتشيلد أو المستر كارينجى إلى ابنة كاتب عندنا مرتبه أربعة جنيـهات شهرياً لما رد بغير الخيبة، فإذا لم نعمل على تدارك هذا الخلل فى مجتمعنا لا نلبث أن يحتلنا نساء الغرب أيضاً، فنقع فى احتلالين؛ احتلال الرجال، واحتلال النساء، وثانيهما شر من أولهما. لأن الأول إذا كان حصل على غـير رضانا فإن الثانى جلبناه بأيدينا والنساء شـديدات التعلق بالأقارب فلا يبعد أن تلم كل زوجة منهن أخاها وأباها وابن خالتها وصـاحبها حولها فيسدون ما بقى لرجالنا من موارد الرزق، فنخـرج وإياهم من بلدنا بخفى حنين. وإن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد.

بعض رجالنا يفـضلون عنا الأوربيات لتدبيـرهن. حقيـقة أن الفقـيرة منهن ترتدى بلباس نظيف مرتب، ويرى بـيتها على قلة أثاثه نظيفـاً مرتباً. وطعامهـا لذيذاً متنوعاً، وأولادها مؤدبين أصـحاء، ومع ذلك نفقاتهـا قليلة. نرى كل يوم نساء ضبـاط الإنكليز ماشيـات فى الطريق بلباسهن التيل الأبيض البـسيط وأولادهن لابسين القبعـات الجميلة والأحـذية البـيضـاء ومنظرهم يأخـذ باللب، لا يـقاربهم فى شـكلهم عندنا إلا أولاد (الذوات) الذين تخدمهم المربيات (الدادات) أما سائر أطفالنا فهم فى حالة يرثى لها من الإهمال. ولكن هل تدبر من تتزوج منهن مـصرياً أمر زوجها كما كـانت تفعل لو كان زوجها أوربياً؟ كلا. والحس يؤيد ما أقول. فإن أغلب رجالنا الذين تزوجوا منهن يئنون ويصرخون من تبذيرهن واتباعهن أهواءهن. فالمرأة الغربية تعتقد أنها من جنس أرقى من المصرى، فإذا تزوجته ظلت رئيسة له يعـمل بإشارتها وحسبت أنه ملزم بالإنفاق على ما

تشتهى وجلبه لها حتى ولو كان فى الصين. فهى مدبرة مع الغربى مسرفة مع المصرى. وإذن، ضاعت أفضليتها من هذا القبيل. وبعضهم يدعى أنه يفضلها لأنه يمكنها الخروج معه فى نزهه وروحاته وغدواته. ولا أظن الرجل يحب أن ترافقه زوجته وتلزمه لزوم الظل فإنه داعية للملل. على أنه لو كان هذا الرأى صحيحاً لما تأخر أكثرنا عن تنفيذه وأنا أول من تفعله. ولا أجد للمرأة الغربية التى تقبل الزواج من مصرى ما يفوقها علينا إلا أمراً واحداً، لا أرانا نحسنه لأننا لم نمارسه، ولا أريد أن نمارسه، ذلك أنها ماهرة فى اجتذاب القلوب وفى نصب الشباك للرجال. فإذا صادت بحركاتها وغنة صوتها مصرياً فليعلم أنها دربت على ذلك فى عشرين غربياً قبله. فهل يقبل، وفيه غيرة الشرقيين وأنفتهم، أن تطعمه طبيخاً، حقيقة لذيذاً، ولكنها أنضجته على نار غيره، ثم انتبذه من قبله خلق كثير؟

وبفرض أن الزوجة الشرقية الراقية نقصت قليلاً عن أختها الغربية فلماذا لا يرشدها بعلها إلى مواضع خطئها بالرفق، ويريها ما يحب وما لا يحب، لاسيما وأن أحب شىء إلى الزوجين المتحدين أن يبذل أحدهما وسعه ليرضى الآخر. فانصراف شباننا لتلقى العلوم الحديثة فى أوربا يجب أن يكون لخير البلاد لا لشرها. فكما يتعلمون لنفع أنفسهم يجب أن يقرنوا ذلك النفع بنفع مواطنيهم أيضاً. وإلا فلو اتبع كل واحد يرى عيباً فى صاحبه طريقة هؤلاء الشبان لما كان لأحد من أهل بلده خليل «ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها»؟ فواجبهم الوطنى يقضى عليهم بأن يدخلوا كل ما يرونه صالحاً فى بلادهم، مع الاستغناء عن الأجنبى على قدر الإمكان. فصانع الحرير الوطنى إذا رأى معامل أوربا وسرعتها وجب أن يشترى لبلاده الآلات اللازمة لسرعة إنجاز العمل، لا أن يدخل تلك الصناعة بعينها، ويقضى على صناعته الجميلة، فيكون قد اقتبس شكلاً وأبطل آخر. فنحن إذا اتبعنا كل شىء غربى قضينا على مدنيتنا. والأمة التى لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة. فشباننا يدعون أنهم يأتون بنساء أوربا لأنهم رأوهن أرقى من نساء مصر. إذن، يجب أن يحضروا لنا تلاميذ أوربا لأنهم أرقى من تلاميذ مصر، وعمال أوربا لأنهم أرقى من عمال مصر، لأن النظرية واحدة فماذا تكون الحال لو تم ذلك؟ وهل إذا سافرت زوجة مصرية لأوربا ورأت الأطفال هناك أجمل بشرة وأحلى منظراً من مثلهم فى مصر أيصح أن تترك أولادها، وتأتى بغيرهم من الغربيين، أم أن

تجتهـد فى تجميلهم وتقريبهم من الـشكل الذى أعجبت به؟ وإذا كانت أحط فتـاة غربية تتزوج مصرياً يتـبرأ منها أهلها، أفنرضى نحن عنها وقد شغلت مـحل أشرف فتاة منا، وصار زوجها مثالاً لغيره من الشبـان؟ أنا أول من يعجب بنشاط المرأة الغربية وإقدامها، وأول من يحترم من تستحق الاحترام منهن. ولكن يجب أن لا ينسينا احترام الغير منفعة الوطن. والمصلحة العـامة فوق الإعجاب. وإننا فى كـثير من أمورنا نسـير وفق ما يراه الرجال، فليرونا ما يحـبون وكلنا مستعدات للسير بمقتـضاه بشرط أن لا يكون ظلماً لنا ولا إجحافاً بحقوقنا.

يؤلمنى أن درجة احترام الرجال لنا ليست بالدرجة التى نحب. وإذا بحثنا وجدنا أننا نحن اللاتى وضعنا أنفسنا فى هذا الموضع غير المرضى. ذلك أن الإنسان ينزله الناس فى المنزلة التى يختـارها هو لنفسه ويسـير عليها، كـما قال زهير «ومن لم يكرم نفـسه لا يكرم» لا يكرم المرء نفـسه بأن يقـول سعـادتى وحضـرتى أو البك والباشـا فى نفـسه، كبعض الجهلاء الذين ينالون رتباً جديدة، ولكن لا يستهين بذاته فيهينها ويشعر من نفسه بالضعة فـيهينه الغير أيـضاً. فهل نضع نحن أنفسنا عادة فى المـوضع اللائق بها؟ كلا. يحكى أن أحد الخلفاء بينما كان يروض نفســه فى الطريق إذ سمع صوتاً فى خربة فاتجه نحوه فوجد فيها زبالاً يقول:

وأكرم نفسى إننى إن أهنتها ... وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فقال له: وأى إكـرام لنفسك وأنت تحمل التراب والأقـذار؟ قال: نعم. أفعل ذلك لأكفى نفسى مهانة السـؤال من مثلك. إن معتقداتنا وأفعالنا كانت سـبباً عظيماً فى قلة احترام الرجل إيانا. أيعتبر رجل عاقل امرأة تعتقد فى السحر والشعوذة وكرامة الأموات وتجعل من الـدلالات والبلانات، بل ومن الشـياطين عليـها سلطاناً؟ أيحـترم المرأة ولا حديث لها إلا (فساتين) جـارتها ومصوغات صاحبتها وجهـاز فلانة وأخبار علانة؟ هذا فضلاً عما انطبع فى ذهنه من أن المرأة أضعف منه وأقل ذكاء. إن تهاونا فى هذه النقطة اعتراف بأن حالتنا مرضية فـهل هى كذلك؟ وإذا لم تكن فماذا يرقينا فى أعين الرجال؟ يرقينا حسن التربيـة والتعليم الصحيح. فإذا حسنت تربيتنا وتعلمنا علمـاً حقاً لا قشور

بعض اللغات الأجنبية و (دورى مى فاسول) والعلم يشمل أيضاً تدبير المنزل والصحة والأطفال. وإذا تركنا الخلاعة فى الطريق جانباً، وإذا اثبتنا لأزواجنا، بحسن سلوكنا وقيامنا بواجباتنا حق القيام، أننا آدميات نشعر وأن لنا نفوساً لا تقل عن نفوسهم فلا نسمح لهم بحال من الأحوال بإيلام شعورنا أو بالاستهانة بنا. إذا فعلنا كل ذلك فمن أين يجد الرجل العادل طريقاً لاحتقارنا؟ أما غير العادل فكان حرياً بنا أن لا نقبل الزواج منه.

يرقينا أن نطرح الكسل أرضاً. فإن عمل أكثرنا فى المنزل هو القعود على (الشلتة) كل النهار. أو الخروج للزيارات كأن رد فعل القعود أدار لولب أرجلنا ونفخ فى شراع حبرنا فلم نقو على ضبط جماحنا. والتى تعرف القراءة منا ففيم تقضى أوقات فراغها؟ فى قراءة الروايات فقط. فهلا قرأت قانون الصحة أو بعض الكتب المفيدة فتنتفع وتنفع؟ إن انغماسنا فى الكسل أو الترف أدى إلى ضعف أجسامنا وشحوبنا. فيجب أن نبحث لنا عن عمل نزاوله فى منازلنا. والمتأمل يرى لأول نظرة أن الطبقات العاملة هى الأسلم صحة والأكثر نشاطاً والأنجب نسلاً. ألا تنظرن إلى أولاد الطبقة الوسطى والسفلى فإنهم كلهم تقريباً أصحاء الجسم أقوياء البنية؟ أما أولاد (الذوات) فأكثرهم مرضى أو نحفاء، يتأثرون بأقل العوارض، مع ما يبذله آباؤهم من الاعتناء بهم، بعكس أولاد الطبقة الدنيا مثلاً فإنهم فى إهمال شديد من والديهم. العمل يخرج الفضلات الزائدة فى الدم ويقوى العضل ويبعث على النشاط. والطبقة أو الأمة العاملة يزداد نسلها فتعتز بأبنائها وإن الأمة الألمانية لشاهد حسى على ما أقول. فإن التعداد يظهر أن النسل هناك يزداد بسرعة هائلة حتى ضاق رحب ألمانيا بأهلها فأخذوا يبحثون عن أراض يستعمرونها ليصرفوا فيها الزائد من السكان. والذين زاروا أوربا أخبروا أن أهل ذلك البلد مجدون نشيطون، رجالاً ونساء، بعكس المرأة الفرنسية فإن ترفها الزائد كان سبباً فى قلة نسلها فضلاً عن انصراف كثير من تلك الأمة عن الزواج. وقد بح صوت الاقتصاديين والاجتماعيين فى نصح مواطنيهم بالاعتدال واتباع الطريق القويم فلم يفلحوا. لاحظت وأنا فى البادية أن بين نساء البدو ورجالهم كثيراً من العجائز ممن بلغوا الثمانين والمائة. وقد رأى معظمهم أربعة أعقاب من ذريته، مع أنى لم أر فى القاهرة ولا فى المدن الأخرى ما يشبه ذلك. ولا شك أن هذا نتيجة عيشتهم الطبيعية واعتدالهم. فإنهم كلهم مبكرون فى كل شيء.

مبكرون فى الاستيقاظ وفى النوم وفى تناول الأغذية وفى الأخذ بأول كل شيء، وكلهم عاملون، ولم أر بينهم امرأة واحدة، حتى من نساء أغنيائهم، تقضى النهار فى الكسل كما نقضيه نحن. فإذا كان الفلاسفة والأطباء يبحثون عن أكسير الحياة فهاأنذا قد اكتشفته. ذلك هو العمل والاعتدال فى المعيشة أو العيش الطبيعى. ولعل فى هذا القدر عن المرأة كفاية اليوم.

بقى علينا أن نبين الطريق العملى الذى يجب أن نسير عليه ولو كان لى حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية:

(المادة الأولى) تعليم البنات الدين الصحيح، أى تعاليم القرآن والسنة الصحيحة.

(المادة الثانية) تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى وجعل التعليم الأولى إجبارياً فى كل الطبقات.

(المادة الثالثة) تعليمهن التدبير المنزلى علماً وعملاً وقانون الصحة وتربية الأطفال والإسعافات الوقتية فى الطب.

(المادة الرابعة) تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله، وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء فى مصر.

(المادة الخامسة) إطلاق الحرية فى تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد.

(المادة السادسة) تعويد البنات من صغرهن الصدق والجد فى العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل.

(المادة السابعة) اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم.

(المادة الثامنة) اتباع عادة نساء الأتراك فى الآستانة فى الحجاب والخروج.

(المادة التاسعة) المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الأشياء والناس بقدر الإمكان.

(المادة العاشرة) على أخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا.

خطبة
فى المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية

وعاداتهما واستخلاص زبدة المقارنة لنعمل بها

المولودة ـ دور الطفولة ـ المراهقة (الملابس والأزياء) ـ الخطبة والزواج ـ الاقتصاد المالى والمنزلى ـ العمل البيتى ـ الأخلاق والعادات ـ دور الأمومة.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أيتها السيدات:

إذا كان لفئة ما أن تجتمع وتبحث فى شؤونها فلا أحق بذلك منا نساء مصر وفتياتها. فإننا على درجة من التأخر تؤلم نفس المتفكر فيها وترجع بالوطن خطوات واسعات عن سبيل التقدم. إن من دلائل تأخرنا أن أكثرنا أخذ يقلد المرأة الغربية بغير نظر إلى موافقة عاداتها للشرع الإسلامى والآداب الشرقية. وبعضنا الآخر ظل على تقاليده القديمة، سواء كانت صحيحة أو فاسدة، فما هذا الجمود بمستحسن ولا ذاك الاندفاع بممدوح. وإنى شارحة الآن عادات المرأتين فى كل أدوار حياتهما، مقارنة إحداهما بالأخرى، مستخلصة من زبدة ذلك ما عسى أن ينفعنا فى مستقبل حياتنا.

(١) الدور الأول؛ المولودة:

إن رجالنا الآن عند تبشير إحدانا بالأنثى شديد المشابهة جداً لحال الجاهلية الأولى. ولم أرنا خالفناهم فى شىء مما كانوا يفعلون فى ذلك إلا الوأد. قال الله تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب، ألا ساء ما يحكمون).

إن الانقباض الذى نظهره عند مستهل الأنثى يحدث فى الطفلة إذعاناً إلى الذلة ورؤماً إلى الضعة. فتشب الفتاة آلفة الفرق العظيم بينها وبين أخيها، فتعتقد فى نفسها أنها أحط شأناً وأدنى مرتبة، فلا تطلب من المعالى ما يطلبه أخوها، ولا تنبسط نفسها

إلى ما يرفع من شأنهـا وشأن جنسها، وتضع نفـسها حيث يضعـها الظالمون من أهلها. وليت شعرى لم نكره ولادة الأنثى وهى نصف الإنسان وأمـه وزوجته وابنته؟ ألا يصح أن تكون الفتاة نافعة كالفتى؟ ألا يرجع الفضل فى تدبير عيش الرجل لها؟ ألم تكن فى كثير من الأحيان سبب سـعادته وموضع أمله؟ وكيف نهمل تعاليم ديننا الحنيف فى هذه المسألة ويتبعها أكثر الغربيين؟ فإن أممهم، خـصوصاً الشمالية منها، يتساوى عندها الذكر والأنثى. وقد يملكون عليهم فـتاة فيهم من يفضلها علماً وتجـربة وحذقاً. يبرر الظالمون للأنثى جورهم هذا بأن الذكر يـحفظ اسم (العائلة) ويرث مالها ولقـبها. ولكن كم من والد مات ذكره بموته. وكيف لا والعمل وحـده عليه حياة الذكر أو فناؤه. هل رفع الله الأنبياء عليهم السلام درجات على الناس بأعمالهم أم بأبنائهم، ومنهم من لم يتزوج قط ومنهم من عـقه أبناؤه؟ أم كان أبو العـلاء المعرى أبا ذرية أحـيت اسمـه وهو الذى يعد الزواج والذرية جناية؟ وهل يغنى الولد عن الأبوين شـيئاً إذا كـان لا يخفف حشـرجة الموت؟ فالبنت والصـبى سيان، قرة عين الوالد فى حـياته، ولا يدرى ماذا يفعـلان بعد مماته. وهل إذا ورث الفـتى ثروة وبددها يعد حـافظاً غنى أسرته، أم إذا ولد لأحـدهم ذكور ضُمن لهم الحياة الخالدة؟

(٢) الدور الثانى؛ دور الطفولة:

فى هذا الدور نفضل الصـبى عن البنت فى أمور شتى، مع أن الغربيـين لا يفرقون البتة بينهما، فضلاً عن أنهم يوفونهما حقهما من التربية والعناية. ونحن إذا فضلنا الذكر قليلاً فـلا نزال مقصرين فى العناية به، فـما بالكن بالأنثى؟ ترضع المرأة الغربيـة طفلها وتنظفه بنفسها. اللهم إلا فئة العاملات اللاتى يضطرهن الفقر إلى الاشتغال فى المصانع والحوانيت وترك أطفالهن فى أيدى الأجـراء من مربيات الأطفال ومراضـعهم. أما نحن فنعد إرضاع أطفالنا عيباً لا يغتفـره لنا ادعاء الغنى أو الغنى نفسه! ونفوض أمر نظافتهم للخدم، ونـكل ترويضهم وتربيـتهم إليهم، وهن مـن تعلمن من فسـاد الذوق والجهل القبـيح، فيشـب أطفالنا أشد حـباً لهم أشبـه أخلاقاً بـهم، بينا نجد بيننا وبينهم جـفاء وتقاطعاً. وكيف تعرف الأم طباع طفلها إذا هى لا تتعـرفها بنفسها؟ ولو مرت الأمهات يوماً بالمراضع جالسات على حافة الطرق ليـراقبن حالتهن الأخلاقية لما تأخرن لحظة عن

حماية أطفالهن من جيش المراضع الهازم لمكارم الأخلاق.

أما عنايتنا بصحة أطفالنا فلم تكن بأكثر من عنايتنا بأخلاقهم. فبينا المرأة الغربية تغذو طفلها غذاء خفيفاً سريع الهضم، وتحتفظ به من هجمات البرد والحر، ترينا نطعمه أثقل الغذاء ونبادر بإعطائه اللحم وما يتعسر هضمه. فتختل معدة الطفل ويصاب بالإسهال والنزلات المعوية. وقد يفضى به سوء الحالة إلى الموت أخيراً. وكذلك لا نكترث بنظافته لئلا يحسد. ونتركه يلعب به النقيضان: القر والحر، فلا يلبث أن يمرض ولا علاج له عندنا إلا الرقى والتمائم نثقل بها حمائله. وإذا بكى متوجعاً نظن بكاءه جوعاً فنلقمه الغذاء فوق الغذاء إلى أن يلقى حتفه. هنالك تتهم أمه صاحبتها أو قريبتها بأنها حسدته، وأنفذت فيه سهماً من عينيها، فتبغضها وتتشاءم من رؤيتها. وإذا ابتدأ الطفل يتكلم ويمشى فأول ما ينطق به عندنا لعنة الآباء والأجداد، ومن الغريب أننا نجعل ذلك منه موضوع ضحك واستحسان فيظن أنه مصيب فى قوله فيتمادى فى الإكثار منه. وإذا مشى فإننا نحجر عليه أن يمشى إلا وسط الحجر المزدحمة بالأثاث والأوانى. فإذا لم يكسر منها شيئاً فإنه يتهشم بصدمة أو بوقوع. وإذا تأخر فى الخطو قليلاً نساعده عليه بالمشاة (المشاية) وهى علة تشويه كبيرة لا نشعر بها. ذلك أن عظام الطفل اللينة، بإجهادها فى المشى قبل قوتها، تلتوى فيشب الطفل أعوج الساقين منحنى السلسلة الفقرية أو الصدر. كذلك لا نلتفت لموضع سرير الطفل وتأثير النور فى عينيه، فيكثر فينا الحول والعمى. وما أعظم الفرق بين طفلنا الشاحب اللون البذئ اللسان وبين الطفل الغربى الصحيح البدن. فالاعتناء المهذب بالتربية. ما أجمله حين يذهب فى الصباح والمساء ليقبل والديه وحين يستغفر غيره أياً كان لأقل هفوة أو يشكر له جميلاً أسداه إياه. ذلك الطفل الذى إذا حرم تلك القبلة الوالدية لهفوة أتاها فلا تسلن عن حزنه وبكائه إلى أن يتوب. بمثل هذا تعلم المرأة الغربية طفلها أن رضاء الوالدين أعظم نعمة للأولاد، وتربى فيه الضمير الحى، والاعتراف بالشكر لمن وجب له، فلا تصغر نفسه بالضرب كما نعود نحن أطفالنا. ما المراد من ضرب الطفل؟ إذا المراد هو نهيه عن إتيان شيء لا نستحسنه لإيذاء جسمه بأنواع التعذيب البدنى. فهلا نجد من طرق التأديب النفسية ما يوصل إلى تلك الغاية بغير الشتم والضرب اللذين

يصغران همة الطفل ويخفضان من عزته صغيراً ويزيدان تحكمه واستبداده كبيراً.

وبقدر ما نعطى الطفل حرية فى البذاءة والإتلاف نمنعها إياه فى الرياضة المفيدة لنموه، فنمنعه الجرى والفسحة ومشاهدة المناظر الطبيعية الجميلة، مع أن الطفل الغربى يعد عضواً مهماً فى البيت كسائر أعضائه من أب وأم؛ فيذهب به إلى بلاد بعيدة لاستنشاق الهواء واجتلاء المناظر ويفرد له أدوات خاصة لنومه ولعبه وسائر لوازمه ويعامل بالإكرام ويعود الاستقلال من نعومة أظفاره إلى أن يترعرع. وإذا لحن فى كلامه بادرت أمه بتصحيح خطئه والنطق أمامه نطقاً صحيحاً حتى يحاكيها فيه. أما أطفالنا البائسون فإننا نلثغ لهم لنرضيهم ونكلمهم بلغتهم المشوشة بدل تعليمهم لغتنا العامية لا الفصحى!

نحن نبادر بإرسال أولادنا للمدارس وهم صغار لا يدركون ماهية العلم ولا يألفون حجر حريتهم. فيضايقهم المعلمون بتدريسهم الممل غير الجذاب، ويلزمون أعضاءهم المخلوقة للحركة بالسكون التام، فيتربى فى الطفل نفور من المدرسة والدرس، فتجبره أمه على الذهاب إلى المدرسة، فيزيده الإجبار نفوراً، وقد يكون خطؤنا فى إرسال أولادنا صغاراً جداً للمدرسة ومضايقة المعلمين لهم بأساليبهم العقيمة ما ينقص من استعداد الطفل لتلقى العلم ويفسد ملكاته. أما الطفل الغربى فهو أسعد حظاً إذ تعلمه أمه فى البيت طرق الملاحظة والمشاهدة وتلقنه فوائد الأشياء والأسرار القريبة الإدراك لما يحيط به من نبات وحيوان ومطر وغيره. وتعلمه الإحسان والشفقة بما تفعله أمامه من ضروبهما. وكذلك تعلمه القراءة والكتابة الأولية بأسلوب شائق ولا ترسله للمدرسة إلا وفيه ميل إليها واستعداد لما سيلقى عليه بها. وقد جربت ضرر إرسال الأولاد للمدرسة صغاراً فى نفسى وفى إخوتى وفيمن شاهدته من التلميذات، فإنى ظللت حوالى ثلاث سنين لا أفقه معنى للمدرسة، ولا أكاد أفهم الغرض من إرسالى إليها. وكذلك شاهدت أن النابغات من التلميذات هن اللاتى أرسلن للمدرسة فى سن الثامنة أو العاشرة، أما المرسلات صغيرات فأكثرهن لم يستفدن شيئاً غير ضعف البنية وخسارة ما أنفق عليهن. إذا لم يكن بد من إرسال الأطفال للمدرسة صغاراً فيجب أن تجعل لهم فرقة مخصوصة كفرقة بستان الأطفال (الكندر جارتن) التى تجعل فيها الدروس مزيجاً من التعلم والرياضة، ويراعى فيها

مدارك الطفل، وتمرن حواسه وأعضاؤه بغير إجبار يخافه أو تكرار يمله. ولو كانت الأمهات معتنيات بأطفالهن تمام العناية فإن مثل تلك الفرقة كان يجب أن تكون فى كل بيت أنعم الله عليه بنعمة الأولاد.

للتربية عندنا إحدى طريقتين: إما القسوة أو التدليل وكلاهما مضر. فالقسوة ترهق الطفل وتعلمه الذل. والتدليل يطرح به فى مهواة الغرور. فمن دلائل القسوة تخويفنا الأطفال وتصوير صور مخيفة لهم من الظلمة وملء أذهانهم بترهات لا أصل لها (كالبعبع والمزيرة إلخ.) وضربهم عند مخالفتهم لنا. ومن تدليلنا إياهم أن نعلمهم الأنانية ونعطيهم ما يشتهون عند بكائهم، بعد منعهم إياه قبل البكاء، فيتعلمون من ذلك أن الصياح ميسر العسير ومقرب البعيد فلا يتأخرون عن البكاء عند أى شىء نمنعه عنهم. وقد رأيت كثيراً أن طفلاً ينصح لأخيه أو أخته الأصغر منه سناً بأن يبكى حتى يأخذ كيت وكيت مما كان منع عنه. أما الإفرنج فطريقتهم فى تربية الأطفال خير من طريقتنا أضعافاً؛ فيعاقبون الطفل الذى يبكى لطلب شىء بالحرمان منه فيعلم أن البكاء لا يجدى. ويطلبه بالطرق المشروعة. وإن منع منه فلا يعود يتشبث به. ويستحضرون فى المنزل ما تمس إليه حاجة الأولاد من الحلوى واللعب خوفاً عليهم من قذارة ما فى الأسواق واقتصاداً للمال والزمن.

(٣) الدور الثالث؛ دور المراهقة:

هذا هو الدور الذى تتجلى فيه صفات الفتاة، حسنة كانت أو سيئة، وإن كانت الأخيرة فمن الصعب تغييرها. فى هذا الدور يهتم الأهلون بإرسال أولادهم الذكور للمدرسة وإن كانوا يدخلونهم قبل ذلك الكتاتيب. ولا يهتمون كثيراً بتثقيف عقل الفتاة. على أنهم قد أخذوا يقلدون الغربيين أخيراً فى تعليم الفتاة، ولكن لم يكن التقليد نافعاً لنا ولا محكماً فى ذاته. فالفتاة الغربية تتعلم العلوم إلى أن تحصل منها على درجة عالية أو درجة محمودة. أما فتاتنا المصرية فلا تكاد تقرأ وتتعلم قشوراً بسيطة من العلم حتى تستغنى بها عن الاستمرار فى الاستفادة. فهى لا تقلد الغربية فى التعلم النافع وإنما تقلدها باستماتة فى تعلم البيانو والرقص. ولا أدرى لماذا أخذت البيوت الشرقية تبطل العود والقانون وتتعلم (البيانو) مع أن الأولين، فضلاً عن

كونهما شرقيين، ألطف صوتاً وأشجى نغمة وأقل جلبة وأرخص ثمناً وأخف حملاً. إن (البيانو) لازم جداً فى الغرب لتحية الجموع فى المراقص والكنائس، لأنه بنغماته العالية يسمع إلى مكان بعيد، أما فى بيوت المسلمين حيث لا مراقص ولا كنائس، فلا أجده من الضرورة بالدرجة التى يتهافت عليها فتياتنا. نعم إن تعلم الموسيقى من الكماليات الممدوحة ويقولون إنها مهذبة للطبع مرققة للشعور ولكن ألم يكن الأولى تعلمها على الآلات الشرقية التى لا ضوضاء لها إذ هى بذلك أدعى للحشمة فلا يتعدى صوتها البيت الذى هى به؟

لو سلمنا بضرورة تقليد الغربية فى تعليم (البيانو) لوجب محاكاتها أيضاً فى تعلمه من حيث هو فن وإتقانه، لا أن تقتصر الفتاة على نقر لا تناسب بين نغماته حتى أن سليم الذوق مع عدم تلقيه دروساً فى (البيانو) يمكنه نقد ذلك الضرب الذى لا قانون له على صماخ الأذن لا على (البيانو) فإن أذنه تنبو عنه لسماجته!

ماذا تقرأ الفتيات فى سن المراهقة؟ لا يقرأن إلا الروايات الغرامية وهن فى ذلك الوقت موضع لسورة الانفعالات النفسية. فيتأثرن بحوادث العشق والهرب، وتنطبع فى ذاكرتهن أشعار وجمل غرامية مما يقرأن، وتمر أمامهن صور تلك الحوادث كالصور المتحركة، فلا تعدم أن تلقى أثراً فى عقولهن اللينة. إلا أن الآباء ملومون فى هذه الحالة لعدم اختيارهم كتباً نافعة تقرأها فتياتهم. لماذا لا يختارون لهن مثل كتاب التربية الاستقلالية وفيه أمور نافعة جداً فى تربية الأطفال ومعاملة الأزواج؟ أو مثل كتاب كليلة ودمنة؟ أو كتب تراجم المشهورين من رجال ونساء؟ فإن فى قراءة سير المشاهير ما يبعث القارئ على أن يقتدى بهم. أو مثل كتب آداب اللغة وغيرها مما يلذ ويفيد فى آن واحد. هذا إذا وجدت الفتاة من كتب الفلسفة والعلم ما يستعصى عليها فهمه أو تتضجر من الاستمرار على قراءته لجده الخالص وجفافه. ماذا تفعل الفتاة فى سن الرابعة عشرة أو السادسة عشرة وهى ممتلئة الذهن بحوادث «روميو وجوليت» وألفاظ «فاتنتى وحبيبتى» إلخ؟ إنها تتمنى أن تسمع مثلها وتكون مرموقة بنفس تلك العين لأن سنها كما بينت أخصب مراعى إبليس. هذا من جهة القراءة. أما الحرية فإن الفتاة المصرية الأولى كانت محجوراً عليها لدرجة الحبس، والفتاة الغربية لها مطلق الحرية أن تغدو وتروح وحدها وتسافر من بلد لآخر قاص بغير رقابة أهلها. وهذا من

الخرق فى الرأى، وأخاف أن تغرنا زخارفه فنعمل به، لأن كثيرات من فتياتنا المتعلمات يحسبن أن الدرجة التى وصلن إليها تكفى لإعطائهن مطلق الحرية يغدون ويرحن وحيدات. وإن حوادث الفتيات المحزنة كثيرة جداً فى أوربا، لأن الفتيات الطائشات يصدقن لصفاء نيتهن كل مدع لهن بالغرام وتساعدهن حريتهن المطلقة على مسايرة الفتيان، ثم لا يلبث الرجال أن ينفضوا من حولهن، ويتركوهن بين اليأس والعار وهما أمران أحلاهما مر.

من رأيى أن تمنع الفتاة فى سن المراهقة هذه من الاختلاط بالشبان. وحاشا أن أمس بكلامى هذا شرف الفتيات. وإنما أحب أن أنبه إلى شىء طبيعى والعاقل من اتعظ بغيره. ويكفى تجنباً لمثل هذا الاختلاط المعيب أن أهله أنفسهم هم أول العائبين له. والفتاة فى هذه السن ككل إنسان تطلب الحرية ويجب أن تتروض وتخرج. وهذان لا أمنعهما عنها، وإنما أنصح للأمهات أن يرافقنهن وللآباء أن يراقبوهن مراقبة لا تتمكن بها من الوجود مع غير ذى رحم محرم.

ثم إذا ثبتت للوالدين مقدرتها على حسن السير وطهارة الذيل وقوة الإرادة فلا بأس من إباحة الحرية لها فى زيارة صاحباتها. وأرى أن الحرية المطلقة والحجر المطلق كلاهما مضر؛ فكما أن الأولى تسهل سبل الفساد لمن تريدها، كذلك الثانى يخلق فى الفتاة ميلاً لأن ترى كل شىء ويعلمها طرق الغش والكذب فيكون قد جنى أهلها جنايتين.

إن صلاح الفتاة مترتب دائماً على تربيتها الأولى. فإن فسدت، فقد يكون قليل من الحرية أفضل من الحجر المطلق. لأنه لا ينفع ولا تعدم الفتاة منفذاً لأغراضها فتتعلم بذلك السرقة والخداع وقد تكون بعيدة عنهما من قبل.

أفضل طريقة لتربية البنات هى أن يرين قبل البلوغ كل شىء تصح مشاهدته. بمعنى أن البنت فى نحو العاشرة يجب أن يريها والدها الصور المتحركة والتمثيل والألعاب المختلفة والحوانيت الكبيرة والمتنزهات والآثار ويركبها السيارة ويريها الحفلات وغير ذلك. حتى تلم على قدر الإمكان بكل شىء حسن أو عجيب، فتستنير من جهة ولا تظل بلهاء ككثير من فتياتنا من جهة أخرى، وحتى تكون امتلأت نفسها من الصغر فلا تجد فيها فراغاً فيما بعد لطلب المزيد من المشاهدات. فإذا عرضت لها

الفسحة فى حياتها المستقبلة فلا بأس بها وإن لم تعرض فلا تأسف كثيراً عليها.

المدارس: تعجبنى جداً طريقة مدارس (الفرير) فى نقل الفتيات صباحاً ومساء فى عرباتها الخصوصية حتى لا يختلط بهن السابلة، وحتى يأمن عليهن أهلهن من مراقبة الخدام، الذين هم فى أكثر الأحوال وسائل الفساد ووسطاء الغواية والضلال. وكذلك يوفرن وقت من سيعطل نفسه فيصحبهن إلى المدرسة ذهاباً وإياباً. فحبذا لو اشترت نظارة المعارف أو استأجرت مثل تلك العربات لنقل التلميذات إلى مدارسها فى الغدو والرواح. ويكون لكل قسم من أقسام البلد واحدة أو اثنتان طبقاً لحاجة التلميذات كثرة وقلة. فإن التعليم فى مدارسها أرقى بكثير من التعليم فى المدارس الأخرى، خصوصاً فى اللغة العربية التى هى لغتنا ويجب أن نتعلمها جيداً، وكذلك تراعى فيها آداب البلد وعوائده ودينه أفضل مما تراعى فى تلك المدارس الأجنبية التى لم تفتح إلا لنشر مذهب من المذاهب الدينية أو لكسب أصحابها فقط.

بعض المستهجنين تعليم الفتيات يرون أن تظل الفتاة جاهلة خير لها من أن تتعلم، لأن التعليم يوسع عليها حيل الاختلاط الذى لا تبرره العادة ولا يسمح به أولياؤها. وهى نظرية فاسدة، لأن التربية الحقيقية تحول دون ذلك. فالفتاة الكاملة تجد من عفتها وقدوة أهلها وآداب نفسها ما يخيفها من سوء الأحدوثة، وتعلم أن سمعة الفتاة كالزجاج الصافى يتلوث من أقل الأشياء. وإذا انكسر فلا يجبر. أما الفاسدة فتميل للمروق متى وجدت مسرباً سواء كانت عالمة أو جاهلة. وغاية الأمر أن الجاهلة أسرع شططاً وأدنى إلى أن تشهر بنفسها. وقلما تعرف نتيجة تصرفها السىء إلا بعد وقوعها فى سوء مغبته.

الملابس والأزياء: الملابس الشرقية أخف مؤنة وأيسر كلفة وأشد ملاءمة لجونا الحار وصيفنا المحرق من الملابس الإفرنجية. فهى جلباب يلبس مرة واحدة فوق الملابس الدنيا. وعند الخروج تلبس فوقه الملاءة. أما الملابس الإفرنجية فإنها متعددة القطع مضاعفة التركيب عسرة اللبس والنزع؛ فمن مشد يخنق الخاصرة ويعتصر الكبد والطحال ويضغط على الأحشاء ويمنع الجلد من التنفس الطبيعى اللازم له، ومن بنيقة (ياقة) منشاء كالورق المقوى، لا تستطيع المرأة فيها لفت رقبتها ولا الانثناء لقضاء أى عمل، فتظل مشرئبة العنق مشدودة لا عن وثاق، ومن صدار (chemisette) لاصق

بالإبطين ضاغط على الكتـفين أو مقور الفتـحة (décolts) معرض القـفا والنحر، بل الصدر والظهـر إلى الحر والقر واخـتلاف درجات الجو وجـلب النزلات الصدرية ومن مـــرطة (juops) ضيق الأعلى غـير محكم الإزرار واسع الأسـفل طويل الذيل، كأن لابسته من ذوات الأذناب، تثيـر فى مشيتها الجراثيم وتضـايق الرئتين والخياشيم. ومن قبعـة متراميـة الأطراف مدججة بالدبابيس مـثقلة بالطيور وريشهـا والغصون وأزهارها وثمارها مدبجة بالأربطة الحريرية. ومن أناشيط (ينابيع) فى أجزاء (الفستان) يضيع فى ربطها وحلها الزمن سـدى. فضلاً عن تعدد الملابس لتعدد الأغراض؛ فـحلة للصباح وأخرى للمـساء وثالثـة للخروج وأخرى للرقص وغـيرها للاسـتقبـال وهلم جرا. إن الزمن الذى يضـيع كل يوم في اللبس والخلع لو صـرف فى عمل نافع لأتى بالفـائدة وأراح من العناء. على أن لنســاء الإفرنج حسنة واحدة فى مـلابسهن مفـقودة عندنا، وهى البسـاطة عند الخروج للنزهة أو لقـضاء شغل. فـتلبس المرأة ثوباً قصـيراً كى لا يعوقها عن المشى. أما نحن فنرتدى أحسن طرفنا فى الخارج ونطيل فى الذيول نجرها. على أن الأوربيات أحق منا بالافـتتان فى الأزياء وشدة التأنق فيـها لأنهن بارزات. أما نحن فأكـثر ما يرانا جـدران المنازل وإن خرجنا فتـحت الإزار أو فى العربات. وإذن، فلا لزوم لاتباع (المودة) بشغف زائد لأنها تفقـر وتضايق. وإن كان للغنيات حق التمتع بصرف مالهن، ولو فيـما لا يجدى الإنسانية كالأزياء، فليس للمـتوسطات حق إفقار بعولتهن أو آبائهن جرياً وراء المودة المتقلبة.

تخرج بعض نسـائنا عن حدود الأدب والشرع مـتفانيـات فى اتباع (المودة) ولكن هناك فرقاً كبيراً بين (المودة) والخلاعة. فإن لبـست المرأة آخر الأزياء فى بيتها فما عليها فى ذلك من حرج. ولـكن إذا أظهرت زينتهـا للمارة وظلت تتلكأ وتتـسكع وتداعب وتضحك فتلك هى الخلاعة الشائنة. ولم تجىء فى مجلات الأزياء (كالبرنتان واللوفر) وغيرهما. ففى أى كتاب قرأتها؟؟

لاحظت شيـئاً غريبـاً فى الفتيات وهو أن الفـتاة، التى تتبـرج وتتأنق مغـالية فى إظهار مـحاسنهـا وغناها تريد بذلك أن يعـجب بها الخـاطبون والخاطبـات، هى التى تتأخـر دائماً فى الزواج، وإن تزوجت فـبرجل أقل مما كـان ينتظر لمثلها. وهو عـقاب طبيعى للمـتبرجات. لأن الرجل مـهما أعجبـه شكل الخليعة وكلامهـا فهو لا يود أن

يقتنيها لنفسه اعتقاداً أن ما أعجبه منها ظاهر لغيره أيضاً. ولو فطنت الفتيات إلى أن أول شرط يشترطه الرجل فى امرأته خاصة هو الحشمة والترفع عن التبرج لما تأخرن لحظة عن الإقلاع عما زعمنه يقربهن فى أعين الراغبين فى الزواج، وهو فى الحقيقة يبعدهن وينفر الرجال منهن. لست بذلك أدعو النساء إلى التقشف أو البعد عن الزينة، فليس لى أن أحرم ما حلل الله، ولأن فى الزينة للمرأة بعض السعادة ولزوجها كذلك، ولكن غرضى الاعتدال فى الزينة إلى عدم الخروج عن المعروف.

(٤) الدور الرابع: الخطبة والزواج:

تتعجل الفتيات كثيراً فى انتظار هذا الدور ولو علمن مصاعبه ومتاعبه لما تعجلنه. وأظن ما يشوقهن إليه هو الزخارف والحلى الجديدة وما يقام للعروس من معالم الزينة وما يتقاطر عليها من التهانئ والهدايا. ولكنهن لا يدرين التبعة العظيمة التى تتحملها المرأة بزواجها، وما قد يصيبها من الآلام النفسية فى عيشتها الجديدة. وشتان بين الفتاة تنام ملء عينيها ولا تسأل إلا عن نفسها ويسعى أبوها وأهلها فى إرضائها وجلب ما تشتهيه من ملابس وغيرها، وبين الزوجة تنتظر بعلها إلى ما بعد نصف الليل وتبكر قبل بزوغ الشمس لتجهيز طعامه وتنظيم ملابسه وتظل يومها تشتغل فى بيتها أو تلاحظ الخدم، وعليها أن ترضيه، وترضيهم وتخطب ود أهله وتقوم بتربية أولاده، وهى بين كثرة العمل وتنوع التبعة تحاسب حساباً عسيراً على أقل هفوة. وربما وجدت منه سكيراً فظاً أحمق. وأدهى من ذلك أن يتحفها بضرة شرعية أو غير شرعية تأتى على ما بقى من رونق جمالها وسعادتها.

لا وسيلة للزواج عندنا إلا الخطبة، ولكن بأعين الأهل والجيران والخاطبات اللاتى قد تحسن فى أعينهن من لا تحسن فى عين الخاطب لاختلاف الأذواق والمشارب. فيتزوج الرجل على مجرد أوصاف رويت له، فيصور منها شكلاً فى مخيلته قد لا يطابق العروس الحقيقية أصلاً لسوء تعبير الخاطبات وتحريفهن المقصود لغايات. وكذلك الفتاة لا تكاد تعلم عن خطيبها إلا اسمه وماله المبالغ فى تقديره لترغيبها هى وأهلها. فإذا حان وقت المقابلة يكاد العروسان يصابان بالبكم والغشيان لفرط دهشة أحدهما من الآخر. وبعد المعاشرة قليلاً قد يتفقان وقد لا يتفقان. وهل

هذه المخاطرة فى الحقيقة إلا نتيجة اعتقادنا المقلوب فى القضاء والقدر؟ نعم. إن القضاء والقدر لا تجدى مغالبتهما، ولكن لا يصح اتخاذهما وسيلة للإهمال فى جلب المنفعة أو درء الضرر. فإن هذه المسألة مسألة اختيار محض، للعقل أن يحكم فيها وحده، فإذا أحسن الاختيار حسنت عاقبته وإن قصر أو أهمل ساءت العقبى. على أن إسفار النساء عن وجوههن لم تجمع الأئمة على تحريمه فضلاً عن أنهم كلهم يجوزونه عند الخطبة تحاشياً من وقوع الاختلاف ودعوى الغش فيما بعد.

أما الإفرنج فخشية أن يصابوا بما أصيب به أغلب أهل الشرق من الخطبة العمياء وما يترتب عليها من الشقاء المستمر أجمعوا على وجوب أن يتراءى العروسان قبل الخطبة مراراً ويتقابلا تكراراً. ولكنهم أفرطوا فى الأمر، كما فرطنا نحن فيه و «كلا طرفى كل الأمور ذميم». لم يكتفوا بأن يرى الخطيب خطيبته عدة مرات، بل شرطوا أن يكون الزواج بعد الرضى أو الميل المتبادل بينهما. ولأجل أن يملكوا قلب الخاطب قبل أن يعرف من هو!! يحرضون بناتهم على غشيان المتنزهات والمراقص ومجتمعات الفتيان لعل الواحدة منهن تخلب فتى من الذين هناك بالاتفاق. وقد تذهب المقابلة بعد المقابلة سدى فتتعرض لغيره ويتعرض لغيرها إلى أن تجد بعد طول مدة التخير فتى يكاشفها بعزم الاقتران، فتظن أنها وجدت ضالتها المنشودة، فتعلن أهلها ويتردد الخطيب عليها فى البيت وغير البيت وربما تمضى على ذلك الشهور والسنون، ثم يغض الفتى عن الفتاة بدعوى أن الاختبار لم يؤد إلى المرام وأن القلوب لم تأتلف. وإذا كان أصل الفكرة وجوب الاختبار الطويل فيما يتعلق بالأخلاق والتأكد من الحالة الصحية كان العدول بعد الاختبار أمراً غير مستقبح. وإنما يكون الاستقباح بعد الإعلان القطعى وهو لبس الخاتم عندهم. ولا شك أن التساهل إلى هذا الحد فيه ما فيه من العيوب القبيحة مما لا يخفى على الناقد البصير.

والحق أن هذه المسألة من المعضلات الاجتماعية. فلا الاسترسال فى الاختبار بمأمون العواقب ولا الاحتجاب المطلق عن الخاطب بمفيد. بل ربما كان مؤخراً للفتاة عن الزواج فى الأوان المناسب. وربما كان فى الحى الواحد فتيان وفتيات كل منهم يبغى الزواج ولا يعلم الفتيان بوجود الفتيات لاحتجابهن الاحتجاب الشديد ولعدم التعارف بين البيوت. ولا خلاص من هذه العقدة إلا باتباع سنة السلف من العرب فى

صدر الإسلام من مباشرة الفتاة خدمة الضيوف، ومقابلة زائرى أهلها لاستطلاع قصدهم، والخروج فى القرى إن كانت بها للمساعدة فى بعض الأعمال. ويجب على الفتيان فى مثل هذه الحال أن لا يظهروا غرضهم أمام الفتيات، أو يتعرضوا لهن بالخطبة، فإن ذلك مغاير للذوق والأدب ومؤد لخجل الفتيات وانزوائهن وراء الحجب. وينبغى أن تعود الفتيات هذا الأمر من صغرهن حتى لا يستغربنه عند الكبر ويحسسن بشذوذه. وهذه الطريقة متبعة فى القرى والبوادى المصرية. فحبذا لو اقتدى بهم غيرهم متى أمنت الفتنة وسلمت الأعراض وصلحت مقاصد الرجال فى رؤية النساء. أما فى العصور والأماكن التى خبثت فيها مقاصد الرجال وانحطت أغراضهم وشاهت آدابهم فإن الحجاب للمرأة ليس إلا حصناً يصونها من عدوان الخبثاء المفسدين.

وفى الحالة التى لا بأس من الخروج فيها يشترط أن يكون خروج الفتاة مع أبيها أو أخيها أو أحد محارمها. وعلى كل حال فالشىء الذى لابد من منعه هو انفراد الفتى بالفتاة المحادثة فى غير ضرورة لما فى ذلك من مخالفة للشرع وإثارة التهم.

هذا ما يقال فى الخطبة. أما الزواج فطريقتنا فيه مختلة أيضاً، فالمرأة الغربية فى بعض البلاد تدفع الصداق (الدوت) وقد يكون من جراء ذلك بعض الظروف أن تصير الزوجة سيدة الرجل الآمرة الناهية. والمرأة الشرقية كانت لا تدفع شيئاً ولكن يدفع الرجل الصداق فيأخذه أهلها لأنفسهم ولا يشترون لها منه شيئاً. وبذلك يعتبر الرجل سيدها لا حق لها فى معارضته. وهاتان الطريقتان بغير نظر إلى صلاحيتهما أو تفضيل إحداهما على الأخرى واضحتان فى أن دافع الصداق هو المنفرد بالسيادة فى البيت. أما طريقتنا الآن فهى معتلة. ولذلك فالسيادة متنازع عليها بين الزوجين المصريين. يدفع الرجل الصداق فتأتى المرأة بما يساوى ضعفه أو ضعفيه أو أكثر، تعنت بذلك أباها أو أخاها، وإذا كانت موسرة وتزوجها الرجل لمالها كان التنازع بينهما على الرياسة أمراً مقضياً لا محيص عنه، فهى بما لها من الثراء ترى نفسها سيدة المنزل، وهو بما منحه الله من الدرجة فى الفضل، وبما أنفقه من ماله عليها، يرى نفسه سيد المنزل، وهنالك يقع التنازع.

مالنا ولهذا التكليف الثقيل والبيت باسم الرجل لا باسم زوجه، فإن أعجبه أن يفرش فى بيته حصيراً فليكن، وإن راقه أن يموه سقوفه وجدرانه بماء الذهب فليفعل،

وإن أحب أن يجعله جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار فحبذا رأيه. وليس للزوج وأهله أن ينتظروا شيئاً من العروس فهى وشأنها فى مالها. إن حوادث الطلاق فيها عظات كثيرة لو انتبهنا لها. فكثير ما يتنازع الزوجان على الأثاث كل يدعى أنه له. وإذا كان فى الرجل مروءة وتركه لمطلقته فإنها تزحم به بيت أهلها ويظل مكدساً يرتع فيه العث والجرذان فتجد مرعى خصيباً. فإذا تزوجت المرأة ثانية وجدت أكثره تالفاً أو طال عليه القدم مع ما يستلزمه نقل الأثاث وترتيبه كل مرة من النفقات والتعب.

وإذا لمت الغنية مرة على هذا التبذير فإنى ألوم الفقيرة المدعية مراراً. فكم من بيوت خربت وأرض بيعت أو رهنت لا لسبب سوى تجهيز عروس لا يلبث فرشها البهى أن يحول لونه أو يتمزق بعد سنين قلائل فتكلف زوجها بتجديده أو يبقى خرقاً. سمعت عن أب له ثلاث بنات جهزهن واحدة بعد أخرى جهازاً كان موضوع الحديث عند معارفهم، وكان له مائة فدان من أجود الأطيان يعيش بريعها عيش الرخاء، فباع ثلاثين لتجهيز الفتاة الأولى، ورهن ثلاثين للثانية، والباقى للأخيرة. ولما حان ميعاد السداد لم يف وإذا بالدائنين أتوا على ما ورثه، وهو كل ما يمتلك، وحجزوا على بيته أيضاً. فبالله ألا يعد هذا الرجل قصير النظر أخرق؟ وهل أغناه أثاث بناته وقد أصبح معدماً ذليلاً؟ إنه لمن الجنون، بل ومن القساوة أن تجتهد الفتاة فى تخريب بيت والديها لتزين بيت زوجها. ولماذا تقلد كل سيدة من هى أغنى منها؟ وهل يعد التوسط فى الغنى أو الفقر عيباً؟

إن المرأة الأوربية لا ترمى مالها كما نفعل فى أوان لا تستعملها وفى خرق تبلى بعد زمن قصير، بل تستثمر ذلك المال فتنميه وتحفظه للعوز أو تدخره لأولادها من بعدها أو تنفق منه على الجمعيات الخيرية والمدارس فيجىء البائسين وتحيا بحسناتها، فهى أبرع منا بمراحل فى طرق الاقتصاد.

الاقتصاد المالى والمنزلى:

لا تكتفى المرأة الغربية بتنمية مالها، بل تضع (موازنة ميزانية) مضبوطة لإيراد بيتها ومصروفه فلا تخرج عن حد الاعتدال فى النفقات ولا تنفق درهماً فى غير موضعه وتفحص مشتراها بنفسها كى تتأكد من جودتها واستحقاقها لما تباع به. وتعنى

برفو الثياب وتصليحها وتعمل من كل قديم جديداً. وقد تغير شكل الثوب الواحد وزينته مراراً فيبين جديداً. نعم. إن فينا تلقاء ذلك كرماً، ولكن يجب أن لا يكون الكرم إهمالاً. فقد تقع بقعة صغيرة على جلباب من الحرير الغالى، فإذا أهملناه لم يصلح للبس، وإذا أعطيناه خادمة أو امرأة فقيرة فقد ينفعها ثوب من النسيج (القماش) البسيط (الشيت) أكثر من ذلك الثوب الجميل. وفى هذه الحالة يكون كرمنا غير مجد. فلو اجتهدنا فى إزالة تلك البقعة أو مداراتها بشىء من الزينة (الكلفة) وجدنا على تلك الفقيرة بثوب بسيط لكان أنفع لنا ولها.

إن تربية الغربية مؤسسة على العناية والملاحظة. أما نحن فقلما نتنبه إليهما. تقتصد المرأة الغربية من مالها بما تظهره من براعتها وعملها؛ فهى تخيط لنفسها ولزوجها ولأولادها وتكوى ثيابهم. أما نحن فالبيوت المتوسطة كلها تكوى فى السوق وتخيط كل شىء حتى التافه عند الخياطات. بعشرين قرشاً يمكن للمرأة الغربية أن تحضر طعاماً لبيتها وتجعله لذيذاً شهياً بكثرة الجوارش (السلطة) والحلوى. أما العشرون قرشاً عندنا فتهئ بها المرأة طعاماً ولكن غير كاف ولا شهى.

إن الإفرنج رجالاً ونساء يعرفون كيف يجتذبون الأنظار، ويجعلون الشىء المتوسط فى الحسن جميلاً. قد رأيتن من بضاعتهم ما هو أقل متانة من بضاعتنا الشرقية، ولكنهم يضعونها فى حوانيت واسعة منارة بالكهرباء ويرصونها داخل ألواح من الزجاج فتجتذب المارة، ثم هم يختارون لتجارتهم محلاً من المدينة يكثر عليه الغادون والرائحون. أما تجارنا فهم بمعزل عن ذلك التفنن، إذ قد تكون حوانيتهم فى نقطة غير مطروقة كثيراً أو يهملون فى عرض بضاعتهم وإعلانهم عنها فتبور. ومثل تجارنا فى حوانيتهم كمثلنا فى بيوتنا ففينا من الذكاء والمقدرة ما يمكننا من جعل بيوتنا جنة، ولكن قلة العناية هى التى تخل نظامها وتعطل ترتيبها.

العمل: أما العمل البيتى أو الخارجى فإننا يجب أن نعترف للمرأة الغربية بسبقها إيانا فيهما. وإن كانت غنياتنا وأغلب غنياتهم لا يكترثن إلا بالملاهى والأزياء. ولكن المتوسطات هناك لا يأنفن مزاولة الطبخ والكى وترتيب أثاث البيت كما تأنفه متوسطاتنا. وفقيراتهن يعملن ما يقوم بحاجاتهن وحاجات من يعلنهم (عائلاتهن)، أما فقيراتنا فإما أن يسألن وإما أن يشتغلن بعمل قليل الكسب. والشواهد كثيرة على

ذلك وأقربها وهو ما نعرفه كلنا أن الخياطات المصريات لا نكاد نجد بينهن واحدة يمكنها تفصيل الثياب وخياطتها جيداً. وهن لعدم إتقانهن العمل يكتفين بأجرة قليلة مع ما يتكبدنه من التعب وإنفاق العافية. فتأخذ الواحدة خمسة قروش أو عشرة أجرة الثوب فى حين أن الإفرنجية تطلب جنيهين على الأقل مقابل تعبها فقط. وكذلك الطبيبات منا يكتفين بدروس قليلة فى التمريض ولا ينظرن لمثيلاتهن الأجنبيات اللاتى برعن فى الطب ونلن نفس شهادات الرجال. كذلك المربيات والخدم المصريون لا يفقهون معنى التربية وأغلب الخادمات لا يصلحن لمزاولة مهنتهن فنضطر أن نجلب هؤلاء من الإفرنج.

يقولون الحاجة أم العمل. فما بالنا نكسل ونقصر ونحن فى شديد الحاجة لأمثال هؤلاء الخياطات والطبيبات والمتعلمات وغيرهن؟ إن من فروض الكفاية أن يكون كل هؤلاء مصريات فى مصر حتى يمتنع بعض مالها من التسرب إلى جيوب الأجانب وهن ساكنات ينظرن. لقد أصبحت كلمة «مصرية» فى أفواه الأجانب عنواناً على الكسل وعدم المقدرة. فهلا يبعث فينا ذلك التعبير روح النشاط وحب العمل؟ هلا حاكيناهن فيما تفوقن فيه علينا من العلم والعمل؟ أم هل تكفى محاكاتنا لهن فى الزى والتصنع لأن نصبح مثلهن؟ إنهن أسسن الجمعيات وأدرن المستشفيات والملاجىء وقمن يشتغلن بكل فن، حتى أنهن يطلبن مشاركة الرجال فى الانتخاب لحكم بلادهن، وما ذلك إلا نتيجة العلم والتربية على حب العمل.

من حب العمل عندهن الرياضة فى ساعة الفراغ، فترين أنهن يشتغلن حتى وهن يطلبن الراحة. أما نحن فنكسل ونطلب الراحة فى ساعات العمل. ألم تسمعن بجمعية (الصليب الأحمر) وكيف تخاطر النساء فيها بحياتهن لمداواة الجرحى والتقاطهم ونار الحرب تستعر وأمطار القنابل تتساقط؟ وهل ينفى الهم ويضمد الجراح كالمرأة الآسية؟ إن النساء المنخرطات فى سلك تلك الجمعية يعرضن أنفسهن للهلاك وتكبد مشاق السفر وتحمل البرد القارس بين سهول مثل منشوريا وحزونها والحر اللافح فى الأقاليم الاستوائية التى يذيب حرها رأس الضب. وقد كانت نساء العرب يفعلن نفس هذا الفعل الشريف فى الحرب ويزدن عليه تشجيع المجاهدين وتغذية الجياد. قال عمرو بن كلثوم من معلقته:

يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

وقد كانت مخاطرتهن هذه تثير الشجاعة فى الرجال وتحملهم على الإقدام بدليل قوله:

إذا لم نحمهن فلا بقينا بخير بعدهن ولا حيينا

وقوله فى موضع آخر من القصيدة:

وما منع الظعائن مثل ضرب ترى منه السواعد كالقلينا

الأخــلاق: لا أدرى أنفضل المرأة الغربية فى معرض الأخلاق أم تفضلنا؟ فهى أشجع منا فى اقتحام الخطوب وإن كانت لا تقل عنا جزعاً عند المصائب. ونحن لا ينقصنا ذكاء كذكائها وإنما ينقصنا عزم وثبات معزمها وثباتها. هى تعمل لتعيش ونحن نتكل إما على آبائنا أو أزواجنا فلا نعمل شيئاً. وهذا الاتكال معيب فى نفسه، فضلاً عما تخلقه تقلبات الأيام. فلو تعلمت كل فتاة شريفة مستقلة لما رأينا البائسات تموج بهن الطرقات والمهيضات بعد سابغ عز وسابق نعمة ينتظرن إحسان الأخ أو أحد الأقارب. وقد تكون المرأة سيئة الخلق فنمل عشرتها، أو يكون لها من الأولاد ما تنوء تربيتهم بذلك الأخ أو القريب. والمرأة الغربية تعتنى بكل شيء حتى التافه، ونحن بما ركب فى طبعنا من المسالمة نميل إلى الإهمال والكسل. وأرانا أسلم منها قلباً وأقل خداعاً لعدم الاختلاط بالرجال أيضاً. فإنها لتجوالها فى الخارج تتعلم كيف ترضى هذا وذاك لتظهر فاتنة جذابة وتعيش خداعة محتالة، إذ الحاجة تعلمها الاحتيال على العيش، فهى تطلبه بكل الوسائل الممكنة. وهى ولا شك أنشط منا وأثبت على العمل إلا أننا أكثر قناعة وأشد رضا بالقليل.

بقية العادات: للخرافات سلطان كبير على المرأة الغربية، وإن كان بعضنا يظن أنها معصومة من الخطأ، فنحن وهى سيان فى التفاؤل والتشاؤم وتصديق العرافات

والمنجمين والمشعوذين والاعتقاد بطلوع العفاريت فى الظلمة. وعندنا الزار، وهو أبو الخرافات ومفسد البيوت، وهى لا تعتقد به وإن كانت تصاب بأعراضه العصبية. فلماذا اختارتنا العفاريت (يا ترى) مسكناً لها دون أختنا الغربية؟ وإذا فرضنا المستحيل وصدقنا القائلين بتقمص الأرواح فلماذا لا تلجأ إلينا روح أرسطو وابن رشد وأبى العلاء وغيرهم من الفلاسفة والمصلحين؟ أم قضى علينا حتى فى الكذب والترهات أن نكون دائماً متأخرات فلا يلبسنا إلا (الشيخة رمانة وسفينة ويوسف مدلع ونحوهم ممن لا يطلبون إلا الخلاخيل والمصوغات والسيوف المذهبة)؟ ألا إننا لم نبرع فى حيلة إلا هذه. تخاف المرأة أن تطلب ملابس وحلياً فيرفض زوجها الطلب فتعمد إلى ادعاء العفاريت والجن لتهديده. أعرف كثيرات ادعين (الزار) فرفض طلبهن وبعضهن ضربن بسببه فلم يعدن إليه. وليت شعرى إذا كانت العفاريت جبناء إلى هذا الحد فلماذا لا يستعمل الرجال العصى وهى كثيرات وإن كنت لا أوافق على ضرب الرجل للمرأة بحال من الأحوال. إنها لتصر على دعوى أن العفريت هو الذى يتكلم بلسانها ويشعر بأعضائها وأنها أعارته ظاهرها، ولا أعلم إلى أين ذهبت هى! إذن، فليضرب العفريت فهو الذى فى ظاهر زعمها يتألم دون أن يصيبها شىء من آثار الضرب!! ولعل المتحضرات الحديثات يدعين قريباً أن الملائكة تقمصت أجسامهن، لأنهن أحكم تصرفاً وأحسن اختياراً كإنما عفاريت الأرض نفدت لكثرة الطلب فانصرفت هممهن إلى السماء، كما فعل مخترعو الطيارات، لما ضاقت بهم فجاج الأرض. وحينذاك يأنفن ركوب الضأن والإبل المستعملين حتى الآن فى الزار فيمتطين المخترعات الحديثة وإن كانت لاتزال خطرة الاستعمال. فلا تتيهن علينا البارونة دى لارو فربما نبغ عندنا كثيرات مثلها، وإن كان باعثهن (مودة الزار) لا العلم. لا أعلم عند الإفرنجية عادة تساوى الزار فى القبح إلا مخاصرة الرجال فى الرقص، وما يتبع تلك العادة من التهتك والتصنع والميل عن جادة الصواب، وما ينشأ عن إباحتها المطلقة بلا قيد ولا وازع من الضرر البليغ والإخلال بالشرف. وأدهى من ذلك أن ينتشر بينهن مذهب حرية الاعتقاد، وهو مذهب من لا يصدق بالله ولا باليوم الآخر. فيزعمن أنهن يجتنبن الرذائل بمحض إرادتهن وتربيتهن، ولكن هل إذا منعت الفضيلة امرأة عن إتيان ما لا يرضى فهل يصح أن تطبق هذه النظرية على كل امرأة؟ ألم يكن الإيمان بالله

وترقب ثوابه وعقابه همـا المانعان لكثير من الناس عن الانتحار والكفـر وإتيان المناكير والفحشاء والخيانة؟ ألا ساء ما يحكمون.

إن النفس لأمارة بالسـوء. ولقد تقدم على كثـير من الموبقات لولا الضمـير الحى وهو ثمـرة الوازع الدينى. أفلا يعـقلون؟ أرانا لا نتـمسك شـديداً بديننا الحنيف وهذا بدعة وعدوى أتتنا من الغـرب. فهلا تفكرنا قليلاً فـيما ينفعنا وما يضـرنا قبل الإقدام على التقليد؟ أو كلما رأينا إنساناً يفعل شيئاً حاكيناه وإن كان فى ذلك هلاكنا وخسارة ديننا ودنيانا معاً؟

المـــأتم: بينا الإفرنجية ورجـالنا أيضاً يجتهدون فى التلهى والتعـزى عن المصيبة، تجدنا بالعكس، نعقد الاجـتماعات لنبكى، ونستأجر الـنائحات (المعددات) ليزيدن نار الأسى تأججاً فى قلوبـنا! وماذا يجدى الحزن وهو لا يرد ميـتاً ولا يعيد مفـقوداً؟ قال أبو العلاء:

غير مجد فى ملتى واعتقادى　　　نوح باك ولا ترنم شاد

وإن من تعـاليم الإسلام أن يصـبر المرء عند الملمـات ويترك ما فـات لما هو آت، والعاقل من يصـرف همه إذ لا معني للعـيش مع البؤس. وإن العمـر إلا أيام تنقضى فلماذا لا تجعلها سعيدة بقدر ما تستطيع؟

المســـرات: إننا فى جلب المسرات لمقـصرات حيال أنفـسنا ومن هم فى ذمتنا من الأهل والأولاد. حبذا لو اتبعنا طريقة المرأة الغربية فى ذلك؛ فـإنها تعقد الاجتماعات وتوالى السمر، وتدعـو أعضاء الأسرة الواحدة وأصدقـاءها لتناول الشاى أو الطعام أو الفسحـة معاً. فيـتجاذبون أطراف الحديث، وهنـالك يبدى كل منهم رأياً أو حكاية لا تخلو من فائدة أو فكاهة. وقـد يصرفون الوقت فى ألعـاب مختلفـة لتنشيط أذهانهم وأبدانهم ويتبـادل المجتمعـون الدعوة كل فى نوبته، فيـتراءى أعضاء الأسـرة الواحدة وأصدقـاؤها كل يوم تقريبـاً فينفـون بذلك همهم ويأنسـون بعضهم ببـعض، وبذلك يعيشون فى وئام ووفاق.

الخدم: المرأة المصرية لا تقدر نفسها قدرها. وطالما رأيت سيدة تضاحك الخادمات

وتكاشفهن بأسرارها فلا يتأخرن عن إذاعتها فى البيوت الأخرى. وهذا من الخطل فى الرأى. يجب أن يعامل الخدم بالرأفة ولكن لا تتعدى تلك الرأفة حدودها. ألم تستغربن مرة من أن خدمنا لا يشتغلون عندنا نصف ما يشتغلون فى البيوت الإفرنجية، ومع ذلك نراهم هناك أنشط وأهدأ خلقاً مما إذا كانوا فى بيوتنا؟ إن السبب لسهل الإدراك وهو أن المرأة الإفرنجية تحفظ هيبتها فيخشاها الخدم وهى لا تخالطهم إلا عند الأمر والنهى ولا تحط من شأنها بمسايرتهم ومضاحكتهم، وتفرض عليهم شغلهم وتريهم إياه لأول مرة ثم تتركهم وشأنهم فيشعرون بمسئوليتهم.

(٥) الدور الخامس؛ دور الأمومة:

هذا الدور مرتبط بدور الطفولة ارتباطاً تاماً حتى يكاد يندمج أحدهما فى الآخر. وعليه فكل ما قلته هناك أقوله هنا.

النتيجة: والنتيجة أن المرأة الغربية سبقتنا بمراحل فى العلم والعمل، مع أننا لا نقل عنها ذكاء. وكل ما لا يستحيل طبعاً فهو ممكن بالمعالجة واتخاذ الجد مطية إليه مهما صعب الطريق واستعصى. فإذا تدرعنا بثبات العزم وقوة الإرادة فإننا نصل إلى ما وصلت إليه من نور العلم ورفعة المقام. ولا يثبطنا قول القائلين «إن الشرق شرق والغرب غرب». فإن التاريخ أعدل حكم، وهو حافل بذكرالشرقيات اللاتى نلن من بعد الصيت ووفرة العلم منالاً كبيراً أيام كانت الغربيات لا ذكر لهن. فاقرأن تواريخ نساء العرب فى الشرق والغرب تجدن نادر الذكاء وجزل الشعر ومتين الأسلوب وما يشهد لهن بعلو الكعب فى العلم والعمل.

إن الضعيف إذا لم يرزق قوة التمييز خيل له أن كل ما يأتيه القوى حسن. ذلك مثلنا أمام المرأة الغربية. فهل تردن أن نثبت للملأ خمولنا وخلونا من التمييز أم تردن أن نعمل على حفظ قوميتنا وتقوية روح الاستقلال فينا وفى الأجيال القادمة من أولادنا؟ إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا أن لا نقتبس من المدنية الأوربية إلا الضرورى النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا. نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل. نقتبس منها أساليب التعليم والتربية وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة. وإنما لا يجوز فى عرف الشرف والاستقلال أن نندمج فى الغرب فنقضى على ما بقى لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة.

وفى الختـام؛ لا يسـعنى أيهـا السـيـدات إلا أن أشكر لكن حسن إصـغـائكن ومؤازرتـكن إياى بالحضـور. وآمل أن نسمع ونعى. ولا أخـالكن إلا عازمـات على محاربة جمـودنا القديم وعلى العمل معاً لرفع شـأننا وشأن هذا الوطن المفدى. والله أسأل أن يوفقنا ويهدينا سواء السبيل.

قصيدة نسائية لباحثة البادية

وسبب إنشائها أن شاعر النيل أحمد شوقى بك أدرج فى الجريدة قصيدة مطلعها:

صداح يا ملك الكنا ... ر ويا أمير البلبل

ومنها:

بالرغـم منى ما تعالـج ... فى النحاس المقفـل
والقيـد لو كـان الجمـان ... منظمـاً لـم يجمـل
صبـراً لمـا تشقى بـه ... أو مـا بدا لك فافعل
أبداً مـروع بالإسـار ... ر مهـدر بالمقتل
إن طرت عن كتفى وقعـ ... ت على النسور الجهل

وقد أهدى قصيدته هذه للباحثة. فظن بعضهم أنه ينعى حالة المرأة ويتأسف لإقامتها فى البيت، ويعتذر عـن الرجال بالخوف عليها من تطاول السفهـاء. فلم يقبل هذا العذر وكتب فى الجريدة إلى شوقى بك على لسان الباحثة قصيدة منها:

سميتنى مـلك الكنار ... وأنت رب المـنزل
وجعلتنى رهنـاً لأقـ ... ـفاص الحديد المقفـل
غللتنى وسجنتنـى ... خوف اصطياد الأجدل
إن لم تكن لى حارساً ... من كل عـاد مقبـل
فـالحصن والبيـداء يستويـان عنـد الأعزل
لو كـان حبك صادقاً ... لفككتنى من معقـلى

وذهب بعض آخر لتأويل غير هذا؛ فرأت الباحثة أن هذه التأويلات كلها بعيدة عن الصـواب، وأن قصيـدة شوقى بك يـجب أن تفسـر بتفسـير آخـر، وهو ما ذكـرته فى

قصيدتها وهي:

يا هذه لا تعذلى   وإذا أبيت فقللى
أفرطت فى لومى ولو   أنصفتنى لم تفعلى
لا خير فى نجوى بغـ   ـير روية وتعقل
ماذا فهمت من الكنار   ومن حديث البلبل
حتى سخطت على المعيـ   ـشة فى ظلال المنزل
ووددت أن تجدى مقا   ما بالعراء فتنزلى
أو دمنة عند اللوى   بين الدخول فحومل
رب الكنار أظنه   عما زعمت بمعزل
خال الكنانة طائراً   والشعر حسن تخيل
فحنا على مثواه فى   قفص النحاس المقفل
ونعى زمان مراحه   بين الربى والجدول
والقيد ذل لو يكو   ن خلاخل فى الأرجل
وغدا يعزيه ويأ   مره بحسن تجمل
ويقول إن الحبس حر   ز من تقضى الأجدل
أهدى القصيدة فى   الجريدة لى هدية مفضل
كمؤلف يهدى الكتا   ب إلى سرى أمثل
يرمى إلى تشريفه   ويخصه بتطول
هى عادة مألوفة   فى الناس منذ الأول
فشكرت مهديها وقد   قابلتها بتقبل
هذى الحقيقة يا فتا   ة تلوح للمتأمل
لكن جهلت الأمر   والمعهود أن لا تجهلى
مجد الفتاة مقامها   فى البيت لا فى المعمل
والمرء يعمل فى الحقول   وعرسه فى المنزل
كم خدمة يقضى نظام   البيت إن لم تعمل
من للوليد يعينه   فى لبسه والمأكل

ويميط عنه أذى الهوى　　بتلطف وتحيل

من للرضاعة والحضا　　نة والفطانة وما يلى

من للمريض يحوطه　　أبداً بدون تململ

يجرى على وصف الطبيـ　　ـب على الطريق الأفضل

من للأثاث يصونه　　من للذخائر والحلى

من يطعم الغرثان من　　متزود ومحوصل

إن الدواجن والطيور　　تموت إن لم تأكل

من يقسم المذخور بين　　الحال والمستقبل

من ذا يعلم خادما　　ت البيت فعل الأكمل

لكن إذا دعت الضرو　　رة للخروج فحيهل

سيرى كسير السحب　　لا تأتى ولا تتعجلى

وتنكبى نهج الزحام　　وفضلى النهج الخلى

لا تخضعى بالقول أو　　تتبرجى أو ترفلى

لا تكنسى أرض الشوا　　رع بالإزار المسبل

أما السفور فحكمه　　فى الشرع ليس بمعضل

ذهب الأئمة فيه　　بين محرم ومحلل

ويجوز بالإجماع منهم　　عند قصد تأهل

ليس النقاب هو الحجا　　ب فقصرى أو طولى

فإذا جهلت الفرق بينهما　　فدونك فاسألى

من بعد أقوال الأئمة　　لا مجال لمقولى

فعلام أكثرت الملامة　　وانضممت لعذلى

وسقيتنى من مرقو　　لك مثل نقع الحنظل

ونسبتنى حيناً لمذ　　هب قاسم وأبى على

تعنين ويلك أنتى　　أمارة بتبدل

أدعو النساء للعب با　　ريس ولهو بروكسل

ونسبتنى حيناً إلى　　تحميل ما لم يحمل

جعل الحرائر كالإما ... ء خوادماً للمنزل

ليس الكلام بمبهم ... فتفسرى وتؤولى

لا ينفع التشكيك والت ... أويل فى الأمر الجلى

قلت النقاب سكت عن ... ه نعم بدأت فكملى

ولأى شىء ياتر ... ين بغيره لم تحفلى

كم مبحث ما جلت فيـ ... ـه وجل من لم يغفل

من ذا الذى جاءت مقا ... لته بكل مؤمل

لا أبتغى غير الفضيـ ... ـلة للنساء فأجملى

إن لم ترى رأيى فيا ... «ويل الشجى من الخلى»

باب التقاريظ

مرتبة بترتب ورودها

جاء من صاحب الفضيلة الشيخ عبد الكريم سلمان رئيس تفتيش المحاكم الشرعية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق الحمد والصلاة والسلام على سيدنا محمد فوق العدو على آله وصحبه رجالاً ونساء يتجددان كل يوم صباحاً ومساء.

أما بعد، فإن كان لمذهب دارون وجه من الصحة فليكن فى ترقى العقول واستنباط المجهول من المعقول وفى تولد المعلومات بعضها عن البعض، أما فى نوع العالم، وهو بنو آدم، فلا نراه مصيباً، إذ الآدمى آدمى أينما كان وشكله شكله فى كل زمان ومكان.

أصدق الأدلة على ترقى المعلومات وتوالدها وتنوعها الذهاب إلى ما يقرب من الطوفان والمشى معه إلى هذا الزمان. فقد نرى فى زمان نوح شكل الإنسان على ما هو عليه الآن، ولكننا نراه فى معلوماته قد تغير تغييراً تاماً بحيث يمكننا أن نحكم بانقطاع النسبة، أو تبدل النوع بين معلومات هذا الزمان وزمان الطوفان.

نحن فى غناء عن سرد حالة هذا الهيكل الإنسانى فى معلوماته القديمة والحديثة فما من نفس إلا وقد تتصور الفرق بين العهدين وأن هذا الجديد كخلق جديد.

يمكننى أن أذكر شيئاً سمعته من أسن رجل لقيته فى حياتى، وكانت سنه إذ ذاك تتجاوز مائة عام، وسنى سبع عشرة على التقريب، قال ما معناه (إننى وأنا شاب ذهبت إلى إحدى الأسواق الريفية، ثم رجعت منها حائراً فى أمرى، فحدثت أبى بما عاينت وقلت: يا أبتاه رأيت اليوم فى السوق عجباً. فاعتدل وسأل: ما هو؟ فقلت: رأيت امرأة فى السوق، وما عهدتها قبل هذا النهار إلا قعيدة البيت. فقال له أبوه: يا ولدى لا تعجب، فإننا قربنا من آخر الزمان الذى تقول فيه الملاحم وتعلو «الحجول على الخيول» فاللهم نجنا، ولا تبلغ بنا فى حياتنا إلى ذلك الزمان). ا.هـ هذا الحديث.

فأين المرأة التى حدث عنها محدثى هذا وزمانها لا يتجاوز المائة والعشرين سنة،

وقد كان مـقرها كسر بيتهـا تخرج منه إلى قبرها، وأين المرأة فى هذا الزمـان فقد تراها على وشك الإسفار حاملة قمطرها ذاهبة إلى مجتمع فيه كثير من النساء يعددن بالمئات، وفيهن كثير من المتعلمات، فتـصعد بينهن على منبر الخطابة، ثم تقول وتعيد ذاكرة حال النساء ولزوم تربـيتهن ووجـوب تعليمهن، مـبينة فـوائد تعليمهـا، مندّدة بالمواضى فى جهلهن، حاضة على تسوية النساء بالرجال فى الاستفادة من العلوم. فيقابل المجتمعات قولهـا بالرضى والقبـول والإذعان للحـجج والبينات التى أقـامتـها على وجـوب تربية البنات.

يظهر أننى أسرعت فى الانتقال إلى المقصود من كلماتى هذه، كما أسرع الزمان فى تبديل حال النساء فى بلادنا من تلك الجهالة العـمياء إلى هذه المعرفة العلياء. وإن كانت هذه المعـرفة تعد بالنـسبة للآتى شـيئـاً قليلاً أو لا يكاد يذكـر فى جانب مـا هو منتظر الحصول.

بالطبع قد عرف أننى أقصد التنويه بالسيـدة الفاضلة الباحثة فى البادية (ملك حفنى ناصف)، فقد رأيت مجـموعتها التى أدرجت فى الجريدة منذ زمـان، وطالعت معظمها بإمعان، ولـم أطالع البقـية لقرب عهدى بها منشورة فى الجريدة، فـإذا فيها من المباحث العلمية والفوائد الاجتـماعية ما يعظم نفعه ويكون أساساً فى المستـقبل لبناء جديد نضيد يخرج المرأة المصرية إلى عالم المشاركة الحقيقـية للرجل فى التربية والمعيشة. وبهذا يكون لهذه السيدة فضل المؤسسين.

إنى رأيت فى كتـابة هذه السيدة حدة فى بعض الموضـوعات، وكأنها مـعذورة فى حدتها لامتلاك الموضوع نفسها وحواسها، فكتبت فيه وهى ممتلئة حنقاً ولو ملكت نفسها لخفضت من حـدتها وأتت بالخاص مكان العام، أو بالبعـض مكان الكل، وبهذا كانت تسلم من الاعتراض، وتغنى نفسها عن تدارك ما وقع فى مقال ثان، وليس هذا بالشىء إلا من جهة صناعة الكتابة والعذر فيه هو ما ذكرناه.

رأيتها فى موضوع الحجاب تضرب البـحر بعصا موسى، ولكنه لم يطعها، بل بقى عريقاً عميقاً، فى صفاء مـائه ما يغنى عن انفلاقه، وستظهر الأيام أن رأيها فى الحجاب رأى لم تقدر على تخـميره، ولم تملك حرية القـول فيه، وإننى لست معـها فى أمره، وأرى غير ما تراه فيه.

أيتها السيدة الفاضلة لا تبالى بما يتعرضك فى طريقك من قول اللائى لم يشمن نور العلم (ما للسيدات وللخطابة، ومالهن وللكتابة، وإن رضى أبوها فكيف رضى زوجها، وإن رضى زوجها، فكيف رضيت عشيرتهما) فإن العلم دائماً محسود أهله، ولن يغلبه الجهل مهما كثر مشايعوه.

أى بنية أخى إنى أراك قد نبغت بين قريناتك، واتخذت لك طريقاً لم يسلكه قبلك منهن ولا واحدة، فكنت لهن قدوة صالحة، فكثر بوجودك بينهن عدد الكاتبات القارئات المتعلمات إلى الدرجة الابتدائية، ثم تدرج منهن بعضهن إلى التعليم الثانوى والعالى. فثابرى بلا مبالاة على خطتك هذه، وأصمى أذنيك عن لوم اللائمات، فما هى إلا مائة وعشرون سنة يكون الفرق بين نسائها وبين نساء اليوم ما كان بين نساء اليوم ونساء تلك المائة والعشرين عاماً.

أيتها الفاضلة ناشدتك الله أن تكونى لبنات زمانك هذا قدوة فى عملك بما تقررينه فى أقوالك وخطاباتك حتى يكون نصحك مقروناً بالإجابة، مصحوباً بالقبول، وإنى لأعلم منك ذلك، ولكن لابد من أن أنصحك به، لأنه إذا ظهر على الناصح عمله أولا بنصائحه قبله المنصوح ورسخ فى نفسه العمل به، وبهذا تكونين قدوة صالحة لأخواتك فى الأعمال والأقوال.

أيتها السيدة إذا كتبت بعد هذا الذى رأيته فأمامك ضرب المثل بالبعض وإياك والحكم على الجميع فإن فى هذا إغراء بالمخالفة، وليس هذا مما يقصده المؤسسون، وبعد هذا فللّه أنت ولله أبوك ولله بعلك وفى سبيل الله ما تقاسين من عناء وما تكابدين من محاولة هداية وإرشاد. حقق الله آمالك وأقر عينك بنيل ما تطلبين لأخواتك من الخير العاجل والسلام.

عبد الكريم سلمان

جاءنا من صاحب السعادة إسماعيل صبرى باشا، وكيل نظارة الحقانية سابقاً:

بنت أخى العزيز حفنى بك ناصف:

نشرت كتابك دواء لعلة من علل الوطن، ذلك المريض العزيز فى وقت اجتمعت حول وساده الأطباء والرقاة، هذا يصيح وهذا يولول وذاك يكتب وذلك يخطب وذياك ينادى بالصمت ويشير بترك العليل للطبيعة، تعمل فيه عملها، إن خيراً وإن شراً.

وكل يدعى حباً لليلى   وليلى لا تقر لهم بذاكا

فنظرت أنت ببصيرتك الوقادة وفكرك الصائب فى جسم المريض، وفتشت فى مظان العلل، فعثرت على أشدها فعلاً فيه، ودونت مقالاتك فى كتاب جمع من الآراء النافعة والأفكار الناجعة ما لو عولج به ذلك المريض لذهب بأصل أمراضه وقرب للأطباء والرقاة يوم شفائه.

أجل، يا بنت حفنى، إن تربية بنات مصر لهو العلاج الأكبر الذى غاب عن أكثر الباحثين فى أسباب انحطاطنا وثقل خطانا فى طريق التقدم.

أجل. إن الفتاة إذا أصبحت أماً وكانت متعلمة متهذبة آخذة من أسباب التربية بما تشيرين به كانت لولدها فى مهده ملكاً حافظاً، فإذا حملته رجلاه سددت خطاه، فإذا انطلق لسانه هذبت كلماته، فإذا سلم لمعلم كانت رقابتها نافعة فى حث الصغير على الاستفادة وحمل المعلم على الإفادة.

إذا أماً دامت والعياذ بالله على ما نراه من الجهل كانت الحال على عكس ما قدمت، ولو لم يكن فى تعليم البنات وتهذيبهن إلا ما ننشده من الوفاق والوئام بين الزوجين وتقليل الطلاق والاكتفاء بزوجة واحدة، تقرباً من العدل الذى أمرنا به كتابنا الحكيم، لكفى كل ذلك مقرظاً لكتابك النفيس، وآرائك الصائبة. والخلاصة؛ أن ما جاء فى كتابك متعلقاً بتعليم البنات وتأديبهن وتهذيبهن يعد من أجل الخدمات للوطن فى زمن تشكلت فيه الوطنية أشكالاً شتى، لا يلائم أحدها حالتنا الحاضرة والظروف التى غيرت وجوه الحكمة بيننا.

إن لرقى مصر أبواباً عديدة. أراك قد فتحت أوسع باب منها، فكانت بك ربات

الجمال سـابقة أرباب السيف والطيلسـان إلى أجل خدمة تؤدى لمصر. ولا أخـال شبابنا وكهولنا إلا فاتحين الأبواب الأخرى؛ أبواب العلم والعمل والصناعة والتجارة والزراعة، وغيرها من أبواب الخير والسعادة المؤدية إلى اسـتقلال الوطن، والتى يعد كل منها مؤدياً إلى استقلال نوعى تسعد به البلاد إلى أن يأتى يوم الاستقلال الأكبر.

أما من جهة الحجاب، وما أدراك ما الحـجاب، شيء يظنه البعض أسراً واسترقاقاً، ويعتقد البعض أنه سعادة وسيادة، فـالذى أراه فيه هو أننا رأينا المرأة متأخرة فى حجابها فاستنكرنا تأخرها والحـجاب معه، ولو كنا عاقلين لانتظرنا اليوم الذى نراها فيـه متعلمة مـرباة، فربما حكمنا غـداً بأن الحجـاب أنفس حلى المرأة الراقـية. بارك الله فـيك وفى كتابك، وجعله مرجعاً نافعاً لطلاب رقى نصيف أهل مصر؛ أعنى نساءها، بل كل أهل مصر بفضل تهذيب نسائها ورجالها. آمين.

جاء من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز جاويش:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده. وبعد ذلك، أنا قلت كلمة فى النسائيات التى وضعتها السيدة الجليلة «ملك حفنى»، فما أنا بمقتف أثر المقرظين ولا متساهل تساهلهم (على عادتى قبلا). فإننى تصفحت هذه العجالات الثمينة واستوعبتها درساً وبحثاً، فوجدت بين دفتيها من النصائح الأدبية والمسائل الاجتماعية ما لو بنيت عليه تربية البنت فى بلادنا لسلمت منازلنا من كثير من ضروب الشقاء، الذى ابتلى به الشرقيون منذ تركوا تعاليم دينهم، وانحرفوا عن الصراط السوى فى معاملاتهم. لقد وصفت السيدة الفاضلة أكثر عللنا الاجتماعية ومبلغ آثارها فى حياتنا المنزلية وشؤوننا المدنية، فكانت فيما وصفت خير من يعتمد عليه فى تعرف شؤوننا، ثم جعلت تصف لكل علة من طرق العلاج ما لو أخذت به النابتة منذ النشوء لصلح حال الأمة فى جميع أطوارها ولنبلت مبادئها وغايتها. ولقد رأيتنى إزاء كل باب من أبواب هذه المجموعة أقلب بصرى فى حقائق، بيد أنها كما يقال فى المثل حقائق مرة لا يجمل بالمصرى الصبر عليها ولا يمكنه التبجح بإنكارها. على أنها قد هونتها العادة على النفوس حتى مرت الأيام تتابع والأجيال تتعاقب دون أن ينتبه لرذائلها وسوءاتها الرجال، فضلاً عن النساء، إلى أن وفق الله لهذه الأمة سيدة كاتبات هذا العصر، وأستاذة المربيات فى مصر، فوضعت هذه العجالات التى ستكون فاتحة تاريخ جديد للتربية الصحيحة القويمة التى أساسها إصلاح المرأة والرجل اللذين عماد كل شىء فى الحياة الدنيا.

ولقد كاد قلم قاسم أمين يجلب البلاء على المسلمين والمسلمات بما وضعه من الكتب فى موضوع المرأة، لولا أن تنبهت لما يريده النابتة الإسلامية فجعلت تطارد تعاليمه وتحارب إرشاداته. وإذا شئنا أن نضرب مثلاً للمجاهدات والمصالحات، اللاتى تقصين بآياتهن البينة ما أودعه كتبه من النصائح البعيدة عن روح الإسلام، فإننا لا نجد أحسن من تلك السيدة الفاضلة التى بنت نصائحها على الإسلام، وحرصت على تقاليد المسلمين.

على أننى، وإن عجبت بكثير مما جاء فى مجموعتها هذه من الآراء السديدة، فإننى لا أحب أن أزايل موقفى هذا دون أن ألاحظ على السيدة الفاضلة هفوة عرضت لها فى

باب مساوئ الرجال (الازدراء بالمرأة) طالباً منها بما ورد لها فى باب النقد أن تتقبل كلمة لم يملهـا على إلا الإخلاص لها، والمـيل إلى المصلحة العـامة، فلقـد صورت فى ذلك الباب المرأة فى نظر الرجل اليوم على نحو ما كانت عليه فى الجاهلية الأولى، وهذا أمر قلما طابق الواقع، وهل كـان من حرج على السيدة أن توسع المسـألة بحثاً، وأن ترقب اليوم الذى تترجم فيه مقالاتها إلى اللغـات الأجنبية، فتنشر أحكامها على هذه الأمة فى العالم الأوربى الذى يجهـل معنى الغلو البديعى، وإنه من المحسنات فى اللغـة العربية، حيث يعـتقد الأوربيون، لاسيـما نساؤهم، أننا اليـوم على ما كانت عليه جـاهليتنا منذ أربعة عشر قرناً. وناهيك بما يحدث هذا القول فى العالم المتحضر من الآراء، وما يجلبه علينا بعد ذلك من البلاء.

تقول السيدة الفاضلة فى ذلك الفصل إن الجاهلية ما حبب إليها الذكور وبغض إلى نفوسها البنات، إلا حاجتها إلى الحرب والطعان فى سبيل حماية ذمارها، فكان لها من هذا عذر مـقبول، وأما هذا الزمـن فزمن السياسـة والصناعة إلى آخر مـا قالت فى هذا الباب. وإننى أستمحيها عـفواً أن أصرح هنا بأننى لا أكاد أطابقها على شىء مما جاء لها فى هذا الباب من الأحكام، وما التمسته من العلل، واستخلصته من النتائج والآراء.

وإننى لعلى يقين أن السيدة الفاضلة لو زادت هذا الباب عنـاية وبحثاً لما وجد منتقد سبيلاً إلى كلمة يقولها فى أكثر موضوعات هذه المجموعة الثمينة. فحسب الأمة المصرية الإسلامية ما دون ذلك من الأبواب الاجتماعية الأدبية التى طرقتها، فإن فيها من الحكم الغالية والنصائح العالية ما هو كفيل لسعادتها، إن شاء الله تعالى.

عبد العزيز جاويش

هذا ما كتبه سعادة العالم أحمد بك زكى، سكرتير ثانى مجلس النظار.

لست بميال لإطراء بنات الأفكار، إذا تضمنتها بطون الدفاتر والأسفار. ذلك لأن الثمرة التى تتولد عن القرائح والأذهان، إذا جاء معها لقاح المدارك والأفهام، هى التى تنادى بنفسها على نفسها، وتدعو الرأى العام إلى الحكم عليها أو لها. بل هى التى تقتضى الرواج والإقبال، بطبيعة الحال، سواء تبرع بمدحها قطب من أقطاب الآداب، أو تطوع لتقريظها علم من أعلام الكتاب.

كنت، ولا أزال أعتقد، أن التقريظ جناية على العلم الصحيح، وعلى ارتقاء الأمة فى معارج العرفان. وها هى كتب المتقدمين خلو بالمرة من هذه البدعة حتى إذا تصوحت زهرة الآداب ظهر التقريظ، فاعتمد حملة الأقلام على مجاملة الأصدقاء والخلان. حينئذ تهافت الناس عليه تهافتاً اختلط فيه الحابل بالنابل، والغث بالسمين، والتافه بالثمين. هذا التهافت هو الذى أفسد الأذواق، فتبدل النفاق بالنفاق، وكسدت أسواق الأوراق.

إنما يكون التقدم بهجر التقريظ ومقاطعته، وبالتعويل على النقد الحقيقى الذى قرره العلماء فى أيام تقدم الإسلاميين. وهو الذى عول عليه جهابذة أوربا فى هذا العصر. وذلك أن يتوخى الكاتب إظهار ما فى الكتاب المعروض عليه من الحسنات وآيات البراعة، مع الإشارة إلى ما فيه من العيوب بغير تحامل. ومن الواجب فى هذا السبيل التماس المعذرة فى بعض الأحايين، والدلالة على طرق التوسع وشفاء الغليل.

لو عاد قومنا إلى منهاج السلف الصالح والصدر الأول، لكان سعيهم محمود المغبة، مشكور العاقبة. لا جرم، إذن، أن تعود المعارف فى ربوعنا إلى بهجتها الأولى، ونبنى على ما كانت أوائلنا.

تلك الخواطر، لو اشترك فيها النساء مع الرجال، لكانت مقدماتها صحيحة القياس. وهذه المبانى، لو تعاون الصنفان على إقامتها، لكانت وطيدة الأساس.

ولقد شمت اليوم بارقة الأمل، فأمسكت اليراع، وأجريته على القرطاس، لأشكر الثلاث: صاحبين من خيار الرجال، تعززهما ثالثة يعتز بها كل منهما، ولا فخر، لأنها فخر الإناث.

أمعنت النظر فى السلسلة الأولى من «النسائيات» التى صاغت حلقاتها يد لصاحبتها

كما لأبيها، ومن كمال بعلها، أياد على الآداب والفضيلة. فلم أعجب من صلاح ذلك الغرس الطيب، وإيناع هذا الثمر الشهى، وقد تعهد تلك البذرة الصالحة المباركة، الباسل «حفنى» فى إبان الصبا، والمنصف «الباسل» فى ريعان الفتوة.

فيارعى الله ذاك القناع، وذياك اليراع! فقد برزت بهما تلك الفتاة فى مضمار الحياة. فأثبتت أن فى السويداء إناثاً يضارعن الرجال، إذا هن أخذن بالعلم الصحيح والعمل النافع، وتهيأت لهن الأسباب، مع التمسك بأذيال الحشمة والكمال.

مرحى مرحى! بـ «بملكة» ظهرت فى عالم الإنس بين النساء، فأكبرها الرجال. لأنها أعادت لنا ذلك العصر الذهبى الذى كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم: فى ميدانى الكتابة والخطابة!

لو لم يكن للسيدة «ملكة الباسل» سوى أنها أول من برزت فى هذه الأيام بحجابها وآدابها، لإلقاء الخطب على أترابها، لكفاها فخراً فى الأواخر أن اسمها سيخلد فى «كتب الأوائل». إذ يقال إنها من المجتهدات المجددات لأنها أول من أعادت الخطابة إلى فريق من النساء، بعد أن انطمست معالم هذه السنة، منذ ست مئين من السنين. سنة أخذها الغرب عن العرب فارتقى، وأهملها الشرق فانزوى، وقعد بهن وبنا.

إحياء هذه السنة على يد هذه الفضلى، هو الذى حدانى إلى كتابة هذين السطرين: لإطراء النساء، لا لإطراء «النسائيات». فهو كتاب ينطق بنفسه لصاحبته، بل هو غنى عن التقريظ لرقة عبارته، ولطف أسلوبه، ولبسالة صاحبته بنوع أخص.

نسأله تعالى أن يكثر بين ظهرانينا من أمثال أولئك الثلاث. فكل منهم فرد فى بابه إن شاء الله!

رمل الإسكندرية فى ٣١ أغسطس سنة ١٩١٠.
أحمد زكى.
السكرتير الثانى لمجلس النظار.

جاءنا من حضرة الفاضل الشيخ حسين والى، الأستاذ فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى:

أباحثة البادية شكرانك فى البدو والحضر. فقد أرانى كتابك علم عائشة بنت الصديق، وأدب سكينة بنت الحسين. وأذكرنى عهد الحضارة الإسلامية وقد بدا كوكبها فى أفق المشرق. ذلك العهد المتقادم الذى تسابقت نساؤه ورجاله فى المعرفة فكان الفضل للسابق. كفضل هاتين السيدتين على غيرهما من نساء ورجال. لعمرك ما كان نبوغهما مقتضباً اقتضاباً. إذ كان من دونهما مراتب للرجال وللنساء، مراتب متفاوتة بحكم الترقى والاستعداد، ومستباحة بحق الإسلام، فالزمان يومئذ زمان العدل والنصفة. والعلم يومئذ علم اليقين والتهذيب.

(روى البخارى) عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: نساء قريش خير نساء ركبن الإبل أحناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده.

لقد بين النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تاريخ المرأة العربية التى كانت تركب البعير فى البادية. فقال: إنها كانت تحنو على طفلها وتحفظ مال زوجها. والحنو الصحيح هو التربية الصحيحة. وحفظ مال الزوج هو الاقتصاد فيه، ولا يكون ذلك إلا بعد العلم بوجوه صرفه ووضع الشىء فى موضعه. والحكمة كل الحكمة فى تربية الطفل وحفظ المال، فإن فى هذين الأمرين عمران الكون وبهجته ــ المال والبنون زينة الحياة الدنيا.

وقال: إن المرأة القرشية أحنى على طفلها وأحفظ على مال زوجها من العربية الأخرى. فالقرشية أفضل من غيرها لهذه المزية لا لشىء آخر. فالفضل إنما هو بالعلم والعمل.

أثنى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على نساء العرب بما أحرزن من فضيلة توافق زمانهن، ورفع القرشيات عليهن درجة، كما هو شأن البيوت العالية فى كل جيل. فإن أهلها يفوقون غيرهم فى كثير من الأمور.

فالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يأمر أمته أن تجرى على هذا السنن: سنن العمران والسعادة.

ففى الحــديث إشارة إلى بيان أســاس البيت، الذى تتألف منه القــرية والبلد والمصر والقطر والمملكة.

وفى الحديث إشارة إلى بيان نصيب المرأة فى الحياة الدنيا، وأن قسمتها ليست قسمة صغيرة.

وعلى ذلك درج الناس فى القرون الأولى من الإسلام. ثم خلف من بعدهم خلف أنزلوا المرأة من مكانتها وبخــسوها حقها. والله يقول: ولا تبخــسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين.

ولما قهروها وضــموا حقها إلى حقــهم ضعفوا أن يؤدوا الحقين فوقــعوا فى الحرج. فلما استحكمت حلقات الأزمة أخذوا يفكرون فى الخروج من هذا المأزق فكان كل امرئ منهم يرى رأياً حتى كثرت الآراء واختلطت الأمور وأظلمت الآفاق وطمست الطرق.

رويدكم أيها الناس فهذا (كتاب النسائيات) يبين لكم الجادة من مكان قريب، ويقول إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعماً يعظكم.

أباحثــة البادية؛ قرأت كتــابك فأنبأنى أن الزمــان قد استدار كــهيئــته يوم خلق الله السمــوات والأرض، فأخــذ الناس يهتــدون بهدى الفطرة، وأنســانى أسفى علــى عبث الرجال بنصف الأمة. وأخبــرنى أن التاريخ يعيد نفسه فــتستوى المرأة والرجل رغم أنف الجاهلين.

أباحثة البادية؛ قرأت كتابك فأنشدت قول ابن هانئ:

ولو جاز حكمى فى الغابرين	وعدلت أقسام هذا الــورى
لسميت بعض النساء الرجال	وسميت بعض الرجال النسا

أباحثة البادية؛ قــرأت كتابك فألقى فى روعى أن أكون مستــقل الرأى كما أعرف نفــسى. وأذن لى أن أدخل باب الكلام مــتأدباً كــمــا تعودت. وألا أتعــرض إلا إلى العظيم من الأمور. فإن ائتلف الرأيان فالخير فى الائتلاف، وكفى الله المؤمنين القتال. وإن اختلفا فهــذه عادة الناس فيما هو من عند غيــر الله، ولا يزالون مختلفين إلا من

رحم ربك. وربما كان الاختلاف مبدأ الائتلاف. وعند ذلك لا يشين السبب المسبب (كما لا يشين الكلف البدر).

رأيت فى المقالة (١) أن المرأة الحاضرة تفهم معنى الحياة أكثر من الغابرة لأن ذلك مقتضى سنة الله فى رقى الزمان.

ولكن المرء إذا زاد علمه عرف وجوهاً كثيرة من النفع، ووجوهاً كثيرة من الضرر. فإذا كان العلم غير صحيح، لم تتهذب النفوس، فلا تكون المعاملة بالحسنى، وقد يكون الضرر أكثر من النفع. فالجهل البسيط خير من الجهل المركب.

ورأيت فى المقالة (٢) أنه لا يجوز أن تلبس نساؤنا كلباس الراهبات المسيحيات، لأنه وإن أباحه الدين، بضرب من التأويل، يضيع تاريخ نسائنا ويذهب مميزاتهن، وذلك يمنعه الدين بضرب من التأويل. وإذا دار الأمر بين الإباحة والمنع فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، والاحتياط فى الأمور أولى، فينبغى أن تبقى النساء على لباسهن لباس الجو والعشيرة، ويقتصدن فيه اقتصاداً لائقاً، وإذا زادت نفقته فالزيادة يسيرة ومثلها يمكن تحمله بلا ضرر.

ورأيت أن خروج نسائنا سافرات مضر، عند عدم التهذيب، ومبدأ ضرر عند كمال التهذيب.

ورأيت أن خلاف أئمة الدين فى مسألة السفور لا يكون إلا عند أمن الفتنة حالاً ومآلاً. فإن خيفت الفتنة فلا خلاف فى أن الواجب عدم السفور.

يزعم الناس أن علم أوربا كامل، ولست أزعم ذلك، لأنه لم يمنع الفساد المترتب على السفور والمخالطة فهو فى الحقيقة علم ناقص.

ورأيت فى المقالة (٣) أن المتعلمين من أهل مصر أكفاء للمتعلمات من أهلها، لأن الدرجات متقاربة. ولا يضر التفاوت اليسير. والكلام فى كفاءة التربية.

ورأيت أن اقتباس الأدب من دار الخلافة ضرورى، فيلزم أن يجاء بطائفة من المعلمات للتربية، كما جئ بمعلمين ومعلمات من جهات أوربا الأخرى، لنأخذ من كل جهة ما نحن فى حاجة إليه. وإذا أمكن إرسال طائفة من النشء إلى هناك فلا بأس، ولكن على شريطة أن يكون معها من يقوم بأمرها ويراقب أخلاقها التى تريدها، وذلك لا يذهب بنا إلى عقدة النسب فإنى لا أجيز النسب من عنصرين مختلفين يؤخذ على

أحدهما شيء إلا عند الحاجة الشديدة. فإن العرق دساس.

ورأيت في المقالة (٤) أنه يجوز لبعض المتعلمين أن ينأى عن ناقصة العلم والتربية إلا إذا استطاع أن يقوم من أودها بحكمته. وإن كامل التهذيب يستطيع ذلك، فإذا قصر فهو نصف رجل. ومن أراد سعادة قومه وكان ذا عزيمة أمكنه أن يختار جاهلة لا يصعب تعليمها فيتزوجها ثم ينشئها بالتعليم خلقاً جديداً. فالمدرسة تعلم من ناحية، والرجال في بيوتهم يعلمون من نواح أخرى ما تمس إليه الحاجة، فتكثر المتعلمات في وقت قريب. وإن كان بعضهن أكمل تربية من بعض.

ورأيت في المقالة (٦) أنه ينبغي أن يتراءى الرجل والمرأة قبل الزواج في حضرة بعض المحارم. فترى المرأة من الرجل هيكله العادي، ويرى الرجل منها مثل ذلك ووجهها وكفيها ويحادثها وتحادثه حتى ينجلي الأمر، فإن ذلك نموذجهما. وكثيراً ما يكون النموذج صادق المخبر — وإذا جاز للرجل أن يرى وجهها وكفيها بلا داع عند بعض أئمة المسلمين فالأولى أن يرى ذلك عند خطبة الزواج مع الاحترام — هذه سنة إسلامية معقولة، وفي العمل بها إنقاذ الأمة من وهدة الشقاء، فإن الطلاق قد ينشأ عن قبح الذات كما ينشأ عن قبح الخلق.

وهناك صنف من الناس تدور عصم نسائهم على ألسنتهم، فيحلفون بالطلاق كثيراً، ويعلقون الطلاق على أمور منها اليسير والخطير، وربما لم يكن لها ارتباط بالمرأة البتة. وكم من نساء ذهبن في سبيل هذه البدعة، وأصبحن مطلقات بلا ذنب، وبلا علم، وأمسين مسهدات يندبن حظهن، وهن يزعمن، فيما يزعمن أن الشريعة تبيح ذلك الطلاق، فيكتمن ما في أنفسهن ويتكلفن الصبر فيما بعد — حاشا لله أن يأذن في ذلك، فما كان الله ليعبث بخلقه ويتركهم يجهلون ولا يقفون عند حد محدود.

ذلك الطلاق ضلالة يتبرأ منها الدين. ولم يحصل نظيره في عهد النبوة والخلافة. فهو طريقة باطلة. وشريعة عاطلة. فيجب على المسلمين ألا يأخذوا به، ويجب على ولي الأمر أن يضع للناس حداً في الطلاق كما وضع حداً في بيع السلعة الحقيرة عملاً بحديث (إنما البيع عن تراض).

ورأيت أنه يجوز أن يكون أحد الزوجين غنياً والآخر فقيراً مع العفة والمعروف.

ورأيت أن الأولى في هذا الزمان أن يتعاون الناس على مقاومة الجهل من جميع

النواحى؛ ومن ذلك أن يتزوج العالم جاهلة، وتتزوج العالمة جاهلاً، لأن شأن العلم النفوذ، فهو يسرى من المرأة إلى الرجل كما يسرى من الرجل إلى المرأة.

وربما كانت هذه الطريقة عند المصلحين أولى من كون الزوجين عالمين ابتداء. فإن المتعلمات الآن أقل عدداً من المتعلمين، ولا سبيل إلى تعليم الجاهلات عند الكبر إلا زواجهن من المتعلمين. والعلم فريضة على الأمة كلها فهى متضامنة فى ذلك.

ورأيت فى المقالة (٧) أنه يجوز أن يجمع الرجل بين زوجين فأكثر عند الحاجة الشديدة، وظهور المصلحة فى ذلك، والقدرة على إرضائهما أو إرضائهن جهد استطاعته. على شرط أن يكون الجمع أخف من مفسدة تركه. وإن بعض الكبراء فى مصر يغش زوجه ويخدعها بعدم زواجه عليها ويريها أنه لها، ثم هو يأتى المنكر من حيث لا تدرى وربما رضيت أن يأتى المنكر مادام ممتعاً من زواج غيرها. الغش ظلم والرضا بالمنكر ظلم، وما هذان إلا من الجهل وعدم المروءة. وذلك ظلم؛ ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

إن الله أباح للرجل زوجاً فأكثر، ولكنه حظر الظلم، فقال فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة. ومشى الناس فى صدر الإسلام على ذلك، ثم أصبحوا فوضى فى أمر الزواج، فترى الرجل يتزوج المرأة قادراً على حاجاتها وغير قادر، ويتزوج أكثر من واحدة قادراً على العدل وغير قادر، فوقع كثير من الأمة فى البلاء والعذاب الأليم. كل هذا لأن الأمة لم تعمل بوصية الله ورسوله فى النساء. ولو كان أمر النساء سهلاً ما قصد إليه النبى، صلى الله عليه وسلم، فى أمهات المسائل التى ذكرها فى حجة الوداع، ثم مات على ذلك.

إن محمداً، النبى العربى والرسول الأمى، كان يحترم المرأة كثيراً. كان يحترمها أكثر من احترام الإفرنج الآن.

فيا قضاة الإسلام اعملوا بتلك الوصية، واضربوا على أيدى الرجال حتى لا يتزوج الرجل واحدة إلا بإذن القاضى، بعد علمه بالقدرة والمصلحة، ولا يتزوج أكثر من واحدة إلا بإذن القاضى، بعد علمه بالقدرة والمصلحة والعدل.

ما بال الناس ينظرون إلى المسألة من جهة الجواز ولا ينظرون إليها من جهات المنع.

هذه مغالطة فى الدين أو جهل. وكلاهما لا يجوز.

ورأيت فى المقالة (٨) أنه يجوز زواج البنت عند بلوغها إذا كان فى ذلك مصلحة ظاهرة يدوم أمرها، وعلى مثل ذلك يحمل حديث تعجيل الزواج.

وإن الأوفق مراعاة اتحاد الزوجين فى السن، أو تقاربهما، خشية الضرر عند التباين الشديد.

ورأيت فى المقالة (٩) أن أهل مصر الآن خليط من العرب والفراعنة وغيرهم. وليسوا خليطاً من العرب والفراعنة فقط، فالقشرة الطبيعية موجودة كالقشرة الصناعية الحاصلة بسبب الجهل والغش.

ورأيت أن كثرة التعرض للشمس تضيع حسن اللون وربما جعلته ضارباً إلى السواد.

ورأيت فى المقالة (١٣) أن تهديد الرجل امرأته بالطلاق أو تهديد المرأة الرجل بالخروج من بيته لا يجوز، مادام هناك رجاء فى البقاء، سواء أكانت الأسباب قوية أم ضعيفة، فإن مثل ذلك التهديد يلفت الذهن إلى أمر الانفصال فيقربه، وتلك بدعة فى الدين لم تكن من أخلاق الأولين.

ورأيت فى المقالة (١٤) أنه لا يليق بالرجل أن يتزوج المرأة لمالها؛ لأنه لو تزوجها لمالها فقد تزوج مالها ولم يتزوجها. فالمال عنده هو المقصود والمرأة غير مقصودة. وليس ذلك سر عقد الزواج الذى يطلبه الدين.

إذا تزوج الرجل المرأة لمالها فقد تنازعا فيه فيهزم الرجل لأنه غير محق. فإن كان غنياً بالطمع رجع فقيراً بالهزيمة. أما إذا صادفته الغنية ولم يقصدها لمالها فهو عند حده ولا يعدم معروفاً يناله من حيث لا يحتسب.

(روى البخارى) عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه قال: تنكح المرأة لأربع؛ لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك.

ورأيت فى المقالة (١٥) أن عمران الكون لا يحصل إلا بالنسل، وهو أمر طبيعى يقهر الإنسان وسائر الحيوان، فالرجل معذور أن يتزوج على امرأته التى فقدت ولديها، وربما قوى عذره أنها عجوز فى الغابرين مثلاً، ولكنه غير معذور أن يفاجئها بالزواج فى حين المصيبة، فلكل منهما حق، والمخلص أن يتزوج بحيث لا تعلم امرأته الثكلى بالزواج.

ورأيت أن للرجل أن يتزوج على زوجه لأجل إنجاب الذكور، فإنهم أقوى عملاً وأكثر نفعاً من الإناث، فلا جناح على الرجل أن يقصد إلى ذلك، وتمام مأربه بيد الله وحده.

ورأيت فى المقالة (٢٠) أن من أحط الأخلاق وأكبر الآثام أن تسعى المرأة فى طلاق المرأة لتحل محلها، أو يسعى الرجل فى طلاق امرأة غيره ليتزوجها مثلاً، فإن ذلك من هدم المصالح الثابتة. ووقوع ذلك من بعض الأقربين منتهى الفظاعة، ويكاد المرء يعتقد أن الله لا يغفره. ولا شك أن الساعى فى الطلاق هو الذى اجترح السيئة أولاً وإليه ينسب الإثم، وإن شاركه غيره فى ذلك.

(روى البخارى) عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه قال: لا يحل لامرأة أن تسأل طلاق أختها لتستفرغ صفحتها فإنما لها ما قدر لها.

ورأيت فى خطبة نادى حزب الأمة أن مزاج الرجل أكمل من مزاج المرأة، وكذلك المذكر والمؤنث من بقية الحيوان، ومما يشهد على ذلك التشريح والأعمال الظاهرة فى كل جيل، وقد تغلب الرجل على المرأة من سالف الزمان إلى الآن، وبذلك أخذت الطبيعة حقها واستوفت عملها. وقد حكم الله فى كتابه أن الرجل مسيطر على المرأة فقال الرجال قوامون على النساء.

(وروى البخارى) عن أنس رضى الله عنه أنه قال: كانت أم سليم فى الثقل وانجشة غلام النبى، صلى الله عليه وسم، يسوق بهن. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يا أنجش رويدك سوقك بالقوارير.

لأى شىء شبه النبى، صلى الله عليه وسلم، النساء بالقوارير، ما ذلك إلا لضعفهن ولطافتهن. فهن الجنس اللطيف. وهن محل عناية الرجال. فالرجال أقوى منهن ومسيطرون عليهن.

إن الرجل يتعلم مع المرأة فى مدرسة واحدة فى أوربا، وينقطعان إلى دروسهما ثم بعد إتمام سنى المدرسة يخرجان، وقد يوفقان للفراغ والتفكير فترى الرجل يخترع الأشياء وترى المرأة لا تخترع.

وقد تصل المرأة إلى ما وصل إليه الرجل فى العلم والعمل، ولكن بعد اللتيا والتى وبعد أن تخرج عن طورها وسنتها الطبيعية، فهى فى ذلك الوقت رجل لا امرأة،

والطبيعة حاكمة بالقسمة؛ فقسم رجال وقسم نساء (فلا يغيرن خلق الله).

وإن مساواة المرأة الرجل فى بعض الأحيان أمر عارض لا أمر جبلى (والفرق مثل الصبح ظاهر).

وعملاً بمقتضى الطبيعة وحفظاً للصحة، يلزم أن تتعلم المرأة فى المدرسة والمنزل ما يلائم درجتها لا غير.

نحن لا نجد فى تاريخ المرأة ما يجعلها فى صف الرجل. فلا يجوز أن تسمو إلى رتبته إلا إذا شذت عن فطرتها.

وإن آدم عليه السلام سيق بطبيعته إلى جلب المعاش، وحواء سيقت بطبيعتها إلى سكنى البيت وتدبيره (وفرمان) الطبيعة فرمان من الله مقبول ومعقول.

والمرأة القروية أقوى من الحضرية، ولكنها دون درجة الرجل، ولو نشأت مع سباع البادية.

والمادة الثانية من المواد العشر التى فى آخر الخطبة تظلم السيدات، فإنا شاهدنا آثار الضعف فى كثيرات ممن يتعلمن التعلم الثانوى. فلابد من معارضة هذه المادة حتى لا تكسر (القوارير).

ولا بأس أن تلزم طائفة من النساء هذا التعلم الثانوى ليقمن بفرض الكفاية فى تعليم البنات، ويكون ذلك من قبيل (قتل الثلث لإصلاح الثلثين) أقول ذلك مازحاً ولا أقول إلا حقاً.

ورأيت فى خطبة المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية أن بعض الأمراض العصبية لا يزول إلا بضرب من الموسيقا. فيجب على الطبيب أن يعرف ذلك. كما قال ابن سينا: وبعض نغمات الزار تصلح لذلك، ولكن أصبح إثم الزار أكثر من نفعه، فالواجب محاربة الزار، وقيام الطبيب بما يلزم.

ورأيت أن الرجل أخذ المرأة بأمانة الله، وأن الخيانة فى الأمانة حرام ومفسدة خطيرة.

(روى البخارى) عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (واستوصوا بالنساء خيراً) فإنهن خلقن من ضلع. وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه. فإن ذهبت تقيمه

كسرته. وإن تركته لم يزل أعوج (فاستوصوا بالنساء خيراً).

ورأيت في الكتاب بعض مؤاخذات عربية تجرى على ألسنة كبار الكتاب عند التسرع لا عند التأني واليقظة.

مثل عبارة: (يسبى ربات الحجال بما فيهن المحصنات) في الصفحة (٤) والعربى يقول: (وفيهن المحصنات).

ومثل عبارة: (لا تتفق مع الدجاج) فى الصفحة (٦) والعربى يقول: (لا تتفق هى والدجاج).

ومثل عبارة: (فقد لا يطابق الحقيقة) فى الصفحة (٨) والعربى لا يدخل (قد) على فعل منفى.

ومثل عبارة: (لابد وأن ينتج) فى الصفحة (١٤) والعربى يقول: (لابد أن ينتج).

ومثل عبارة: (بسبب الوساخة) فى الصفحة (٢٠) والعربى يقول: (بسبب الاتساخ) فليس فى اللغة العربية (وساخة).

ومثل عبارة: (وحب القديم حتى ولو كان مضراً) فى الصفحة (٢٤) والعربى يقول: (وحب القديم ولو كان مضراً).

ومثل عبارة: (ويحسدون بعضهم البعض) فى الصفحة (٣٠) والعربى يقول: (ويحسد بعضهم بعضا).

ومثل عبارة: (ضمنى مجلس بصديقتين) فى الصفحة (٣٧) والعربى يقول: (ضمنى مجلس وصديقتين).

ومثل عبارة: (أو التنازع على السلطة) فى الصفحة (٤٠) والعربى يقول: (أو التنازع فى السلطة).

ومثل عبارة: (ويسنون النظام لصالح بنى البشر) فى الصفحة (٤٨) والعربى يقول: (لمصلحة بنى البشر).

ومثل عبارة: (تنغيص الآخر له) فى الصفحة (٥١) والعربى يقول: (تنغيص الآخر عليه).

ومثل عبارة: (إذا كان أساءها) فى الصفحة (٥٤) والعربى يقول: (أساء إليها).

ومثل عبارة: (فسيان أن يعتبره قوم للمنفعة وحدها أو للشهرة) فى الصفحة (٦٧)

والعربى يقول: (وأن يعتبروه للشهرة).

ومثل عبارة: (سواء كانت فى الأطفال أو الكبار) فى الصفحة (٨٧) والعربى يقول: (سواء أكانت فى الأطفال أم الكبار).

ومثل عبارة: (العمار) فى الصفحة (٩٦) والعربى يقول: (العمران).

ومثل عبارة: (لقلت) فى الصفحة (٩٧) والعربى يقول: (قلت) لأن اللام لا تدخل على جواب (إذا).

ومثل عبارة: (الصدف) فى الصفحة (١١٠) والعربى يقول: (المصادفات).

ومثل عبارة: (وأخبار علانة) فى الصفحة (١١٥) والعربى يقول: (وأخبار فلانة).

ورأيت فى الكتاب بعض مؤاخذات إملائية لا تخفى على الكاتب. وربما كانت من المطبعة.

أباحثة البادية؛ أحسنت فكراً وكتابة كما يحسن الأكثرون، بيد أنك سابقة السيدات فى ميدان الإصلاح. وتلك مزية لو نالها رجل لكان له شأن فى هذا الزمان. فليكن شأنك أعظم. وثناؤك ألزم. ولا يصرفنك بعض ما جرى به قلمى، فما أخذت عليك إلا كما يأخذ أستاذ الإنشاء والشؤون الاجتماعية. لا كما يأخذ الناقد المثبط. وإنى أرتقب يوماً أرى فيه أثرك وقد دل على الكمال الذى تحاولين ونحاول.

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أنه سيصير بدراً كاملاً

القاهرة فى ١٤ شعبان سنة ١٣٢٨ و١٩ أغسطس سنة ١٩١٠

(حسين والى).

جاءنا من حضرة النظامى الفاضل الدكتور شبلى شميل

سيدى الأستاذ الفاضل؛ حفنى بك ناصف المحترم:

أشكرك على النسخة التى تفضلت علىّ بها من مقالات النسائيات لحضرة الفاضلة باحثة البادية. وقد طالعتها معجباً بعلم صاحبتها. ودقة نظرها. ولاسيما إقدامها فى مجتمع لايزال يعد الخروج فيه عن المألوف، مهما كان شأنه، بدعة مذمومة. مما دل على أن علمها الواسع لم يبق فى رأسها عقيماً. كما هو الحال فى رءوس أكثر رجالنا حتى اليوم. ولم أقل نساءنا لئلا أبخسها حقها من الفضل المتقدم بين أترابها. وهن غالباً كما هن؛ شطر عاطل فى جسم اجتماعنا.

فباحثة البادية بين النساء المصريات، بل المسلمات، بل الشرقيات عموماً، لا يقل فضلها فى الضرب على مساوئ الأسرة عندنا، والحض على وجوب تعليم المرأة، لتحرير عقلها وتقويم أخلاقها بالعلم الصحيح، عن فضل قاسم أمين فى وجوب تحريرها. وإن كانت لم تطلب لها هذا التحرير إلى الغاية القصوى مثله. لأنها لم تطلب إلغاء الحجاب بالكلية. وهو رأى فى نظر البعض وجيه. أولئك الذين يقولون إن الطفرة محال ويخشون الانتفاضات العنيفة، فيطلبون الإصلاح بالتؤدة واللين خوفاً من أن تصعيب المطلب يحول دون بلوغه. وإن كان نظام الاجتماع لا يستغنى أحياناً عن الثورات العنيفة إذا اشتدت المقاومة فى الأحوال الراسية لطول العهد، كنظام الطبيعة نفسه حذو القذة بالقذة. ومهما يكن من ذلك. فإن رأيها هذا فى نظرى، لا ينافى رأى الطالبين اليوم السفور المطلق. وما هو إلا حذر لفظى لأن رفع الحجاب المعنوى عن العقل لابد أن يؤدى إلى رفع الحجاب الحسى عن الجسم. كما أن طلب رفع الحجاب الحسى دفعة واحدة لا يرضى به حتى المحجوب نفسه، إذا لم يرفع حجاب الجهل عن عقله أيضاً. كأنها فى ذلك سلكت مسلك داروين نفسه فى العلوم الطبيعية، إذ حصر الخلق فى أصول قليلة تفرعت منها الأنواع الكثيرة بعد ذلك بالنشوء والتحول، حذراً من تصعيب المطلب على أصحاب الخلق أنفسهم. ولكن ذلك الحذر لم يمنع معتنقى مذهبه المعتقدين صحته من إطلاق ناموس النشوء والتحول على الطبيعة كلها. لأنه إذا صح النشوء للبعض، لا يفهم لماذا لا يصح للكل. فتحرير العقل إلى الغاية القصوى لا يتم بدون تحرير الجسم إلى الغاية القصوى أيضاً. فطالب تحرير المرأة لا يسعه أن يطلبه

من جهة واحدة، وإلا فكأنه لم يطلبه. ولذلك أعتبر نسائيات باحثة البادية ككتاب تحرير المرأة لقاسم أمين، في النتيجة المترتبة عليهما، ومقامها بالفضل المتقدم بين النساء كمقامه بين الرجال في الإسلام اليوم. وفي يقيني أن الإسلام لم تحرك فيه حتى اليوم مسألة اجتماعية أهم من المسألة التي نحن بصددها. والفضل في ذلك لمصر وحدها ولأبناء مصر.

●●●

ليس الغريب أن مسألة المرأة في الاجتماع شغلت الناس في كل العصور، ولا تزال شغلهم الشاغل حتى اليوم في كل المعمورة. فهي من مقومات الأسرة التي هي أساس الاجتماع، بل الغريب أنها مع بساطتها لم يسهل الاتفاق فيها، وذهب الناس فيها مذاهب، وكتبوا فيها ما لو جمع لضاق عنه الحصر. كأنها من المسائل اللاهوتية العويصة، لأن أكثر الباحثين جعلوها كذلك، مع أنها من المسائل الطبيعية البسيطة التي لا يجوز أن يختلف فيها اثنان لولا ذلك. ولا نظن أن منشأ هذا الاختلاف خاص بقوم دون آخرين، وبصقع دون آخر، بل هو عام جميع المعمورة، وكائن من أول التاريخ إلى اليوم في أشد المجتمعات البشرية انحطاطاً، وفي أكثرها ارتقاء على ضروب متنوعة. فلابد أن يكون لذلك سبب عام هو أصل كل الاختلافات التي رويت في شأن المرأة، والتي لا تزال موجودة حتى الآن.

فالمرأة منذ القدم مظلومة مهضومة الجانب من الرجل، لأنه أقوى منها. وهي مظلومة في كل الشرائع دون استثناء لأن واضعيها رجال. حتى أن بعض هذه الشرائع أنكر عليها النفس. أو بالأحرى حتى جاز لاتباعها في عصر من العصور أن يتباحثوا في ما إذا كان للمرأة نفس. وهكذا استبد الرجل القوي الخشن بالمرأة الضعيفة الجاهلة، فحرص عليها الفقير حرص المالك على ملكه النافع له، واستخدمها أحياناً كما يستخدم الحيوان، ولكنه لم يكن يضن بها كما كان يضن به، لأن الحيوان بثمن وهي بلا ثمن غالباً، ولم يستمسك كثيراً بالحجاب لأن الفقر كان يطفئ فيه آياته الشهوانية. وحرص الغني عليها حرص غيره، فدفنها حية في قبور من القصور، وكفنها بأكفان من الحجاب. حتى إذا برزت من خدرها مشت متثاقلة كالبرميل الموشح. وهي تهتز على محورها وتتعثر بظلها. ولم يعدم الشعراء من خيالهم تصوراً للتغني بهذا الشبح؛ وغار

عليها من النسـيم لئلا ينقل إلى سواه شذاها. وحتى من النور لئـلا تمتد الأبصار به إلى مرآها. فإذا مات وئدت معه حية. كأنهـا متاع له لا يجوز أن يفصل عنها أو كأنها جزء منه. ولكنه يجوز له أن يفصل عنها، واعتـبرها بذلك أحط من الحيوان، الذى كانوا إذا غالوا فى القـسوة عليه ربطوه إلى جـانب القبر حـتى يموت. وهى قبلت بذلك مرغـمة بالقوة، مستسلمة للجهل، حتى حسبت كل ذلك واجباً عليها وحقاً له:

والمرء إن ما اعتاد متربة فإن تصنه فهو يمتهن

حتى قـتل الترهل قواها الجـسدية، والجهل مواهبـها العقليـة، والرجل يحسب أنه بذلك صانها وصان نفـسه بها، وما صان فيهـا إلا جهله، إذ المرأة مرآة الرجل، جاهلة فجاهل وعالمة فعالم. وما صان الجهل أدباً ولا أوصد أبواباً ولا أعز أمة. وأمنع حجاب توسيع العقل بالعـلم الصحيح وتقويم الأخلاق بالتـربية القويمة، وأكفل كافل الاخـتبار بالنفس لصيانة المصلحة. فالذى قياده بيده أمنع جداً إذا امتنع ممن قياده بسواه.

فالحجاب بقية باقيـة من ضروب الظلم التى حاقت بالمرأة من أول عهد التاريخ إلى اليوم. والحجاب على المرأة المسلمة إلى الحـد المألوف اليوم، من غير تخريج أو تأويل، لا تقبله العقول الناضجة أياً كانت. وهو سبب عيوب الأسرة الشرقية عموماً. والمصرية خصوصاً التـى قامت باحثة البادية تنبه إليـها فى نسائياتها طلباً لإصـلاحها. وأى دليل أوضح على أن فسـاد الأسرة هذا إنما هو من مـقام المرأة فـيها المنافى للـطبع. إذ الحرية المتبادلة فى نظام الطبـيعة حق طبيعى لا يجوز أن تسلبه حـتى ذرات الجماد. وإلا كانت أعمـال الطبيعـة أدعى إلى الخراب منها إلـى العمار. وهى فى الاجـتماع البـشرى حق واجب بل ضرورى أيضاً، لأن المرأة فيه شطر من شطرى جسمه. فإذا سلبت المرأة الحرية عرج الاجتماع ومشى على رجل واحدة. وفيها قيد أيضاً إذ تصبح المرأة حينئذ عالة عليه عوضـاً عن أن تكون عوناً له. ولا حاجة بنا إلى إطـالة البحث لوضع المقدمات المركـبة لاستخراج النتائج البسيطة. فـإن علم المقابلة البسيط يغنينا اليوم عن كل ذلك. ولا أقل من أن نقارن بـيننا وبين الأمم الراقية لـنقف على الفرق الجسـيم بين مجـتمع المرأة فـيه مدرجـة حيـة فى الأكفـان، مدفـونة بين الجدران، عـقلها مـحجـوب عن أنوار علوم

الاختيار، كما حجبت حواسها عن نور الطبيعة، وبين مجتمع ترى المرأة فيه على ضد ذلك، ونقابل فقط بين أطفال الامرأتين فى مجتمعنا ومجتمعهم، فأين قذارة أطفالنا من نظافة أطفالهم وسقم أطفالنا من صحة أطفالهم، ورعونة أطفالنا من رصانة أطفالهم، حتى أن صبياناً ليفوقوا رجالنا فى العزائم. فيشبون على الجد والعمل، ونشب نحن على السخافة والكسل، فيستطيلون بأيديهم إلى كل عمل نافع، ونستطيل نحن بألسنتنا إلى كل دعوى فارغة، وإذا دمغتنا الحجة أخذنا نفتش على عيوبهم الجزئية لنستر بها عيوبنا الكلية. غير ناظرين من خلال ذلك إلى ارتقائهم وانحطاطنا وتقدمهم وتقهقرنا الكليين. وما كان هذا الارتقاء لهم يوم كانت المرأة عندهم مسلوبة الحرية، محجوبة عن نور العلم. فقد كانت مظلومة كذلك عندهم، وإن لم تكن محجبة كما هى عندنا، فإن دروب الظلم كثيرة.

وأغرب من كل ذلك أن مثل هذه الدعاوى الفارغة التى نطمئن إليها. تجوز على كثيرين ممن هم فى مقام القادة أو أن البعض يجيزونها نفاقاً يجعلونه طعاماً على رؤوس صنانير أغراضهم لاصطياد أغرارنا به. والأدهى محاولة البعض من هؤلاء وأولئك إخراج البحث فى الموضوع من وجهته الاجتماعية إلى وجهة دينية، بحسب أهوائهم وعلى قدر أفهامهم. وما يقصدون بذلك إلا إزالة التكافؤ من بين المتباحثين لينقلوا الكلام من أن يكون بين الناس بعضهم مع بعض إلى ما بينهم وبين الله، لعل المعارض يجبن ويكون صمته عوناً على تأييد ما يدعون، كما يفعل منتقدو الزهاوى، وقد يظن بعض السياسيين إنهم يأتون ذلك عن حكمة ليدفعوا عنهم شر الجهلاء، كما فعلت الحكومة العثمانية الدستورية اليوم، إذ ظنت أنها تملك قيادة الجهلاء، وهم لا يملكون إلا إقامة العدل الصحيح ومن ورائه السيف حتى يقره العلم، فتزلفت إليهم بأنها منعت نشر أفضل كتاب فى الإسلام لأعظم مصلح من المسلمين وهو كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين، وما أشبه سلوكهم فى هذه المسألة بسلوك عرابى إذ قام يتبرك بالحجب، ويلبس المسابح ليتقرب إلى العامة، وهو يحسب أن النصر له من ورائهم، وما كان له من ورائهم إلا الفشل وهم بعملهم هذا اليوم. أبعدوا غاية الدستور عنا أجيالاً، غافلين عن أن التنازع حولنا اليوم شديد.

●●●

قد يقول بعض الذين ينظرون إلى الأشيـاء مجردة أن الإسلام ارتقى فى الماضى وما كان حجاب المرأة عـقبة فى سبيله. وهؤلاء لو نظروا إلى الاجتمـاع كما ينبغى أن ينظر إليه أى بنظر المقابلة. لعلموا أن المرأة كانت فى تلك العـصور متناسبة فى الظلم فى كل المعمـورة، ولم يكن بينها هذا التـباين الشـديد الذى نراه الآن. فالمرأة الغربـية لم تكن أفضـل من المرأة المسلمة فى تربيـتهـا وفى علمهـا. وأما اليـوم فمن المسـتحـيل أن يتم للمسلمين مـا تم لهم فى الماضى مع سائرالأمم بسبب هذا التبـاين، وإذا طال جمودهم على حالهم هذه، ولم يجاروا جيرانهم فى كل شيء، كـان مصيرهم إلى حيث تقضى سنة التنازع بين المتنازعين غير الأكفاء.

على أن النهضـة التى قام بها قاسم أمين منذ سنين قليلة وتلتـه فيها باحـثة البادية، والتى نراها تتجـسم أكثر فـأكثر كل يوم، كمـا يدل تكاثر الباحثين فى الموضـوع وميل الأكثـرين منهم إلى شد أزرها ولا سيـما فى هذه الآونة الأخيـرة، تبشرنا بأن مـساعى المصلحين، وإن لم تظهر نتائجها العملية فى المسلمين اليوم، فسوف لايمضى زمن قصير حتى تجنى منها الأجيال القريبة كل الفوائد المطلوبة، إذ تكون الرؤوس البالية بما فيها من الأفكار المتعفنة قد انقضت ــ والعـادات دين ثان ــ فتشب الرؤوس الجديدة على المبادئ الجديدة الموافقة لمصلحـة الإنسان المشتركة فى العمران، والمتغـيرة بحسب روح كل عصر طبقـاً لاحتياجـات كل زمان عمـلاً بسنة الارتقاء وغلبة الأصلح. والعلم الصـحيح أى العلم الاختبارى دين أيضاً.

واقبل أيها الأستاذ الفاضل فائق احترامى.

الدكتور شبلى شميل

بين كاتبتين [1]

(١) نشرت فى الجريدة والمحروسة.

باحثة البادية والآنسة مى

إلى باحثة البادية:

ترنمت باسمك قبل أن أعرفك، واتخذت ذكـرك عنواناً لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك، لأن أصوات الجمهور قد اتفقت فى الثناء على فضلك. غير أنى عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك القديمة النفيسة، فانحنيت عليها ساعات طويلات، فيها خيل لى أنى أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة.

ثلاث سنوات مضين، وتلك المجموعة محفـوظة بين دقات المكاتب، أو مبعثرة بين الأوراق والأسفار المتراكمة يوماً بعد يوم، لكن سرها ما زال مترقباً يداً تلمسه.

سنوات ثلاث، فيها مـشت البشرية خطواتها المعدودات متعـثرة بالعظام والجماجم، منشدة أهازيج النصـر الكاذب وتهاليل الفخر البـاطل، وقواها الغالية تسـيل على شفار السيوف، ودماء حياتها تجرى أنهاراً فى سهول قد أخفت نجمها الجميل، وثمراتها الممتعة خوفاً من وحشية الإنسان.

سنوات ثلاث، فيها شعرنا بارتداد صدمات السـياسة والاقتصاد والأطماع المتزايدة. فيها ارتفعت دويلات جادة مجـتهدة وتهشمت أعضاء تركيا العظيمة بتـاريخها، الضعيفة بإهمالها وتهاونها. وقد جاش لذلك كل ما فى صدر الإسلام من النخوة القديمة، وبكت له قلوب الغيورين على مصالح بنى عثمان.

كل ذلك ومصر مصر، بكآبتها وانعطافـها واندفاعها. كل ذلك ونحن هائمون على وجوهنا فى صحـراء الفوضى. صخور التـقاليد القديمة تدمى أقـدامنا الجديدة، وأشواك الاصطلاحات تجرح أيدينا المـمتدة للمس أشياء نظنها موصلة إلى حيـاة نريدها عظيمة. والسراب الجميل اللامع فى حـدود المستقبل غير المحدود يستـدعينا آمراً، كأنه نظرة عين فتانة، فنجرى فى الصحراء ولا ندرى إلى أين المصير!

سنوات ثلاث؛ مررن على يوم فـيه ارتفع صوتك مرشداً عـائلتنا، لا تزال على ما كانت عليـه، وأفكارنا لم تتغير إلا قـليلاً. وعواطفنا ما برحت بين تيـارات متعاكـسة،

دائمة الاضطراب، بين ما ندعى أننا نعلم وما نجهل أننا لا نعلم! غير أن الأصداء الخفية ما زالت ترجع همس ذلك الصوت الرخيم.

بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة وودت تقبيلها بشفتى روحى، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بنانى على غير هدى. ولم يكن ذلك إلا إجلالاً لصفحات قلبتها وحباً لنفس استجوبتها فعرفتها.

فيا من «ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها» أيتها الباحثة الحكيمة، لماذا تصمتين؟

تتوالى الأيام ونحن فى ضلال مبين. الرجل يجاهد فى حرب الاقتصاد الدائمة. الرجل تائه فى مهامه أشغاله، فإذا كتب بحث فى العموميات، وإذا أجال قلمه فى الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائى لأنه يكتب بفكره، بأنانيته، بقساوته، والمرأة تحيا بقلبها، بعواطفها، بحبها.

علاتنا مستعصية لا يشفيها إلا طبيب يعرفها. والمرأة بعلة جنسها أدرى، فهى تستطيع معالجته. ولا تطالب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة إلا ما يصوره لهن الخيال المخيم بطلانه على منابت العواطف المخصبة. هذا اعتراف ساذج صادق: الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات. وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية، وإن لم ير فيها من الاستفهام شيئاً.

لكن الزوجة والأم، التى أعطيت ذكاء وفطنة وعلماً وشعوراً قوياً، تدرك بواسطته كل ما فى الحياة من حلاوة ومرارة، تلك تستطيع وضع المرأة فى مركزها السامى، وتلك تقدر أن تعمل فى مزج نصفى الشخصية المتألمة، شخصية المرأة وشخصية الرجل.

فيا سيدتى،

لدينا قلوب تحترق ولا ندرى أى نار تحرقها، وتلتهب شغفاً بما لا نعرف ماهيته، فعلمينا، أنت التى كنت فتاة قبل أن تكونى أماً، كيف نرشدها وإلى أين نوجهها!

لدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمة ورغبات حارة، فأرشدينا أى الأعشاب فاسد فنقتلعه، وأيها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان!

قولى يا سيدتى تكلمى!

ضمى يدك الباردة إلى الأيدى التى تحاول رفع هذا الجيل من هوة الحيرة والتردد.

ساعدى فى تحرير المرأة بتـعليمها واجباتها. إن صوتاً خـارجاً من أعماق القلب، بل من أعماق الجراح كصوتك، قد يفعل فى النفوس ما لا تفعله أصوات الأفكار.

لا يهمـنا أن تخفى تلك اليـد النحيـفة وراء جـدران خدرك، وأن تحـجبى هيـئتك الشرقـية وراء نقابك الشـعرى، ما دمنا نسـمع صوتك فى صرير قـلمك، ونعرف منك روحك العالية.

فهنيـئاً لوطن يضم بين بناتـه مثيـلاتك، وهنيئـاً لصغار يسـتقون وعـود الهناء من ابتسامتك ويسكبون حياتهم فى قالب حياتك!

«مى»

إلى الآنسة مى (١)

تفضلت فكتبت إلى كلمتك العـذبة فى الجريدة، وكنت إذ ذاك بين مخالب الموت، فلم يكن فى وسعى أن أمسك القلم لأرد عليك، وإن كانت مخيلتى لم تبخل بالرد. كانت رسالتك عزاء جميلاً لى فى مرضى الطويل المؤلم، وبلسماً ملطفاً لجراحى البالغة التى قلت إنك عثرت عليها. آلامى أيتها السيدة شديدة، ولكنى أنقلها بتؤدة كأنى أجر أحمال الحديد، فهل تدرين يا سيدتى ما هولى؟ ليس لى بحمد الله ميت قريب أبكيه، ولا عزيز غائب ارتجيه، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا، ويستولى عليهم غرورها، فأطمع فى أكثر مما أنا فيه، وليس لى حال سئ أشتكيه، ولكن لى قلباً يكاد يذوب عطفاً وإشفاقاً على من يستحق الرحمة، ومن لا يستحقها، وهذا علة شقائى ومبعث آلامى. إن قلبى يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد.

ومالى أحمل نفسى أعباء غيرها، ولست بمسيطرة على هذا العالم، ولكنى كنت عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة المصرية، ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد وإن كان تنفيذه شاقاً، ومفوفاً بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقى إليه.

كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندى، ولا اكتفاء بالقليل الذى كتبت من قبل، ولكنى كنت مللت المناداة بإصلاح المرأة المصرية، وثبط عزمى ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة، وما حركتهم التى ملأوا بها القطر صراخاً إلا عنوان نهضة كاذبة.

تسألينى يا سيدتى أن أدلك وسط هذه الأحوال المضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذى يحسن بالفتاة نهجه، وأنها لحال توجب الحيرة، ولا ندرى أى الطرق نسلك لنصل سريعاً إلى الغاية التى نقصد إليها. كلنا يرمى إلى تقدم الفتاة وتنورها وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأما نافعة أبناءها ووطنها، ولكن لكل مناد بالإصلاح وجهة هو موليها. فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعاً للحجاب ،وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالاً، ونسوا حكمة التأنى والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل؛ تكتنفه

المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التى تكاد تغشى الأبصار.

وفريق لا يرى السفور فائدة، ويقـول إن الحجاب لا ينفى العلم، وإن إطلاق الحرية للمرأة أخيراً كان سـبباً لفسادها، وإن اطراد تعليم المرأة وتثقيفهـا سيكون مجلبة للشغب ولخروجهـا عن حدود وظيفتـها فى المستقـبل، كما خرجـت أختها الغربـية الآن. فأى الطريقين نسلك، ومن نتـبع؟ إننا معشـر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا، واستـبداده يأمر وينهى فينا، حـتى أصبحنا ولا رأى لنا فى أنفسنا. فإذا قال لنا اختـبئن حتى تدفن بالحياة صوناً لكن وتدليلاً كما يقول المتنبى فى رثاء أخت سيف الدولة:

على المدفون قبل الترب صوناً

وكقوله فى أخت ممدوحه الثانية من رثاء أيضاً:

وما رأيت عيون الإنس تدركها   فهل حسدت عليها أعين الشهب

وهل سمعت سلاماً لى ألم بها   فقد أطلت وما سلمت عن كثب

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجـبنا، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنـا فهل هو حسن النيـة فى كل ما يطلب منا ولأجلنا أم هـو يريد بنا شراً؟ لا شك أنه أخطأ وأصاب فى تقرير حقنا من قـبل، ولا شك أنه يخطئ ويصيب فى تقرير حقوقنا الآن.

نحن لا نأبى أن نتبع رأى العقـلاء والمصلحين من الأمة، ولكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة فى موضوع المرأة من العقلاء المصلحين. ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها، ولا يسـتبد فى (تحريرنا) كما استبد فى (اسـتعبادنا). إننا سئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس وإنما نخاف عينيه ولسانه، فإن وعدنا أن يغض بصره، كـما يأمره دينه، وإن يكن لسانه كمـا يوصيه الأدب، نظرنا فى أمرنا وأمره. وإلا فكل منا حر يفعل ما يشاء. والسـلام عليك أيتها الفاضلة من المعجبة بك المثنية على أدبك الجم وعلمك الغزير.

باحثة البادية

إلى باحثة البادية:

ليس أعز لدينا من لطفك إلا حزمك وصراحتك، وليس أجمل من صدى صوتك إلا فعل معناك. وإنى لأقبض بيدى لأعترف بأنى أحب ـ أستغفر الله وأستغفرك يا سيدتى ـ آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الإنسانية وضلالها، وأتمنى من أعماق فؤادى أن تجد دواماً تلك الآلام منفذاً رحباً إلى قلبك، وأن يبقى ذلك القلب كريماً ليناً ينجرح لجرح الغريب ويبكى لبكاء المظلوم، ويشفق على المتوجع أياً كان. بالاختصار ـ عفوك! عفوك! ـ أتمنى لك العذاب المعنوى لأنه النار المقدسة. أجل، هو النار التى تطهر النار التى تلين النار التى ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعانى السامية والميول الرفيعة والرغبات الكريمة، والتحمس لإجراء الإصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادئ الطيبة، والنهوض بالاجتماع نهضة تهتز لها القلوب حمية وطرباً.

أتمنى لك ذلك، ولولاه لما وجدنا فى كتاباتك تلك الأنة العميقة التى تنبه الفكر وتلمس العاطفة فى آن واحد.

لا أنكر أن أنانيتى تتكلم الآن. غير أنى قلت ما قلت مسرعة هامسة. فابتسمى له إن شئت، وإلا فلا تصغى يا سيدتى ولا تسمعى، بل اسألينى عما أهمس به لأجيب أنى أحمد الله على إبلالك وأنى أسأله أن يديمك سالمة. وما أغلى سلامتك لدينا.

جئت أسر إليك أمراً وقفت عليه عند ما شهدت صدى مقالتك لدى جمهور القراء. اسمعى يا سيدتى الباحثة، وصونى سرى!

رأيت جميعهم يتقبل أقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الإعجاب، ولكنى رأيت أسيادنا الرجال ـ . . . أقول «أسيادنا» تخمد نار غضبهم ـ قلت إنى رأيتهم يطربون لتصريحنا بأنهم ظلمة مستبدون. نعم آنست ذلك فى ملامح كل من قرأ مقالك أمامى من أسيادنا الرجال.

فذكرت إذ ذاك ألا سرور فى العالم يضاهى سرور التفاهم. فإذا شعر المرء بأن من يفهمه كان سعيداً، سواء لديه إن تعرف منه على صفاته أو علاته، لأن معرفة العلات تتبعها حتماً معرفة الصفات، وإن كان الخير أقل انتشاراً من الشر وما النقائص إلا فضائل مضخمة مكبرة تتسع وتستفيض دون أن تجد لها من الضمير مهذباً فتتجاوز

الحدود المعنوية التى عينتها اصطلاحات الاجتماع ـ إذا كانت اجتماعية ـ أو رسمتها علوم النفس والأخلاق، إذا كانت أخلاقية.

فعملاً برغبة التفاهم، وطبقاً لنظام المباهاة، وتوصلاً للاستمتاع بنتيجة هذه المباهاة وذلك التفاهم كان وسيكون السارق دائم المفاخرة بوقوف الناس على براعته فى اختيار الطرق الجديدة واستنباط الحيل الغريبة. وكان وسيكون القاتل مسروراً بإعلان آثامه للورى آملاً أن يجدوا فيها أعمال بطل ـ من نوعه! وكان وسيكون السياسى جاداً فى إقناع الآخرين أن دهاءه اقتدار وسوء ظنه وروغانه فطنة وحكمة. كذلك الرجل يسر، ويرجو، ويريد أن تشعر المرأة باستبداده ظناً منه أن الاستبداد هو السيادة، وأن هذه مقياس ذاتيته التى يريدها كبيرة. رضيت المرأة عن تلك السيادة أم تمردت عليها فى نظره سيان، بل أظنه ـ سامحنى الله إن كنت مخطئة ـ مؤثراً تمردها على إذعانها لأنها كلما زاد تمردها زاد شعوره بالسيطرة. وأشد الملوك فرحاً بهز الصولجان، وأرفعهم للرأس كبراً وتيهاً تحت ثقل التيجان، هم ذوو العروش المتداعية للهبوط. والرجل ملك متداع عرشه، لأن ريح الفوضى تهب عليه من كل جانب، وخطوات الارتقاء النسائى تتوالى متمكنة مع مرور الأيام.

لكنه ملك عزيز!

هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج فإذا سقط سقطنا معه، وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات. لذلك نريد له خيراً ونجتهد فى تأييد دولته، بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه، وأن نقف إلى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل. نريد أن نكون متساويين فى الواجبات والمسئولية. بل إن واجباتنا ومسئوليتنا يفوقان ما عليه من مسئولية وواجب!

فيا ترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة؟

ما أطيب قولك، يا سيدتى الباحثة، إنك تشفقين على من يستحق الشفقة ومن لا يستحقها. الرجل من الذين يستحقون الشفقة لأنه لا يعرف أنه يستحقها، إنه باستعبادنا لمنتحر. ولو صرفنا النظر عن مستقبل الذرية وبحثنا فى حياته الفردية لوجدنا أن ما من أحد يساعده على التخلص من الشوائب الشائنة، ويحثه على إنماء شخصيته الغنية المخصبة إلا نحن. كما أنه لا يهدينا إلى واجباتنا ويضع فى ضعفنا قوة إلاه.

الحجاب؟ وما الحجاب؟

مرحباً به ما دمنا فى وسط لا يعرف كيفية معاملة المرأة ولا يستطيع احترامها، ولكن كيف نلوم الرجل على كلامه ونظراته ما دام رجل اليوم صنع امرأة الأمس؟ هكذا علمته أمه وإن لم تعلمه ذلك فإنها لم ترشده إلى ما يفضله، ولا ذنب لها لأن قصورها فى جهلها لم يكن إلا نتيجة اتفاق أبيها وزوجها على جعلها عبدة. لا لوم على أبناء تلك الأمهات. إلا أن مستقبلنا صالح لأن حاضرنا مملوء بالآمال الطيبات. النشء تتنازعه طبائع الوراثة ومؤثرات العصر وعواصف الفوضى المهاجمة قديم التقاليد من كل ناحية. ولكنه ينشد الصراط السوى ويصغى إلى صوت الإصلاح. فارفعى صوتك، يا سيدتى، ولا تيأسى! قولى بصراحتك، واكتبى بشجاعتك! جاهرى ولا تصمتى!

إن البذرة التى تزرعها اليوم يد زارع تنبت سنبلة فى كيانها حياة الغد، وما يتبعه من الأيام. وعندما تخضر المروج بنصرة الرجاء، فتتماوج فوق غلتها نسمات الحياة، إذ ذاك سيسمع المستقبل صدى جيل يردد أبيات الأمير شوقى:

صداح يا ملك الكنا ... ر ويا أمير البلبل

صبراً لما تشقى به ... أو ما بدا لك فافعل

فتجيب الأصداء الجديدة: لقد فعلت! لقد فعلت!

«مى»

الساعة المفقودة

جعلها أرباب التجارة حلية نسائيـة، وأتقن الجوهرى وضعها فى سوار ذهبى فكانت نصيبى فى الشرى.

صورة مصغرة للكون، كذلك كانت ساعتى. مساحتها رمز للفضاء، دورتها مسرح اللانهاية، حدودها حدود الإمكان، علاماتها مقاطع الوقت الذى رتبه الإنسان، ساعاتها مقياس الأعمـال، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمـال، ثوانيها دقات القلب. . . من الثوانى يتألف الزمان ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجاً.

فيا لهول ثوانى الزمان، ويا لهول نبضات قلب الإنسان!

بين ثانية وثانيـة يلتقى العـدوان فى أحشاء الثـرى: الماء والنار، فتمـيد الأرض بمن عليها، وتنفطر أسـاساتها فتقذف البراكين مـقذوفاتها الجهنمية وسـوائلها النارية، وتزفر الطبيـعة زفرتها القـتالة فتلتـهم صروح العمـران، وتفتح صدرها مرحـبة ببنيهـا. تفتح صدرها مـرحبة فيـتدحرجون إلى الـهاوية التى ليس فيهـا من يعود على وجه البـسيطة مخبراً.

بين ثانيـة وثانية يتـلاقى الجيـشان فى سـاحات الوغى، فـتدوى وعـود المدافع فى الفضاء، وتخـتطف بروق السيوف غالى الأرواح. ولأجل كلمـة غالب أو مغلوب تندك عروش وتنتـصب عروش، تدمـر ممالك ويعمـر سواها، تخرب مـدائن ويشاد غـيرها، تتجندل الأفراد وتفنى مجامع فترتدى الأقـوام سواد الألوان، وفى نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان.

بين ثانية وثانـية يموت أمل ويحيـا يأس، تبتسم شـفة وتدمع عين، يخـون صديق ويخلص عدو، بين ثانية وثانية!

وبين نبضـة ونبضة هناك سـر الأسرار. دماء داخلة إلى الـقلب ودماء منبعـثة منه، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيـوية. بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أعماق العمر وانفعالات تشخص لمرورها ذوات الكيـان. اشتعال الفكر وخمود العاطفة، ظفر البـلاهة وتقهقـر النبوغ، لذعات الغرام والحـسرات العظام. قنوط ورجاء، سـعادة وشقاء. هتاف الروح المسلمة ولهاث الروح المودعة!

ياابنة أبيك! يغـدرنا الزمان سـاعة الرجـاء، ويخوننا يوم الصـفاء، ويهجـرنا حين

اللقاء. فأنت خائنة هاجرة كالزمان، ياابنة الزمان!

كم من ساع طيبات وقت مرورهن على دوران عقربيك وفكرى يناجيك بأحاديث هداه وضلاله! ابسم لك عند السرور فأتخيلك صامتة تبتسمين، وأتنهد حيالك يوم الأسى فأتوسمك تتنهدين وتحزنين، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين.

لما أفنت قلبى وحدة القلب ضغطت بك على ساعدى قائلة: «أنت الصديقة التى لا تخون». ولما مزقت سمعى أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية خاطبتك قائلة: «أنت لا تؤذين لأنك لا تتكلمين» ولما أذابنى الجهل بدعواه والغرور بسخافته نظرت إليك قائلة «أنت عالمة لذلك تصمتين»

وكنت تعزينى!

وكنت زمانى، ياابنة الزمان!

وعلى هذا ما كان أطول إعراضك عنى وأقل اهتمامك بى! فى النهار كنت تطوقين ساعدى فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة المداعبة. وفى المساء كنت تستريحين بجوار وسادتى، فأوقع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامى وآمالى، وفى الصباح كنت أول عين أشاهدها وأول روح أستجوبها.

كل ذلك وأنت لا تنتبهين ولا تعلمين.

وها قد هجرتنى. فقدتك فسيرى بحراسة الله وانسينى!

ولكن انتخبى اليد التى ستطوقينها!

فإذا وقعت فى يد شرير وقصد استعمالك ليؤذى أخاً له فانقلبى أفعى لساعة ولا تبرحى مفرغة فيه سمك حتى تصرعيه قتيلاً!

... لكن لا، لا! ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم، لو كنت تعلمين. وهم خليقون بالرحمة أكثر من الأخيار الصالحين. فلا تتحولى حية ولا تؤذى شريراً، بل غادرى تلك اليد المسكينة واسقطى فى طريق أب فقير لتكونى من نصيب فتاة لم تلبس فى حياتها حلية. زينى يداً شوهت خشونة الخدمة جمالها، ونامى على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبب! نامى هناك واسعدى، ولو ساعة، قلباً بائساً يحسب السعادة فى الغنى!

نامى هناك وانسينى، ولكن!

إن كان لديك ذاكـرة تذكر، يا ساعتى الصـغيرة المحـبوبة، اذكرى لحظة ما شـهدته معى من المسرات واللهفات، اذكرى واحفظى ما تعرفين!

ولكن. . . ألست ابنة الزمان الذى ننسب إليه فى ضـعفنا كل شىء، وهو فى قوته لا يبالى بشىء؟ ترين بـأى حافظة تذكرين، وبأى ذهن تتـأملين؟ إنما علاماتك مـداد قد تحجـر، وعقربك إصـبع يشير إلى عـلامة يجهل منهـا المعنى. وأنت آلة ليس إلا. وإن كنت آلة الآلات المثلى.

أنت ابنة الزمان الناسى،

وأنت مثله لا تذكرين!

"مى"

إلى الآنسة مى:

عزيزتى مى:

لا تستغربى يا سيدتى أنى دعوتك «بيا عزيزتى» وسأدعوك باسمك على غير معرفة شخصية سابقة. أقول شخصية وأحدها لأنى عرفتك من كتاباتك الشعرية الجميلة من قبل، وتعرفت منها بروحك العالية الهائمة فى الفضاء، وكأنها تبحث عن مستقر لها، فلا يكاد يعجبها مكان تستقر فيه.

وتعرفت بك بالأمس، بل وارتبطت بك من دعائك علىّ بالعذاب المعنوى، كأنى أنا المعنية بقول جميل:

وأول ما قاد المودة بيننا	بوادى بغيض يابثين سباب
وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله	لكل مقال يا بثين جواب

وإنما حاشا أن يكون دعاؤك على سباباً. وحاشا أن يكون له جواب عندى من مثله، فإنى لم أقابله إلا بالضحك والحلم الذى ركب فى غريزتى.

لماذا تدعين على بالعذاب المعنوى؟ ألا أن العذاب البدنى أخف منه وطأة وأعفى أثراً. على أنى جربت كليهما وذقت الأمرين منهما معاً. تقولين: «لأنه النار المقدسة». نعم. لقد أعطانى من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلى حتى جعل البون بعيداً جداً بينى وبين هذا العالم غير القديس.

تقولين: «إنه النار التى تطهر». حقيقة أنه تلقى وجدانى بالتطهير منذ أن كان لى وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شىء ويتأثر لأقل شىء. وهذا فيه من الضنى والخطر ما فيه.

تقررين «أنه النار التى تحيى». نعم يا مى. إنه أحيا روحى حتى أحرقها، لأنه كان كل صباح كمصباح سيال كهربائه، شديد. ولكن فتيلته ضعيفة لا تحتمل.

هو «النار التى تلين» هذا ما أبديت. ولكن ألا تعتقدين أن اللين قد يؤذى ولا يفيد. خصوصاً فى هذه الدنيا التى كلها صدام وعراك، وأنه لا يفل الحديد إلا الحديد. إنه ألاننى حتى صيرنى ماء. وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة!!

يصبـونه فينصب، ويريقـونه فيختـفى فى الأرض، ويضعـونه فى كل آنية معـوجة وملونة، فيـأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراد به من الألوان. تبـخره الطبيـعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض وآونة تعـاكسه بصقيعها برداً وآونة تحمى عليه براكينها فيخرج ملتهباً، وحـيناً تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو برئ. ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال؛ يضعون فيه سكراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمـر. وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بالجميل. وهو بلا ثمن فى أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء فى أقلها. إنه مثلى يا مى يذهب ضياعاً.

وختـمت حسـن تعليلك لعذابى بقـولك: «إنه النار التى ترفع النفس على أجنـحة اللهيب إلى سماء المعنى» إلخ.

نعم يا مى إننى الآن على أجنحـة اللهيب، ولكنى لم أصل بعد إلى السـماء، وإذا وصلتها فلن يعود العالم يرانى فهل يا ترى سـتعجبنى السماء؟ إنى أشك فى ذلك. إنى أول ما حفظت من الشعر حـفظت المراثى وأولها رثاء الأندلس. وكنت فى حداثتى أقرأ كثيـراً ديوان المتنبى وأعجب بروحه العاليـة وبنفسه الكبيـرة، وأظنه هو الذى عدانى فى ذلك وسمم آرائى، رحمه الله، إنى ألذ كثيراً بهذه العدوى..

وقد قال لى أخى مـرة بعد حديث كنت أشتكى له فيه الدنيـا وأهلها وأقول: «لعل الله يجزينى على هذا فى آخرتى بالجنة».

قال مـتهكماً: «أنا واثق يا شـقيقتـى أن الجنة أيضاً لن تعجـبك لأنه لا يكاد يسرك شىء». أستغفر الله.

إنك يا مى خالفت المألوف فى التمنيـات والمجاملات الفارغة، وهى كثـيرة وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيدى الميلاد ورأس السنة المسـيحيين. قلت: «ابتسمى له» أى لدعائك «إن شئت وإلا فلا تصغى ولا تـسمعى واسألينى عما أهمس به لأجيـبك أنى أحمد الله على إبلالك وأنى أسأله أن يديمك سالمة) إلخ.

لا يا عزيزتى، إنـى أكره الكذب والمجامـلات الفارغة ولذلك أصـغيت وسـمعت وابتسمت (حسب أمرك) وتسرنى جداً صراحتك فى الدعاء على.

أتدرين يا مى أن ذلك اليوم الذى تمنيت لى فيه العذاب كان فيه عيد ميلادى أيضاً.

وأنى تفاءلت خيراً بدعائك وافتتحت عامى الجديد بالضحك من تمنيك، وبصداقتى لك تبعاً لذلك التمنى المعكوس. أشكر لك يا عزيزتى أمانيك لى ورغباتك الصادقة، وأقر لك أنى واقعة فيما رجوت لى والحمد لله، ولكن يا مى لا أتمنى المزيد. إنه عذاب طاهر لا يتعدى الميل إلى السكون والشعور بشىء من الحزن الشعرى الجميل. ولكنه، ولله المنة والشكر، لا تخامره شائبة من الندم ولا من الأسف الأثيم وأخشى أن يزيد ضرام النار التى طلبتها لى فأحترق يا مى أو أصل إلى ذلك الذى لا أريده لنفسى ولا أظنك تريدينه لى.

الساعة المفقودة

عجيب يا سيدتى أنك تريدين عذابى وأنا أريد هناءك. أتدرين ماذا سألقيه عليك فيفرحك؟

إنى وجدت ساعتك المفقودة والتقطتها. رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسح دموعك لأنى أحب دائماً أن أمسح دمعة المحزون. تعالى إلى لتأخذيها وتستغفريها من وصفك إياها بالغدر وبعدم الإحساس. فإنها، أحسب، بشوقى لرؤيتك فأتت تقدمة لمجيئك ولتعارفنا.

إنها بثت إلى ما كنت تشكينه إليها من العواطف والآلام. عثرت على وعثرت عليها لنكفى قلبك شر الفناء من الوحدة، ولنؤكد لك أنك وجدت الصديقة التى لا تخون.

حكاية الرجل

والآن فلنعد إلى حكاية الرجل

عجيب يا سيدتى أمر هذا المخلوق الغريب الأطوار الذى يسمى «بالرجل». إنى أعتقد أنه كريم شجاع وله قلب حساس ولكنى أظنه (وبعض الظن إثم) أنانياً قبل كل شىء. ورأيى أن أنانيته وحدها هى أصل رذائله. فهو يهضم حق المرأة ويستعبدها، لا لأنه يبغضها أو يتمنى لها السوء، ولكن ليلهو بها وهو يحبها. ويموت لأجلها، لا لأنه يحبها، ولكن ليلهو بها. وهو فى كل ذلك واسع الحيلة قوى الحجة فيقنعها فتصدقه وهو كذوب.

أما المرأة فهى دائماً تحترمه وتحبه لأنها تحبه، صادقة، وإذا كرهته علانية، ولم يكن لذلك البغض من دواء. عرف ذلك أبو الطيب فقال:

وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضاً   وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد

هى صادقة مخلصة دائماً حتى وهى خاطئة. هى تحب لتفنى فى الحب، ولكن الرجل يحب ليعيش متمتعاً بالحب. هى تحزن وقت المصاب لتتفرغ للحزن ولكن الرجل

لا يحزن إلا ليبحث عن تعزية وسلوان.

المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت. إنها تعلم أن حريرها الذى تقدمه للملأ زينة وحلية سيقتلها، ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه.

أما الرجل فهو كالنحلة يتنقل مـن زهرة إلى زهرة متروضاً، وقد يطيل المكث على زهرة ناضرة وإنما ليمتص منها نضارتها وماء حياتها. إنها تحب الأزهار حيناً ولكنها تلهو بها أحياناً فتـتركها هشيماً. وهى تقدم للنـاس عسلاً فيه شفاء لهم وشمعـاً نافعاً ولكنها تعملها لغذائها وسكنها قبل كل شيء.

ظلمنا الرجل حقوقنا، لا لأنه كان ينوى ظلمنا، وإنما هو أخطأ كـثيراً فى حسبانه، وإن ما يزيد فى قوتنا يضعف من قوته هو. لعله ظن أن مملكتنا واحدة ولذلك نظر إلينا نظر الدعيات الثائرات. وإنما نحن نريد له السـعادة والمزيد من القوة فى مملكته، ونرجو منه أن يفك عنا الخناق فى مملكتنا المستقبلة التى تشد أزره ولا تفكر فى إضعافه قط مهما بلغت من العزة والقـوة. إننا نتقـدم إليه كأننا سـاعده الذى يريد أن يخدمـه لا كأننا يد غريبة تريد أن تضربه. إننا منه وهو منا فليطب نفساً وليقر عيناً وليعطنا ما نشاء.

وإنما نحن يا مى ضـايقناه فى بعض شؤون مملكتـه حتى ظننا نريد منازعـته فيـها. لنترك له السياسة التى يحبها وحمايتنا. وأقول لك همساً: «إننا لا ننفع بدونه ولكنه هو أيضاً لا ينفع من غيرنا!!»

إن المطالبات بحق الانتخابات وإن كن يطلبن حـقاً إلا أنهن ظالمات الرجل وأنفسهن معـاً، لماذا يرمن مشـاركتـه فى الجلوس على كراسى «البـرلمان» ولا تقدم واحـدة منهن صدرها للقاء كرات المدافع ونصال الفناء فى الحرب. الحق أحق أن يتبع.

ليهنأ الرجل بمملكتـه. إننا لا نهز عرشه ليـتداعى إلى السقوط كمـا تقولين، ولكنا نهزه لنطلب منه «الدستور».

باحثة البادية

ولها فى وصف البحر

فى حالتى صفوه وكدره

تعالى الله مـا هذا الجلال! أيها البـحر إنك كأطمـاع الإنسان لا تنتهى إلا إذا عـبر جسر الحياة. كذلك أنت لا يعرف لك حد إلا عند الخروج منك. أو أنك كقلب الرجل مرة تصفو ومرة تغضب. لا أمـان لك فى الأولى ولا أمان فى الثانية. إذا رضيت كنت جمالاً وإن غضبت انقلبت نكالاً.

أيها البـحر إنك رهواً نعم المركب الذلول كأن صـفحتك من الغـمام، يصطخب الموج بين أحشـائك ويتلاشى كـألفاظ الحاد تمر بسـمع الحليم. وتشق البواخـر جوف عبـابك فتصبـر عليها صبـر الكليم. تحمل من الأثقال والأكـدار ما لو حملته الجـبال لخرت هداً. كأن صوتك الـهادئ تموجات لحن شجى، وكأن أمواجك المزبدة مـتتابعة متقـابلة سرايا جيش منظم يحمل رايات السلام. إذا صـحت السماء استعـارت صفاء زرقتك وإن تجللت بالغيم حكت لون كدرتك، تضيق عليك الأرض مسالكها فتنكمش وتوسع لك فتنفرج، تجرى متواضعاً تحت قـدميها وأنت أعظم منها قوة، وأعز شأناً، تنفجر جـبال النار (البراكين) بين ضلوعك فلا تلتاع ولا ترتاع كـأنك أجمد من قلب الخلى. أو كأنها بثور بأديمك أو أثر لذع البعـوض فى وجه الحسناء، كم سقطت فيك جزر وبلدان تحتمى بك من مآثمها ومعاصيها فمسحتها بدموعك ونفيت روعتها بمائك الطهور. ظلـموك أيها البـحر إذ لم يهـتموا بك اهتـمامـهم بأختك الغـبراء. زينوها وتركوك عاطلاً، ففنيت بجلالك عن جمالها المصطنع، وبحدائق مرجانك وأودية درك عن حدائقـها الخضـراء وأوديتها الجـرداء، وصلتهم فقـطعوك، وشايعـتهم فناوؤوك، بذلت لهم مـا تملكه زينة وطعامـاً وتسامـحت لهم بمائك فحللوه شـراباً وأنخت لهم متنك فـاتخذوه ركـاباً، وصقلت لهم جبـينك فجـعلت منه عند بزوغ القمـرين مرآة ومشكاة. تفيض عليـهم بهجة ونوراً. كأن العسجد أذيب فـيك نهاراً. وتكسرت فى ثنائك جداول اللجين ليلاً. وأنت أيها البحـر الخضم أصل حياتهم، منك الغيث ومن الغيث الحياة. أظللت سمـاءهم. وأنبت غذاءهم وألطفت هواءهم. وفوق ذلك فأنت مستـودع أسرارهم وقارورة أقذارهم، فـهل تراهم على ذلك يشكرون؟ تالله ما رأيت مثلك اتضاعاً فى عظمة واحتساباً فى قدرة.

وإذا عبثت أيها البحر وكشرت عن نابك، ويا سرعان ما تعبث، فإن الموت فى تقطيب حاجبيك يصرح الشر باسمه عند زمجرة منك، كأن جوفك كان مملوءاً أسوداً فلفظتها فاغرة أفواهها، تبلع من تصادف فى طريقها. يدوى صوتك كالرعد القاصف فيمطر وابل المنايا بغير ولى. ما أظلمك أيها البحر مستبد غاشم تأخذ البرئ بدم المجرم أو تأخذه بلا جريرة. إن الله لم يظلمك إذ جعلك ملحاً أجاجاً. وإن البشر لم يبخسوك حقك إذ امتطوا ظهرك كالدابة. ومزقوا أديمك سفراً. وإن أقل خفقة فى قلب الأرض تذكر تضطرب على اتساعك، وأدنى هزة من الريح تهز أعصابك، لا أمان عندك فتحب ولا ميعاد لغضبك فتتقى. كأنك فى تقلبك رأى الضعيف أو يمين الحانث وفى تلونك كالحرباء. كم مجرم استعان بك على كتمان جريمته. وكم ملك أفنى رعيته ودفن العدل فى جوفك كأن آذيك متلاطماً قمم الجبال تتساقط كسفاً أو رؤوس الجند البرئ تتناثر إرضاء لأهواء الملوك الظالمين. كان جوفك المظلم ضمير الحسود يغلى كالمرجل ويخفى ما يخفى تحت ثوب الرياء، تنطح الصخر الأصم كمستجدى البخيل، ثم ترجع أدراجك كالسائل المحروم أو كالجيش المقهور تشمخ بأنفك فترغمها اختراعات الإنسان، وتتطاول إلى السماء فتسقط أعياء ويرجع البصر خاسئاً وهو حسير، لا أثر للرحمة عندك كأنك قلب الكافر الجحود. لا يسوغ لك شراب تمج مرارة كمرارة المظلوم أرهقه العذاب. كأن بريق مائك التماع أسنة الخرصان أو امتداد ألسنة النيران. شاهر سيفك بادئ العدوان. لكنك لا تتمثل فى هجومك بما يفعله الشجعان. لأنك تطلع على الغافلين بالردى بغير نذير.

لا حبذا أنت أيها البحر من طريق ولا رفيق، لولا اضطرارنا إليك ما سلكناك، ومن يسلم منك فما ينجو من الحمام إلى الحمام كما قال المتنبى:

وإن أسلم فما أبقى ولكن نجوت من الحمام إلى الحمام

ما أكفر الإنسان وما أضعف إيمانه أين قوته واختراعه من قدرة الله سبحانه، إن فى البحر وحده حالتى صفوه وهياجه لعبرة لقوم يعقلون، فسلام عليك أيها البحر ضاحكاً وعبوساً، وسلام عليك إنك أبو الكون ومحيطه، وسلام عليك لو لم يكن لك فضل

إلا وصل مصـر بأجزاء العـالم لكفاك بذلك فـضلاً ولو لم يكف مـاؤك أن يصل لمصر لأكلته بشرايينى.

باحثة البادية

ذكرى باحثة البادية.

بعد سبع سنوات:

مظاهرة نسائية ــ مطالب النساء المصريات ــ شرح حالة المرأة.

قصيدة شاعر القطرين ــ خطاب هدى هانم شعراوى.

قصيدة المربية السيدة نبوية موسى ــ آراء وأقوال.

ذكرى سبع سنوات لصاحبة الإمضاء

مضى سبع سنوات على وفاة كاتبة فاضلة، وسيدة ذات مبدأ شريف فى تحرير المرأة وحلها من قيود الاستعباد. فصارت تكتب بكل ما أوتيت من علم وقوة أرادت فى وقت مظلم كانت تعد فيه الأمة المصرية ذكر أسماء السيدات، ولو فى المجالس الخصوصية، أمراً يشمأز من ذكره، وكل محدث تغير فى الهيئة التى نشأت عليها يعد ضلالاً. قام الأستاذ المرحوم قاسم بك أمين وكتب عن تحرير المرأة فرماه الرجعيون بأفضل نساء الأمة المصرية، وصار يحنق عليه كل من قرأ كتابه، أو من لم يقرأه، والكل لم يفقه مقصده ومرمى كلامه إلا نفر قليل فى مصرنا العزيزة. قام من قبله الإمام المرحوم الشيخ (محمد عبده) وأراد إدخال بعض الإصلاحات عند الأزهريين فرموه بالعقم فى الدين. وإذا عددنا ما قام به المصلحون من وجوه الإصلاح، وما قابلوه به من الاستهجان، لضاق بنا المقام غير أننا نعرف أن المرحومة باحثة البادية قد وضعت حجر الزاوية لتشيد عليه صرح آمالنا، حتى نكون أمة راقية نعمل على سعادتها نساء ورجالاً فيحق علينا نحن بنات الجنس اللطيف أن نقيم فى كل عام مثل هذه الحفلة التى أقيمت يوم ٢٤ نوفمبر الماضى فى حديقة الأزبكية تخليداً لذكرى زعيمة من زعمائنا. وقد توج هذه الحفلة حضرة السيدة الفاضلة هدى هانم شعراوى بقبولها رئاسة حفلة التأبين. فتحت الحفلة بتلاوة آيات الذكر الحكيم. ثم وقف الشاعر المفلق خليل مطران بك وألقى كلمة بالنيابة عن حضرة السيدة المصونة رئيسة الحفلة. أبان فيها ثلاثة مطالب: الأول؛ مساواة المرأة بالرجل فى مناهج التعليم. الثانى؛ إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية تنتقد فيها تعدد الزوجات. الثالث؛ مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق المدنية والشرعية. وقد أفاض القول فى هذه المطالب الثلاثة وعززها بالقول والبرهان. ثم ألقى قصيدته الرثائية حتى أبكى القلوب قبل العيون فذابت أسى وتفجعاً على الفقيدة وما كان لها من جليل الأعمال. ثم وقف شقيق الفقيدة الأستاذ مجد الدين ناصف وذكر أن النهضة النسائية فى مصر قد ظهر قبس من نورها. فقال إن أختى هى أول فتاة تعلمت فى مدارس البنين، وأول من نالت شهادة الدبلوم، وذكر لمحة من تاريخها، وأول من كتب فى الصحف نظماً ونثراً، وقد فاجأتها المنية فى سنة ١٩١٨ فيكون مضى على وفاتها سبع سنوات. وقد أبن شقيقته بكلمات مؤثرة أسالت العبرات، ثم قدم بنات دار الاتحاد النسوى فألقين

نشيداً تراه فى غـير هذا المكان. ثم أعقبتـه حضرة الآنسة المربية الفـاضلة نبوية موسى، كبيرة مفـتشات وزارة المعارف العمومية، فـألقت مرثيتها بما عهد فيـها من طلاقة اللسان وفصاحـته، مما كان لها من التأثـير على أفئدة الموجودين. من ثم اعـتلت منصة الخطابة حضرة الـكاتبة القديرة الآنسة «مى» فـقالت: إنى يربطنى بالفقـيدة ثلاثة روابط، الرابط الأول؛ ما وجـدته من جاذبية مـا يسطره يراعهـا البليغ. الثانى؛ فضلهـا علىّ فى سنة ١٩٠٧ بأنها جرأتنى على الكتـابة فى الصحف. الثالث؛ جرأتها على أنهـا أول مصرية شرقية تطالب بحقوق المرأة. فدلت فصاحة الآنسة «مى» فى إلقاء الحماس على أنها من كبيرات الخطيبات، لأن كلامها كان له الوقع الطيب فى قلوب سامعيها وانصرف الجميع وهم يرددون فليحيا العلم الذى أظهر السيدة المصرية على مسرح الخطابة بما أبهر العقول من فصاحة وشجاعة إلقاء غير ما كنا نراه فى أمهاتنا.

فريدة فوزى.

المشرفة على القسم النسائى بمجلة الحسان.

خطاب السيدة هدى

أيها السادة:

اجتمعنا اليوم لنحيي ذكرى باحثة البادية. ولست بحاجة إلى أن أبين لكم مقدار الخسارة التى نالتنا بوفاتها فى عنفوان شبابها وبدء جهادها. وليس منكم من يجهل ما كان لها من فضل واسع وأثر خالد فى خدمة الأدب والتربية والنهضة النسوية.

وإن أمسكت القلم عن سرد آثارها الطيبة فلأنى رأيت ترك التفصيل فى هذا الباب لمن هو أولى به منى، ألا وهو شقيقها الأستاذ مجد الدين الذى كان لنا معشر النساء خير عزاء منها، لأنه اقتفى أثرها حتى كأنه رأى من الوفاء لها أن يعمل معنا على تحقيق ما بدأت به فى سبيل تحرير المرأة ورفع شأنها، وإن فى شهودكم هذه الحفلة لتعزية أخرى لأنه يجعلنى عظيمة الرجاء فى تأييدكم للمبادئ التى وضعت أساساً لحرية المرأة ورقيها.

وكيف لا يكون لى هذا الرجاء وقد أخذ الشعب المصرى يقنع غيره من الأمم الإسلامية الراقية بأن جهل المرأة وعزلتها فى دارها كان ولا يزال من أهم أسباب تأخره وانحطاطه. وإنى لمغتبطة بهذا الشعور الذى يبتسم أمامى ابتسام الفجر بعد الليل المظلم.

والآن أرجو أن تسمحوا لى أن أشرح لكم حقيقة ما تصبو إليه المرأة المصرية، وما فهمه بعض الناس خطأ من مطالبنا فأولها تأويلاً مشوشاً بعيداً عن الحقيقة المطلوبة.

مطالب المرأة

المطلب الأول:

مساواة المرأة بالرجل فى فروع التعليم. لا نظن عاقلاً ينكر علينا هذا المطلب لأننا إنما نريد أن ندرأ عن أنفسنا غائلة الجهل.

ولذلك رأت الحكومة أخيراً أن تصغى لشكوانا المستمرة منذ سنوات فأخذت تذلل العقبات التى كانت تحول دون مساواة المرأة بالرجل فى التعليم فأنصفتنا فى ذلك بعض الإنصاف، ونرجو أن تتدرج بنا إلى الكمال فيه.

كان يرى بعض الناس فى الزمن الغابر أن تعليم المرأة يعرضها للفساد، ولما تبين لهم أن الجهل هو أساس الفساد رجعوا إلى الصواب، وعملوا على تعليمها، ولكن إلى حد محدود، مع التمسك ببقائها فى غرفتها الأولى ظانين أن ذلك أصون لأخلاقها وباعث على قيامها بواجباتها المنزلية، فظهر لهم عكس ما توقعوه، فرجع بعضهم إلى النظرية

الأولى، وبقى البعض الآخر متردداً بين التعليم والجهل، وكلهم عاجز عن التقدم بها إلى الأمام أو التأخر بها إلى الوراء.

ولا أدرى هل كان ذلك لما رسخ فى طباعهم من استضعاف المرأة واحتقار شأنها، أو إن ذلك لجمودهم وفقدانهم الشجاعة للتصريح بالحقيقة أمام الأمر الواقع.

ومن الظلم البين أن يتحكم هذا الفريق فى حياة المرأة وتكوينها تحكم المستبد كأن لم تكن إنساناً له حقوق مثل حقوقه، وعليه واجبات مثل واجباته، وله شعور وعقل وإرادة كشعوره وعقله وإرادته.

وقد فات هذا الفريق أن العلم، لكائن من كان، لا يكون أداة للفساد، كما فاتهم أن تعليمها مع بقائها فى غرفها غير كاف لتكوينها وتهذيبها.

لأن العلم لا يظهر أثر فضله إلا وقت تطبيقه على العمل، وشر آفة على الإنسان ـ رجلاً كان أو امرأة ـ اتساع معارفه وتضييق دائرة عمله.

فامنحوا بناتكم حسن الثقة بهن، وحببوا إليهن مكارم الأخلاق، واطلقوهن يعملن فى أفق الحرية الكاملة.

ولهن من حب العفاف خير واق وأشرف حجاب.

المطلب الثانى:

إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية، وجعلها منطبقة تمام الانطباق على روح التشريع الدينى من إقامة العدل ونشر السلام بين الأسر وإحكام روابط المصاهرة وذلك بأن:

(١) يسن قانون لمنع تعدد الزوجات، إلا لضرورة كعقم الزوجة أو مرض عضال يمنعها من أداء وظيفتها الزوجية، وفى هذه الحالة يجب أن يثبت ذلك الطبيب المختص.

(٢) يسن قانون يحرم على الرجل أن يطلق زوجه إلا أمام القاضى الشرعى، وعلى القاضى معالجة التوفيق بين الزوجين بحضور حكم من أهلها وحكم من أهله قبل الحكم بالطلاق، طبقاً لنص الدين الحنيف.

أعتقد أننا فى هذا المطلب لم نتجاوز الحكم الدينى، ولا الحكم العقلى، إذ ليس منا من يجهل أن الطلاق مثار الاحتقاد والأضغان بين المتصاهرين، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

وليس منا من يجهل مضار تعــدد الزوجات، وما له من أثر سئ يوهن جلال الأبوة فى نفــوس الأبناء، ويختلس حنان البنوة من الآباء، وينــقص رابطة الأخوة فــتؤول إلى مشاحنة وبغضاء.

ويدفع الرجال إلى الإسراف والتــبذير، وينمى الأثرة، فينقادون إلى شهــواتهم غير حاسبين حساباً لما سيعقب ذلك من حسرات ونكبات.

هذا إلى القضاء على سرور المرأة فى حياتهــا والحكم عليها بالشقاء الأبدى، وذلك ما لا يرضاه رجل شــريف تتغلغل فى نفسه العاطفــة الإنسانية، ولا ترضاه امرأة رفــيعة كانت أو وضيعة.

إذا كانت هذه آثار تعدد الزوجات، محســوسة ملموسة، فلم لا نحاربه بكل قوانا، ولم لا ينضم إلى صفوفنا عقلاء الأمة لتلافى شروره ومفاسده.

المطلب الثالث:

مســاواة المرأة بالرجل فى الحقوق النيابــية والحقوق التــشريعية. تريد المرأة أن تتــبوأ مكانها فى الهــيئة الاجتمــاعية، وأن تنال قسطها كــاملاً فى جميع الحــقوق، لا لتزاحم الرجل كما يتوهم، وإنما فى الحقيقة لتساعده فى تحمل أعباء الحياة.

تعلمون أن الرجل والمرأة بحكم الشرائع الســماوية والنواميس الطبيعــية قد خلقا لا لينفرد كل منهما بنفسه، وإنما ليمتزجا ويتكاملا ويتشاركا فى الحقوق والمسئولية.

ولم نر الطبــيعــة أفردت الرجل بعــمل خــاص، كمــا لم نرها أفردت المرأة بعــمل خاص، لأن الاستــعداد الفطرى واحد فى الجنسين، وإنما هيــأت الطبيعة كل فــرد لعمل يميل إليه بحكم مزاجه الخاص.

بالرغم من هذا كله عزيز على الرجل أن يقتنع بكفاءة المرأة واستعدادها للعمل.

وشديد عليه أن يستسلم لما تطلبه، وتسعى إليه، لأنه أهملها فانقادت إليه وخضعت لإرادته واستبداده حيناً من الدهر ففقدت بالطبيعة ما هى مستعدة له.

وما مثل ذلك إلا كمثل من أهمــل استخدام إحدى عينيه ففقــدت وظيفتها، لا عن مرض، أو كمثل من أهمل استخدام يده اليمنى فى الكتابة فأصبحت شبه مشلولة وليس بها شلل، ولو أنه استخدم كل أعضائه بدقة فــيما خلقت لأجله لكان له منها خير عون وأكبر نصير.

ولو فطن الرجل إلى ذلك أو أرجع نفسه بعدل ونزاهة وقدر ما يعود على نفسه من مشاركة المرأة له فى مهام الحياة. لو علم ذلك لما وقف حجر عثرة فى طريقها، لأن نهوضها نهوض به، وله من رقيها نصيب وافر وأثر محمود.

يرى بعض الرجال، الذين يضنون على المرأة بإعطائها حق الاشتراك فى السلطة، أن ليس ذلك من مصلحتها لأن خروجها إلى ميادين العمل يقلل من نفوذها غير المباشر ويضعف تأثيرها فى الهيئة الاجتماعية، ومن أجل هذا ينصح للمرأة أن تحافظ على هذا النفوذ، لأنه أبقى لمنزلتها عند الرجل وأنفذ لكلمتها دون مجهود عظيم تبذله فى هذا السبيل.

ولكن هذا البعض الذى يرى ذلك فاته أن ينظر إلى الثمن الذى قد تدفعه المرأة للوصول إلى هذا النفوذ، كما فاته أن يتبصر فى عواقب هذا التصرف أو هذا النفوذ الخفى الذى لا مسئولية فيه.

لا ينكر أحد أن للمرأة، على العموم، تأثيراً محسوساً فى الرجل تظهر نتيجته فى كل عمل من أعماله، فمن الخطر الجسيم أن يكون لها ذلك التأثير العظيم وهى بمعزل عن الهيئة الاجتماعية وعلى جهل تام بمجرى الأمور ومقتضيات المصلحة العامة، وأكبر دليل على ذلك الحوادث التاريخية الماضية التى دفعت رجلاً عظيماً من كبار مفكرى فرنسا إلى أن ينادى بأعلى صوته ابحثوا عن المرأة عند كل ملمة أو كارثة.

لم يقل ذلك الرجل هذا إلا بعد وقائع مثبتة.

والحقيقة أن المرأة مظلومة، لأن تحكم الرجل فى حياتها وبعدها عن مواطن التفكير ومواقف المسئولية جعلتها تندفع بشعورها دون مراعاة للمصلحة العامة التى لا تعرف عنها شيئاً، ومن الظلم البين أن يعيرنا الرجال بعيوب لا تقع تبعة وجودها فينا إلا عليهم وحدهم.

وليس هناك علاج لهذا الخطر المخيف إلا مشاركة المرأة للرجل فى المسئولية الحقيقية عن الأعمال الاجتماعية العامة.

أيها السادة:

هذه المطالب التى نرفع بها اليوم صوتاً عالياً ونلح فى طلب تحقيقها، كانت السعار الأول لباحثة البادية وظلت تنادى بها منذ نعومة أظفارها، وقد عاجلتها المنية قبل أن

تنعم بتحقيق شيء منها، فماتت في أول الطريق. وها نحن أولاء اليوم نجاهد على إثرها، ولنا بعض التعزية إذا متنا لأننا قد كوفئنا بتحقيق بعض الأماني التي حرمت باحثة البادية مشاهدتها، وهذا مصير كثير من المجاهدين الأولين في هذه الحياة: يضعون الغرس الطيب ليجني ثماره خلفاؤهم.

فنسأل الله للفقيدة الرحمة، ولنا حسن العزاء وتام التوفيق بفضل تآزرنا ومعاونتكم لنا.

ثم تلا الأستاذ خليل مطران قصيدته البارعة التى قوطعت بالتصفيق والاستعادة مرات وهى:

قصيدة خليل مطران

يا آية العصر حقيق بنا تجديد ذكراك على الدهر
جاهدت لكن النجاح الذى أدركه أعلى من النصر
بدت تباشير الحياة التى جدت فحيى طلعة الفجر

قد أثبتت يقظتها للعلى بعدك ذات الخدر فى مصر
فبرزت معه ولكنها ما برزت عن أدب الخدر
تعفو عن المخطئ فى حقها حلماً وتستعفى من النكر
مكانها أصبح من زوجها مكان ثم الشطر بالشطر
لها على الواجب صبر وإن شق ومرت شرعة الصبر
مخايل العزم يرى وريها مؤتلقاً فى وجهها النضر
وتلمح العين حلى نفسها أزهى وأبهى من حلى التبر
فى أى عصر كان عرفانها أو خيرها ما هو فى العصر
قد علمت أن المزايا وإن جللن لا يغنين من طهر
لو جمعت فى نسيق بارع كريمة الأحجار والدر
ولم تصب نوراً فتبدى به زينتها الخلابة الفكر
ألا يكون الفحم والماس فى منجمه سيين فى القدر

يا من ذوت فى زهرة العمر ما أقسى الردى فى زهرة العمر
إن تبعدى ما بعدت نفحة تركتها من خالص العطر
فى كتب مأثورة كلها كالروضة الدائمة الزهر
ولا نأى عن مسمع القوم ما عنيت من أنشودة نكر

خالدة الترديد فى مصر عن ... نابغة خالدة الذكر
بشدوها المؤلم فى أسرها ... أطلقت الطير من الأسر
ما الوزر أن تبدو ذات الحلى ... وسيرها خلو من الوزر؟
أى كمال وجمال يرى ... كما يرى فى طالع الزهر؟
فباسم طلاب رقى الحمى ... وباسم أهل الخلق الحر
أهدى إلى روحك فى عدنها ... أنفس ما يهدى من الشكر
ذلك دين لك فى عنقنا ... قضاؤه ضرب من البر
ومثله أو فوقه ذمة ... حقت لرب النظم والنثر
لوالد رباك حتى إذا ... عولجت قفاك على الأثر
هل كنت إلا كوكباً آخذاً ... فى أفق العلياء من بدر
فضلك من فضل أبيك الذى ... كان أبا الآداب فى القطر
أبدع من جدد فى مرسل ... وخير من جدد فى الشعر
قصرت فى إيفائه حقه ... تقصير مغلوب على أمرى
وكان من عذر الأولى أرجأوا ... تأبينه ما كان من عذرى
شلت يد البين الذى ساءنا ... بفقد ذاك العالم الحبر
العامل الثبت الذى إن يفض ... فى مبحث حدث عن البحر
رب المعانى والبيان الذى ... علمنا ما لم نكن ندرى
الباذل العلم لطلابه ... بذلاً وما كان من التجر
يثقف النشء على أنه ... أعلى منار لأولى الذكر
فى صدره الرفق جميعاً وما ... من ريبة فى ذلك الصدر
أخلص شىء لا ورائه ... بيته فى السر والجهر
فرحمة الله ورضوانه ... على فقيدينا إلى الحشر
من والد بر ومن بضعة ... طهر أنارا ظلمة القبر

قصيدة السيدة نبوية موسى

ما غاب من ملك علاها بل ظهر ... لما توارى النيل منها واستتر

وهوى بباحثة القضاء وحكمه ... أما مباحثها فدان لها القدر

كانت كشمس الفضل تسطع فى الضحى ... إن كان أهل العلم يوماً كالقمر

كانت لكل ملمة تعرو بنا ... ولكن عادية مواقفها غرر

ظهرت مواقفها الكثيرة طفلة ... فأنار روض العلم فكر مستعر

ما كان فى أبناء مصر مثلها ... وبذاك فضلت النساء على البشر

ها كم أشقاها وإن ملئوا علا ... هل فيهم من فضل باحثة أثر

لو أنها عاشت لكان ذكاؤها ... تهدى الذى جهل النساء وإن كفر

لهفى على شمس توارت فى الضحى ... قبل الأوان وضوء فكر قد قبر

كم جاهدت فى حب مصر فأتعبت ... مقلاً أضر بحسنها طول السهر

كنا يؤم لدى الحوادث شخصها ... فيمن يلوذ وقد أحاط بنا الخطر

ملك لقد جحد الرجال نبوغنا ... ونسوك لما زال عهدك والقبر

هل تقدرين على الكلام ليعلموا ... أن النساء أجل من يلقى الدرر

لو أنهم سمعوك يا ابنة ناصف ... تتسامرين لهالهم حلو السمر

قومى فخطى من بيانك أسطراً ... تهدى العنيد وكل من فقد البصر

ردى لنا الفضل الذى ولى فقد ... دفن الكمال بجوف قبرك واندثر

هبى نذافع عن كرامة جنسنا ... فسواك لا نرضاه فى كر وفر

هزى اليراع فإن طول سكونه ... حرم النساء من الرقى المنتظر

هزى اليراع فإن مصر بحاجة ... ليراع فاضلة وعقل مقتدر

هزى اليراع فإن كل فضيلة ... تدعو النساء إلى النضال المستمر

هزى اليراع فإن فاسدهم بغى ... فينا وليس لمن بغى فينا مفر

هذى الفضيلة فى البلاد طريدة ... من لى بصوتك للفضيلة ينتصر

ضاع العفاف فهل سمعت بفقده ... وبمن أصابوا القلب منه فانفطر

قطعوا غصون الفضل فينا عنوة ... ولأنت أول من جنى منها الثمر

يا شمس نهضتنا وغيث رياضنا غاب الضياء ولم يعاودنا المطر
لما توارت شمس فضلك بغتة عز الرجاء وبدل الصفو الكدر
وذوت رياض العلم بعد نمائها وهوى بها جور الحوادث والغير
هل كنت يا ابنة ناصف إلا هدى يهدى الأنام فذاع صيتك واشتهر
شهد الرجال بما لذاتك من علا فى الخافقين وما لشأنك من خطر
وهم الألى غبنوا النساء وأنكروا ما كان من مجد لهن ومن ظفر
فإذا أتى منهم بفضلك شاهد دلت شهادته على صدق الخبر
هذى جموعهم تدل صراحة أن التى يبكون أفضل من خطر
فإليك من كل القلوب تحية تهدى إلى جدث بمثلك يفتخر

خطبة الآنسة مى

فى حفلة ذكرى باحثة البادية

هذه هى الخطبة الشائقة البديعة التى ألقتها الكاتبة المبدعة الطائرة الصيت الآنسة «مى» فى الحفل الذى أقيم إحياء لذكرى باحثة البادية وكانت تقاطع بالتصفيق المتكرر:

أيها السادة والسيدات:

وأنا كذلك لى كلمة أقولها فى هذا الاجتماع، وكيف لا أقولها بكل قلبى وذكر الباحثة حبيب إلىّ أثير لدىّ؟ وكذلك لأسباب أستسمحكم فى إيضاح ثلاثة منها هى فى تقديرى أوجه الأسباب وأحكمها وثاقاً بين اسم الفقيدة وما لها فى النفوس من محبة وإكبار.

أما السبب الأول؛ وقد يراه بعضكم سبباً نسوياً مع أنه سبب جوهرى. فهو الجاذب الذى طويت عليه شخصية الباحثة. ذلك الجاذب القوى الذى يتشفع من بعض الشخصيات الكبيرة فيستولى علينا، ويظل جاداً وراء ميولنا ونزعاتنا كأن لديه رسالة يتحتم أن يؤديها إلينا، سواء فى الحياة أو بعد الممات.

أما السبب الثانى؛ فهو فضل الكاتبة على قارئة. لقد اطلعت على مجموعة «النسائيات» سنة الحرب فكانت الباحثة أول كاتبة عربية خاطبتنى فى موضوعات غريبة يومئذ عن معرفتى وإدراكى واهتمامى؛ موضوعات الزواج والطلاق وتعدد الزوجات والنقد الاجتماعى والإصلاح. فسيطرت على انتباهى وتغلغلت غير متعثرة فى مشاعرى، ولفتتنى إلى علل مازالت ضاربة إلى يومنا هذا فى مختلف المراتب، ومازال الدواء الحكيم الذى وصفته باحثتنا فى مقدمة ما يحسن أن تعالج به من الأدوية.

أما السبب الثالث؛ فهو فضل الكاتبة على كاتبة. فإنى بفعل حزنى عليها عكفت على درس شخصيتها وتمحيص آرائها ورسم صورتها الجذابة السمراء.

وذلك الكتاب الذى صدر سنة ١٩٢٠ «باحثة البادية» كان فاتحة تآليفى باللغة العربية ومنشأ اهتمامى بدرس شخصية المرأة عموماً والشرقية خصوصاً، ومسايرتها فى تطورها الجديد مع إعلان ما يناسبها وما تحتاج إليه، وتعريف ما لا يلائمها وما وجب عليها نبذه. ولقد كانت المرأة الشرقية إلى اليوم كمية مهملة ــ كما يقول العوازل ــ فلم يقم طبعاً كاتب يفرد لذات شخصية نسوية كتاباً. فكان للباحثة أن تفتح هذا الباب فتوحى

أول كتـاب عربى فى النقد الأدبى والاجتـماعى والتاريخى والإصـلاح عن إحدى بنات جنسها تدونه إحدى بنات جنسها.

وهذه الأسباب الثلاثة التى تصلنى بالباحثـة هى بعينها التى تصل الجمهور بها، ولو مع بعض الاختـلاف. فكل من قرأها شـعر بجاذبيهـا من خلال الصـحائف. وكل تأثر بكتاباتها وفقاً لاستعداده، القارئ منا والقـارئة. وكما كانت موحية أول كتاب عربى عن كاتبة عربية كـذلك كانت أول امرأة مصرية ـ وأكاد أقول شرقـية ـ تعاون الرجال والنساء على الاحتفاء بتأبينهـا احتفاء رسمياً. فأقام الرجال حـفلتهم بعد مرور أربعين يوماً على وفاتها. وأقام النساء حفلتهن بعد مـرور العام، فى دار الجامعة المصرية القديمة. وقد كان لى الشرف والسـرور والحزن أن أكون من أعضاء الـلجنة التى عنيت بتهيئـة تلك الحفلة ومن الخطيبـات اللائى تكلمن فيهـا. أوتذكرون متى كان ذلك؟ لقـد كان ذلك فى تلك الساعة المتلظية الطروب سـاعة اليقظة المصرية. لأن الباحثة سكتت للمـرة الأخيرة عندما سارت الأمة هاتفة تحت الأعلام الخافقات. أدرج جسم الباحثة فى الأكفان عندما انبرت الأمة تلقى عليـها لفائف المومـيات القديمة لتنتـفض منها النفس القومـية انتفاض الحـياة المشرقة المنشورة فى بعث جديد باهر!

للعمر ساعات، أيها السادة والسيـدات، لا يسع المرء فيها حتى ولو كان حكيماً إلا أن يعاقب القـدر وينعته بـالجور والطغيـان. لأنه بينما هو يغدق النـعم على الأحمق أو الخبيث الأثيم من بنى الإنسان إذا به يؤذى المحسن الكريم فيـصعقه فى لطمة واحدة بعد التعذيب الطويل. ذلك كان نصيب الباحثة من القدر. على أننا نعود إلى الامتثال الجميل الذى هو من أسمى دروس الإسلام، نعود إلى الامتـثال لعلمنا أن الزارع لا يتحول عن حقله إلا وقد نثر جميع البذور التى تحتم عليه أن ينثرها. ومن يد بطلتنا المباركة كما من يد قاسم أمين ألقيت البذور الصالحة فى الوادى الخصيب، فرأيتم اليوم، يا رجال مصر، هذا الحـصاد البـهيج من بنـات واديكم ينهضن عـاملات لـكم ولنفوسـهن ولأوطانهن وللإنسانية!

ولا عجب فى ذلك. بل قـد كان يكون العجـب واليأس أيضاً لو لم تتـحرك المرأة المصرية. كيـف؟ أويغامر الرجل ويجاهد ويسـتبسل ويفادى وتظل المرأة حـياله تمثالاً أو دمية لا يسـمع نداء الحياة، ولا تفقه عـجيج الأمانى وصيـحة الأوطان؟ كيف؟ أويدوى

العالم بصخب الشكايات والمطالب ولا تتأثر بذلك مصر، ومصر كالشرق بأسره مطمح الأنظار وسوق المصالح ومرمى المطامع؟ أوتنهض الأمم بشطريها للسعى والاقتباس والتجديد وتظل هذه البلاد معرضة غافلة رغم كونها النقطة المسيطرة على طريق المشرقين، وملتقى القارات الثلاث، والبقعة التى تستقر فيها خلاصة كل حضارة وكل ازدهار؟

كلا! لم يكن ذلك بالميسور فى بلاد قوية بماضيها، قوية بمستقبلها، قوية بحيويتها الحسية والأدبية وبرسالتها إلى العالم التى تجلها عن الانقراض والفناء! فكانت الباحثة ساعة النهضة الوطنية، ومثل النهضة الوطنية، أول وسيلة يتفاهم عندها الشطران ويتعاونان. فهنيئاً لنا به يقضى بين قوم نابهين! وهنيئاً للأحياء تدخر لهم القبور ودائع الفضل والذكاء!

ولقد شاء الأستاذ مجد الدين ناصف استنهاض همة الرجل فى هذا النادى. فبسط له مظاهر ظلمه، وفعلت فعله أستاذتى الجليلة السيدة نبوية موسى وهى المحقة فى إخلاصها. ولكن للأمر وجهاً آخر على أن أذكره ليقوم التوازن حيث يجب أن يكون. وما أنا قائلة إلا كلمة حق توحيها روح العدالة ومعرفة الجميل إن أنا شكرت الرجل لعطفه على المرأة وعنايته بحركتها فى هذه الديار.

فالرجل فى شخص قاسم أوجد اليقظة النسوية ودعا إليها. والرجل يتعهد هذه اليقظة بشخصكم أيها الآباء والفضلاء الذين تعنون بتعليم بناتكم وتثقيفهن وما فتئ الرجل ينشط المرأة ويستحثها ويروج مصالحها بأكرم المظاهر وأنبل الوسائط. وهل من هو أولى بالذكر فى هذا الموقف من أبى الباحثة؟ بل هل هناك من هو أولى بالشكر منك، يا شقيق الباحثة، أنت الذى نراك باذلاً ذكاءك وهمتك ومعرفتك وحماستك الفتية للإشادة بذكر قضية المرأة، وتفخيم أعمالها وبسط آرائها، وتشجيعها على مخاطبة الرجال فى شؤونها بإباء، وإرغام الرجال على الاستحسان والتصفيق والموافقة؟

وهاكم الكتب، والاجتماعات، والأحاديث، وهاكم عطف الصحافة الكريم بوجه خاص. كل ذلك ناطق باهتمام الرجل وإنصافه وسامى شعوره. وها هو كل شاعر وخطيب هنا، وها هو كل حاضر منكم أيها السادة الرجال، إنما هو يعرب بطريقته الميسورة عن رغبته فى تفاهم الجنسين لإعلاء شأن الأوطان. لأنكم تدركون أنه لاخير فى

وطن يجرى الرجال منه والنساء مقعدات! بل الخير كل الخير فى وطن يتعاون الرجال منه والنساء على تنشئة الفرد الصالح تنشئة للعائلة فالمجتمع، فالأمة الزاخرة بتيارات الرفعة والكرامة!

أيها السادة والسيدات:

إننا فى طريقنا إلى غايات خطيرة قومية وإنسانية وروحية تحدو بنا جهود العاملين وتنير سبيلنا أفكار الراحلين، ففاخرن يا أخواتى المصريات بأن تكن عاملات فى هذا الموكب العظيم كما تفاخرن بأن لكن شعاعاً نسوياً يزيد فى النور الطاهر السنى المنبعث من قبور الخالدين!

حرية المرأة فى الإسلام
لمجد الدين حفنى ناصف

لقد أطلق النبى للفتاة الحرية الكاملة فى اختيار الزوج. جاء فى الإمام (أحمد والنسائى) عن (عبد الله بن بريده) عن أبيه «جاءت فتاة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن أبى زوجنى ابن أبيه... ليرفع بى خسيسته قال فجعل الأمر لها فقالت قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شىء»

واشترت (عائشة) جارية وأعتقتها، فلما ملكت أمرها لفظت زوجاً كانت تزوجت به مكرهة وكان يمشى خلفها باكياً فقال النبى صلى الله عليه وسلم «اتقى الله فإنه زوجك وأبو ولدك» قالت: أتأمرنى؟ قال «لا إنما أنا شافع»، قالت: "فلا حاجة لى إليه» (المبسوط). وأرى أن حرية اختيار الزوج صريحة جد الصراحة هنا، وأن ليس للآباء حق فى الضغط على حرية بناتهم يزوجوهن من أقرباء لهم مهددين بحرمانهن من الميراث أو غير ذلك. وفى هذا وحشية يسوغ للفتاة أن ترفض احتمالها رفضاً، فإن زوجها هو شريكها فى حياتها الطويلة فلا قبل لها أن تطلق سعادتها إرضاء لشهوة الوالد سيما أن تقدير الرجل للزوج غير تقدير الفتاة، وهى فى هذا صاحبة الشأن. وقد أجاز النبى للنساء اللهو «البرئ» فى كثير من المواضع: جاء فى (أبى داود) عن (عمر بن شعيب) عن أبيه عن جده قال «قالت امرأة لرسول الله إنى نذرت أن أضرب على رأسك بالدف. قال إن كنت نذرت فأوفى بنذرك» وأوضح من هذا ما جاء فى (تيسير الوصول) «أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لفتيان الحبشة فلعبوا بحرابهم بين يديه فى المسجد. ودعا عائشة، رضى الله عنها، فوطأ لها عاتقه وحاط وجهها بيده» ولا أرى بعد هذا لماذا لا تستصحب الرجل امرأته فى حشمة لشهود حفلة أو نحوها إسوة برسول الله؟ ومن خير ما يؤثر أن يهودية أسرها المسلمون فى حرب وساروا بها فى الميدان وهى تبكى. فأدرك رسول الله أنها شهدت جرحى قومها فنهر النبى المسلمين بقوله «أنزعت الرحمة من قلوبكم حتى تمرا بالمرأة على قتلاها؟» إذن، فرحمة المرأة واجبة حتى فى أشد المواقف فزعاً وأقساها هولاً، وهذا ما ينساه كثير من المسلمين حتى فى الظروف المعتادة قال تعالى فى (سورة آل عمران) فيمن يدعونه «فاستجاب لهم ربهم إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب».

مجد الدين حفنى ناصف

آية العفاف

لإسماعيل باشا صبرى

كم فى الورى من خائل ومرائى ... يخفى الرياء بحيلة السحراء

يبدى الصداقة والخيانة طبعه ... ويعيش بالوجه البشوش الرائى

فى قرية بصعيد مصر عفيفة ... تسمو بفقهها على الجوزاء

خرجت لتملأ جرة من جدول ... ينساب فى البطحاء كالرقطاء

والصبح منبلج وفى أردانه ... وذيوله أثر من الظلماء

والماء سال شبيه سائل فضة ... يجرى على درر من الحصباء

والأرض من وشى الربيع تجملت ... من سندس من نبتها برداء

والزهر يبسم فى الرياض وفى الربى ... والشمس مشرقة على الأرجاء

آيات رب الناس يظهرها لنا ... مكتوبة فى سائر الأشياء

عادت لجرتها تسير لدارها ... كالشمس فوق القبة الزرقاء

حسناء جملها العفاف بثوبه ... إن التعفف زينة الحسناء

رضيت بعيشتها فهنت زوجها ... فتقلبت فى راحة وهناء

لمحت بمدرجة الطريق متابعاً ... لخطيها سفه من السفهاء

ود الكلام فما أجابت سؤله ... وتعززت بفضيلة شماء

مازال يتبعها لغاية دارها ... ومضى وجمر الحب فى الأحشاء

من بعد أيام رأته وزوجها ... فى ألفة ومحبة وولاء

وغداً تدرب خاضعاً من بعلها ... متظاهراً بصداقة وإخاء

حتى إذا وثق القرين بوده ... جهلاً وبئس صداقة الجهلاء

كثرت زيارته فكل صبيحة ... يأتى لدار صديقه ومساء

وافى وكان صديقه متغيباً ... عن داره فى ليلة ليلاء

وافى اللئيم لسلب عرض صديقه ... ولسلب عرض المرء شر بلاء

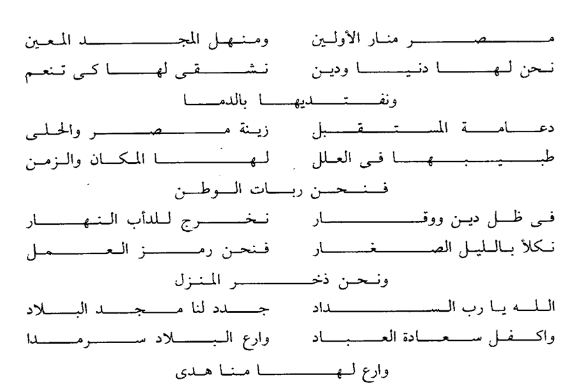
وضياع نفس الحر أهون عنده ... من سلب هذى الدرة البيضاء

وافى وقال الوغد هيت لك أذعنى ... إنى أتيت لريبة وخلاء

فتمايلت عن ردعه برجائه ... لرجوعه عن ذاك خير جزاء
فاستل مديته وقال بجفوة ... وخشونة ووقاحة وجفاء
إن لم تجيبي ما أردت فإنني ... أقضي عليك بطعنة نجلاء
فلما رأت أن ليس يجدى رجه ... باللين أو نصيحة النصحاء
عملت إلى حسن الدهاء وجردت ... من حزمها سيفاً شديد مضاء
ورجته تمضى كى تنوم طفلها ... فى غرفة أخرى بحسن دهاء
فأجابها لك ما أردت فأحدقت ... بالطفل وهو مجلل بسناء
ونجت به وبعرضها وتنفست ... بعد النجاة تنفس الصعداء
حملت له نار القضاء وأقبلت ... وعيونها كالجمرة الحمراء
جاءت وفى يدها مسدس زوجها ... وحشته سهم منية وقضاء
قالت له: أو ما تعود عن الذى ... تبغيه من بغى ومن إعداء
يا ناكساً عهد الصديق وناهجاً ... نهج الوحوش وأخبث الخبثاء
خير لمثلى أن تموت شهيدة ... من أن أخون طهارتى ووفائى
أأخون زوجى إن ذلك عارة ... تبقى مدى الآجال والآناء
فأجابها كلا فقالت مرحباً ... خذها إذن من كف ذات حباء
تودى بروحك فى الجحيم وإنها ... نار الجحيم منازل اللؤماء
غمزت بإصبعها المسدس فانبرى ... منه الرصاص فمزق الأحشاء
فغدا اللئيم مدرجاً بدمائه ... فوق الثرى كالصخرة الصماء
شر البرية من يخون صديقه ... والموت للخوان خير جزاء

نشيد المرأة الجديدة

مجد الدين ناصف



مصر منار الأولين   ومنهل المجد المعين

نحن لها دنيا ودين   نشقى لها كى تنعم

ونفتديها بالدما

دعامة المستقبل   زينة مصر والحلى

طبيبها فى العلل   لها المكان والزمن

فنحن ربات الوطن

فى ظل دين ووقار   نخرج للدأب النهار

نكلأ بالليل الصغار   فنحن رمز العمل

ونحن ذخر المنزل

الله يا رب السداد   جدد لنا مجد البلاد

واكفل سعادة العباد   وارع البلاد سرمدا

وارع لها منا هدى

خاتمة

مطالب النساء

فى حفل ذكرى باحثة البادية

لكاتب صاحب الإمضاء

نحن فى العاصمة المصرية قد نجد أنه من تحصيل الحاصل بيان فضل النساء فى الحياة الإنسانية، وإننا لم نعد نحتاج إلى الاستشهاد بحكمة نابليون (المرأة التى تهز مهد طفلها بيمينها تهز العالم بشمالها) فقد شاعت هذه الحكمة ونزلت إلى أن تكون بضاعة معلمى المدارس الابتدائية فى تعليم الصبية الإنشاء. ولكننا إذا شئنا أن نعبر عن تقدير الرجال لمكان النساء فى الحياة الاجتماعية المصرية فى جميع بلاد مصر وقراها على السواء، وجدنا أن علينا واجباً كبيراً نحو نساء مصر فى بيان فضلهن حتى نستطيع أن نظفر لهن بحقوق مهضومة، واحترام منكور، وفضل مغموط. والمكانة الجديدة التى استفادتها المرأة المصرية والتى يشعر بها الرجل إن هى إلا مكانة محصورة فى عدد من الأسرات المصرية قد لا يصعب تعدادها، أما فى الأسرات، ولاسيما فى غير المدن، فإنه لم تزل المرأة منظوراً إليها بمهانة وهون ولاسيما فى المعيشة الزوجية. فمازلنا نسمع كثيراً أن المرأة لا عقل لها ولا دين، وأن التعليم مفسد لأخلاقها، ومازال الأكثرون يفخرون بطرد زوجاتهم، وسلب متاعهن، والقسوة فى معاملتهن فى صنوف شتى. ونحن لا ننسى على الدوام أن مرجع هذا الفساد نشر الجهل بين هؤلاء الأكثرين، وأن خير علاج وأساس أى شفاء من هذه البلوى المعرة هو نشر التعليم. ولكن هل نقف مكتوفين حتى تنمحى الأمية وينير العلم أرجاء مصر صعيدها ومهادها؟ وهل يكفل العلم وحده براءة من هذه المشائن؟

إن جهاد حضرات السيدات المصريات لهو جهاد واجب. ولكن يعوز هذا الجهاد عدد أكثر للاشتغال بهذه النهضة، لا فى مدينة القاهرة وحدها وإنما فى كثير من مدن القطر لاسيما فى العواصم، حتى يشعر أهل الريف، ولاسيما نساؤه، بأن لنساء مصر كياناً محترماً فيعرف أولئك الرجال القساة الجهلاء الضرر الأدبى على الأقل الذى يصيبهم من إساءة المعاملة مع النساء. ولتعلم نساء مصر أنه على أكتافهن وحدهن تقوم النهضة النسائية، وأنه من المضعف لحركتهن أن يقوم بها الرجال وحدهم. لقد نهض

ذلك العلم الخالد الذكر «قاسم أمين» بفتح باب النهضة. ولكن دعوته الجريئة بقيت فردية حتى استيقظت بعض السيدات الفضليات إلى صوت هذه الدعوة العادل وفؤادها الرحيم.

لا شك أن نصرة مطالب السيدات ليس نصراً لخصم، ضد خصم وإنما هو تأييد لوحى العدل وإلهام الطبيعة وتلبية للمصلحة البشرية. فبقدر ما تزيد النساء علماً وحقوقاً وحرية يستفيد الرجال من هذه الزيادة التى هى سعادة مضافة إلى ما يتوهمون من سعادة، بل إن سعادة الرجال لا تتم إلا بهذه الإضافة. لقد اهتموا بالرفق بالحيوان الأعجم لأنهم وجدوا فى الرفق به احتراماً للإنسانية، وصيانة لمقتضى الشعور الآدمى. فهلا يكون اهتمام الرجال بمطالب السيدات خدمة كلية للإنسانية وللرجال أيضاً.

●●●

فى خطاب السيدة هدى شعراوى فى حفل تأبين باحثة البادية ثلاثة مطالب:
مطالب نسوية: مساواة الرجل بالمرأة فى فروع التعليم. إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية وجعلها منطبقة تمام الانطباق على روح التشريع الدينى من إقامة العدل ونشر السلام بين الأسر وإحكام روابط المصاهرة. مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق النيابية والحقوق التشريعية.

أما المطلب الأول الخاص بالتعليم فهو مطلب سائر فى مجرى التحقيق. أما المطلب الثانى الخاص بالعلاقة الزوجية فقد شرح كما يأتى: «(١) يسن قانون لمنع تعدد الزوجات إلا لضرورة كعقم الزوجة أو مرض عضال يمنعها من أداء وظيفتها الزوجية وفى هذه الحالة يجب أن يثبت ذلك الطبيب المختص».

ونحن نقول إن إصدار قانون كهذا ليس فيه ما ينافى الشرع الشريف، لأنه مبنى على قوله تعالى: «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» كذلك قوله «وعاشروهن بالمعروف» وقد شرط الفقهاء للعدل شروطاً كثيرة يندر أن تجتمع فى إنسان، خصوصاً إذا فكرنا فى أن الشخص الذى يتزوج بزوجة ثانية يتوهم أن زوجته الثانية خير من الأولى فيخصها عادة بالرعاية والعناية، فينتفى كل عدل «راجع ابن عابدين والمختارات وغيرهما».

«(٢) يسن قانون يحرم على الرجل أن يطلق زوجته إلا أمام القاضى الشرعى. وعلى القاضى معالجة التوفيق بين الزوجين بحضور حكم من أهلها وحكم من أهله قبل

الحكم بالطلاق طبقاً لنص الدين الحنيف. أعتقد أننا فى هذا المطلب لم نتجاوز الحكم الدينى ولا الحكم العقلى، إذ ليس منا من يجهل أن الطلاق مثار الأحقاد والضغائن بين المتصاهرين، ولذلك قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (أبغض الحلال إلى الله الطلاق). وليس منا من يجهل مضار تعدد الزوجات وماله من أثر سئ يوهن جلال الأبوة فى نفوس الأبناء، ويختلس حنان البنوة من الآباء، وينقص رابطة الأخوة فتؤول إلى مشاحنة وبغضاء. ويدفع الرجال إلى الإسراف والتبذير وينمى الأثرة فينقادون إلى شهواتهم غير حاسبين حساباً لما سيعقب ذلك من حسرات ونكبات. هذا إلى القضاء على سرور المرأة فى حياتها والحكم عليها بالشقاء الأبدى، وذلك مالا يرضاه رجل شريف تتغلغل فى نفسه العاطفة الإنسانية، ولا ترضاه امرأة رفيعة كانت أو وضيعة. إذا كانت هذه آثار تعدد الزوجات محسوسة ملموسة فلم لا نحاربه بكل قوانا، ولم لا ينضم إلى صفوفنا عقلاء الأمة لتلافى شروره ومفاسده»

وقد أصبحت مسألة الطلاق فى فرنسا وغيرها من النظام العام، بمعنى أن المحاكم الفرنسية لا تطبق القانون الشخصى للأجنبى إذا كان ذلك القانون يجيز الطلاق فى غير الأحوال المنصوص عليها فى المواد ٢٢٩ و٢٣٠ و ٢٣١ و٢٣٢ من القانون الصادر فى ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٤ (وهذا من مبادئ القانون الدولى الخاص). كذلك لا يعترف بزوجتين لشخص أجنبى، لأن تعدد الزوجات محرم باعتبار أنه من النظام العام، وفى قضية سكاكينى شىء من هذا. وقد تزوجت فرنسية من رجل تركى ورفعت دعوى تطالب بطلاقها منه أمام محكمة السين بفرنسا. ودفع الزوج التركى بعدم الاختصاص، فرفضت المحكمة هذا الدفع، وكان من بين الأسباب التى بنت عليها المحكمة الرفض قولها: «وفوق ذلك فإنه من الواجب على المحكمة رفض هذا الدفع لأن النظام العام يأبى أن يتمتع أى الزوجين (وهو الزوج فى حالتنا هذه) بامتياز خاص يسمح له أن يبت العلاقة الزوجية وحده»

كذلك يطرد الأجنبى من الولايات المتحدة إذا كان يسمح لنفسه بالاقتران بأكثر من واحدة. وعلى كل حال فإن عادة تعدد الزوجات معدودة فى أوروبا أنها عادة وحشية وفوضى. ويسخرون من وجودها أى سخرية. وفى رواياتهم كثير من مظاهر السخرية والتشنيع.

على أنه فى الإمكان أيضـاً أن يوجد فى القـانون الدولى الجديد، الذى قـد يوضع لتنظيم مسألة الزواج والطلاق، إذا صادفـت مصر رجلاً مصلحاً مشفـقاً براً بوطنه غيوراً على سمـعتـه، أسلوب الانفصـال بين الزوجين، وهو الحكم بإبعاد الزوجـة عن الزوج مدة، عسى أن تزول النفرة وأسبابها وذلك تحـاشياً من القضاء بالطلاق. ففى المادة ٣٠٦ من القانون المدنى الفرنسى أنه: « إذا وجد محل لطلب الطلاق فللزوجين الحق فى طلب الانفصال».

وجاء فى المادة ٣١٠ منه: « إذا اسـتمر الانفصال الجـسمى بين الزوجين لمدة ثلاث سنوات فإن الحكم القاضى به يتحـول بمقتضى القانون إلى حكم بالطلاق بناء على طلب أحد الزوجين». وفى تعليق فوسـتان هيلى على الفصل الخاص بالانفصـال الجسمى بين الزوجين يقول بأن مدة الثلاث السنوات لا تبدأ إلا إذا أصبح الحكم به نهائياً، وإن طلب التـحويل إلى طلاق يخـول للمحكوم عـليه مـثل المحكوم له، وإن المحكمة لا تقـضى بالتحويل إلا بعد مضى الثلاث سنوات.

وجاء فى المادة ٣١١: «يجـوز أن يذكر فى حكم الانفصال الجـسمى، أو فى حكم تال له، منع الزوجة من اتخـاذ اسم الزوج أو السماح لها بأن تحمـله. وفى حالة ما إذا أضاف الزوج إلى اسمه اسم زوجته فللزوجة أن تطلب منعه من التسمى به»

ويؤدى الانفصال الجسمى دائماً إلى الفصل بين أموال الزوجين. ويترتب عليه أيضاً أن يكون للزوجة حـرية استعـمال الأهلية المدنيـة (للتعاقـد والتصرف) دون حـاجة إلى الالتجاء لالتماس رضا الزوج (أو المحكمة . . .)

إن الغرض من سن قانون لتنظيم الزواج والطلاق على شبيـه هذه القواعد الفرنسية لا يرمى إلى سلب حرية الزوج، أو مخالفة الشريعة الإسـلامية السمحاء، وإنما الغرض تنظيم استعمال الحرية وكفالة السعادة التى رمى إليها الشرع الشريف من الحياة الزوجية.

وعلينا أن نتـصور ماذا تكون الحـالة لو أبيح الطلاق بلا قيـد فى أوروبا المتحـضرة وأمريكا اللامعة. لقد تعددت فيها قضايا الطلاق بالرغم من تحريمه المطلق تقريباً.

وفوق المسـاوئ التى عددتـها خطيـبة الحفلـة فإن لإباحة تـعدد الزوجات إطـلاقاً، ولإباحة الطلاق لإرادة الزوج وحـده بمجرد اللفظ به سيئـة أخرى نجدها فى عدم الـثقة الموجودة عند كل زوجة مسلمة مبدئياً بخصوص سلوك الزوج، مما يترتب عليه نزاع، بل

نزاعات طويلة متتابعة فى المأكل والمشرب والسفر والحضر والإيراد والمنصرف والغياب والسهر. وكيف يستطيع رجل أن يجد زوجة مخلصة مطمئنة وهى تعلم أنه فى حمقة المناقشة ولبادرة لفظ منفلت قد يقضى على حاضرها ومستقبلها شر قضاء. وقد سرت فى مصر عادة عند النساء، يفزع لها الرجال. ذلك أن النساء ـ دفعاً لاحتمال الزواج بزوجة أخرى ـ يندفعن فى مطالب تبهظ حمل الزوج وتثقله بالدين حتى لا يجد فى إيراده فرجة تسمح له بالتفكير فى الإتيان بزوجة جديدة. وفى هذا مضرة اقتصادية لا تخفى لأن هذه العادة تجعل الأسر تعيش مستدينة مدينة. فوق ما تتأدى إليه من النزاع والكراهية. فالضرر مادى ومعنوى. للأسرة وللأمة.

وضرر آخر يشكو الكثيرون منه وهو ميل الشاب المتعلم إلى الزواج بالأوروبيات مع أن من أسبابه الأولى هذا الخوف المنبث مبدئياً فى قلب الفتاة المسلمة.

●●●

إن الحياة الزوجية هى الصورة الصغرى للحياة المصرية، بل هى الحياة المصرية بما فيها من المساوئ والأحقاد والبغض والإسراف والخيانة وخفاء روح التعاون والتضحية والوفاء. فعلى الذين وضعت فى أعناقهم أثقال سعادة هذه البلاد الجميلة السخية سواء أكانوا حكاما أم نوابا أم كتاباً واجب وطنى، واجب إنسانى وفرض اجتماعى عمرانى: هو العمل لسن ذلك القانون الذى تضمنه المطلب الثانى من مطالب حضرات السيدات المصونات الجليلات.

عبد الله حسين

حقوق المرأة

لصاحبة الإمضاء

ليس فى الدنيا من أنواع هذا الحيوان إلا وقد تقلبت عليه أطوار وأحوال كثيرة أنساه بعضها بعضاً حتى لقد خرجت به بعض الأحوال عن خطة التقدير الطبيعى فصار النافر أنيساً والأنيس نافراً والضخم صغيراً والصغير ضخماً. ولم يكن كل ذلك يجرى على ناموس الارتقاء والاضمحلال ولا التغيير والتبديل الطبيعى، بل كان كل ذلك يجرى على الغالب بقوة أجل أنواع هذا الحيوان وأسماه إدراكاً وأكثره تصرفاً، ألا وهو الحيوان الناطق، وبالتالى الإنسان العظيم، فإنه قد شارك الطبيعة فى أكثر أحوالها وتبديلاتها وكاد ينهاها عن أكثر نواميسها وأمورها، ولذلك فلا نعجب إذا قيل لنا إن هذا الهر قد كان نمراً فصغر الإنسان حجمه بالترويض، أو كان ضاريا كاسراً فألان حدته بالقوة والإذلال، ولا أن ذلك الجواد الجرئ والفيل الكبير قد كانا من أنفر الحيوانات وأشدها بطشاً فذللهما الإنسان حتى صار يقودهما الغلام الصغير.

ثم إن هذا الحيوان الناطق لم يقتصر تصرفه بالحيوان الأعجم، إذ هو أتم منه تركيباً وأوفر حيلة فقط، بل هو قد تصرف نفسه بنفسه أو بعضه ببعضه فنشأ ما نراه من اختلاف الناس فى مواطنهم ومعايشهم وأديانهم ومذاهبهم، ولولا ذلك لكان الناس أمة واحدة فى كل حالة تقريباً، إذ هم من نوع واحد وخلق واحد منذ البدء.

على أن الإنسان لو تفكر فى هذا التصرف الذى جرى لما وجد له من سبب غير قدرة التركيب والعقل على نقص التركيب والجهل بين نوعى الحيوان الناطق والأعجم، وقدرة العقل والبدن على ضعفيهما بين نوع الحيوان الناطق وحده، ولذلك كان الاختلاف بين طبقات البشر كلهم بالعموم، وبين الرجل والمرأة منهم بالخصوص، ولهذا نجد أنه مهما تبدلت حالات البشر، وحال الضعف فى بعضهم إلى قوة، والقوة فى بعضهم إلى ضعف، فإن حالة المرأة، وبالتالى الأنثى، بجملتها، لم تتبدل على وجه الإجمال، بل لبثت ضعيفة منذ نشأت إلى الآن وكان الرجل متسلطاً عليها فى كل زمان ومكان.

ولكن هذه المرأة قد تعاقبت عليها حالات أدبية كثيرة لم تتعاقب على مخلوق قط حتى ليعجب المرء كيف بقيت على حالتها الطبيعية، ولم تتغير تغير بعض الحيوان الأعجم الذى تسلط عليه الإنسان وذلك لفرط ما تصرف بها الرجل وبدل فى حالاتها وأخلاقها بين حرية وعبودية وعز وهوان.

ولقد أذل الرجل المرأة إذلالاً عجيباً فى القرون الخوالى، حتى لنظن أنه كان يحسبها من غير نوعه وجنسه، أو أنه لا حاجة له بها على الإطلاق، وذلك لكثرة ما حملها من ذل الاستعباد وهوان الاسترقاق، ولم يكن هذا الشأن جارياً عند شعب دون شعب أو متبعاً فيه حكم إقليم دون إقليم، بل كان جارياً فى الدنيا كلها على الغالب، وإن اختلفت طرق المذلة وأسباب الاستعباد والتقييد. ولا تزال الحالة تجرى كذلك عندنا إلى الآن إذ يضرب كثيرون نساؤهم لذنوب لا يضربون من أجلها حيواناتهم إشفاقاً عليها، ويحمل كثيرون نساءهم من مشاق الحياة وأتعابها ما لا يحملونه بهائمهم.

ولا حاجة لأن نأتى على ذلك ببراهين مما كان يجرى فى العصور السالفة؛ عصور الظلمة والفوضى، فإن البرهان قد لا يكون صادقاً بالقياس إلى حالة مجموع الناس فى تلك الدهور، ولكن نذكر قليلاً مما كان يجرى فى العصور الوسطى أو بالقريبة منا. فقد ذكروا أنهم كانوا يذلون المرأة إذلالاً غريباً ويمنعون عنها حتى الحقوق الطبيعية وقد توصلوا بذلك إلى أن كانوا يمنعونها عن الزواج الثانى ويعاقبونها على الزواج الثالث كأنها أتت جريمة، بل كانوا يعاقبونها على الزواج الثانى بأن يحرمونها من حقوق الإرث المقدسة. وزادوا فى إذلالها من الجهة الأدبية حتى كانوا يمنعون فئات من النساء من لبس الحلى ويخصون بعضهن بها، وكانت لذلك قوانين دولية لمخالفتها عقاب كعقاب السرقة والخيانة. ثم توصل سوء ظنهم بالمرأة إلى أن ادعوا أنها قادرة على السحر والتنجيم بسبب لطف حسها، وفشا هذا الاعتقاد بينهم لاحتراف بعض النساء هذه الحرفة للارتزاق، فصاروا يحكمون على كل منجمة بالقتل وذلك بقوانين مسنونة حتى قيل إنهم قتلوا فى انكلترا وحدها فى مدة ١٥٠ سنة فقط ٣٠ ألف امرأة بهذه الدعوى الكاذبة. وليس بعد ذلك من ظلم حسى أصيبت به المرأة فوق المظالم الأخرى الأدبية التى انصبت عليها، ولا تزال لاحقة بها إلى وقتنا هذا وقت المدنية والمساواة.

ولكنه يخال لأول وهلة للمطلع على حال النساء وتاريخهن القديم والجديد أنها ليست جزءاً من نوع الإنسان، أو أنها أحط منه منزلة فى خاصية العقل وتركيب الجسم، إلا أنه لو تأمل فى تلك المظالم التى أصيب بها النساء من قبل، والتى لا يزلن يدعينها إلى الآن، لوجدها ظلماً صحيحاً أصبن فيه من وجه ولكنه مشفوع بعدل من جهة أخرى، بحيث إن الرجل لو طاوع المرأة فى هذا العصر على جميع مطالبها التى تلتمسها وتدعى أن منعها عنها ظلم صريح لكان نصيبها من الرفاه فى هذه الدنيا أكثر من نصيبه، لأنها تصبح أكثر منه

حقوقاً وأوسع مجالاً، فى ميدان الحياة، مع أنه هو القوى الذى له حق الاستبداد والأثرة فضلاً عن المساواة والنصفة.

ولقد يقول البعض بل إن المرأة مظلومة على كل حال مهما بلغت بها المدنية وأرخى الرجل لها طول الحرية، ولو لم يكن ظلمه لها إلا اقتياده إياها إلى حيث يريد، واضطرارها لأن تطيعه على الصواب والخطأ، لكفى به ظلماً أدبياً يفوق كل ظلم مادى. ونعم إن هذا الانقياد إنما هو ظلم حقيقى للناظر إليه بعين الرجل الذى لم يتعود إلا الاستقلال والأنفة من الضيم الأدبى بسبب قوته الطبيعية التى نشأ عليها منذ البدء فلم تفارقه، بل ظل فيها الحاكم الأول على جميع المخلوقات. ولكن إذا نظر الرجل إلى المرأة بعين المرأة نفسها أو تمثل شعورها فى عواطفه، وعلم أن هذا الانقياد خلق معها كما خلقت القوة معه، هان عليه أن يحملها هذه المذلة التى تدعيها وعرف أن تفاوت النتيجة لا يكون إلا بالتأثير، وإذا كان فى النساء من تدعى هذه الدعوى وتقول إنها تشعر بشعور الرجل فى المذلة فهى إنما تدعيها بالقول فقط كما يدعى البخيل أنه فقير وهو غنى. وإذا كان فيهن من تشعر بذلك حقيقة فإنما يكون ذلك من أصل التربية ونشوء النفس، على أنه بعيد على كل حال أن تكون نفس المرأة مساوية لنفس الرجل فى أمثال هذه التأثيرات، لأن السليقة لا تغلب، والضعيف يحتمل المذلة حتى تصير فيه من جملة الطباع.

ثم إنك لو نظرت إلى المرأة بإجمالها لوجدت أن الطبيعة قد أوجدت فى نفس الرجل إنصافها وتعويضها مطالب بمطالب أخرى هو محروم منها. فإن الطبيعة قد سخرت الرجل لأشق أعمال الحياة، ثم عزته على ذلك بالتعويض الأدبى الذى يجده من طاعة المرأة وما يشعر به فى نفسه من عظم السلطة عليها، ثم سخر الرجل المرأة أن تطيعه وأن يكون الحاكم المتصرف بأمرها يقودها إلى حيث يريد، وعزاها بأنه أعفاها من أكثر موجبات الحقوق والمطالب وتحملها دونها فكان خطبه من الطبيعة مادياً محضاً وخطبها من الرجل أدبياً أغناها عن تحمل أكثر الخطوب الحسية، إلا بعض الخطوب الطبيعية التى يشترك بها كلاهما أو تمتاز المرأة بتحملها دونه كالحزن والوجد والإشفاق والحنو وكثرة الاهتمام والمبالاة وغير ذلك من عواطف النفس التى ابتليت بها المرأة بأكثر مما ابتلى به الرجل، وإن كان نقيض تلك الوجدانات فيها مما تشفع لها حلاوته وحسن وقعه بما مر وخشن منها، أى أنها تبتهج وتطمئن حين ذلك النقيض أكثر منه.

أما عزاء المرأة فى ضعفها عن مجاراة الرجل فى قوة البدن واضطرارها للانقياد إليه

بحكم القـوة والعقل فكـثيـر لا يتسع ذكـره كله، ولو استـطاع الرجل أن يذكر للمـرأة كل امتيازاتها التى تشعر بها ولكنها تجهل فضلها لأراها أنه قد أعطاها أكثر مما أخذ منها وأنه دافع أكثر نوازل الطبيعة عنها وتحملها دونها.

ولتنظر المرأة إلى حالة معيشتها، ولا سيما فى هذا العالم المتمدن الذى تطلب الإنصاف منه، تجد أنها ترتكـب من الذنوب ما لو ارتكبه الرجل لبرح به القـصاص، ولكنها مع ذلك قد يعـفى عنها إشفـاقاً على ضعـفها أو يقل عـقابها إذ يتكلف لهـا العذر بجهلهـا القوانين والحقوق، بحجة أنها من شروط الرجـل وليس من شروطها، فتنجو بذلك مما لا يستطيع أن ينجـو منه الرجل. بل قد تكون هى والـرجل شريكين فى ذنب واحـد وتأثيرها فـيه تأثـيره فيتحمل هو من الـعقاب أكثر منها، أو قد تعفى هى منه بسـبب ذلك الإشفاق الذى أودعته الطبيعة من أجلها قلوب الرجال.

ثم لتنظر المرأة فيما وهبتـه لها الطبيعة وبالتالى ما خصتها بـه شريعة الرجال وعواطفهم من نحوها تجد أن القـتل والضرب قلما يصيبهـا من الناس، إلا نادراً، فإنه لا يقع فى مكان خطب أو مكروه إلا وتكون هى أول من ينظر خلاصها، فإذا احـترق منزل مثلاً كان أول ما يصرف من العناية موجهـاً إليها، وإذا غرقت سفينة كـانت هى أول من يهتم بخلاصه، وإذا تشاركت المكاره بينها وبين الرجل فى مثل الفقر والمرض ونحوهما كانت هى المقدمة عليه فى العناية والإشفاق من الرجال أنفسهم. ثم تجد ذلك الرجل الذى كـان مثلها فى فقره ومرضه مسروراً ومغتبطاً بتقدمها دونه غـير حاسد لها على شيء اختصت به من قبله، بل إن حسد الرجل للمرأة فى كل حـالة يكاد يكون معـدوماً من نفسـه مهمـا علت هى وانخفض هو، ولذلك ترى المرأة فى الدنيا طليـقة لا يزاحمها أحد إلا زمـيلتها المرأة وتلك مزاحمـة وهمية لاتؤثر ولاتؤذى.

ولتنظر المرأة إلى حالتـها العموميـة الجارية كل يوم تجد أنها مهـما اشتد خصـامها مع الرجل فـإنه يندر جداً أن يمد لهـا يداً أو يوجهـها بكلام يؤثر بعـواطفهـا النسائيـة، بل هى تستطيل عـليه بما تشاء وهو لا يقـابلها إلا بالحلم والرفق كـما يعامل الـرجل الصبى، ثم إن المعارك تثور والمذابح تجرى على ساق وقدم والمدائن تفتح والقتل يدور وكل ذلك يكون واقعاً من الرجال على الرجال، حـتى من الرجال على الأطفال، أما المرأة فتظل سليـمة لا تمد لها يد بسوء وإن كثيرين من البشر، حتى المعـدودين بنصف متمدنين، يعدون من أشد العار قتل النساء ثم يكون مـا يصيب النساء من تلك المكاره شـدة جزعهن وحـزنهن على من قتل من



أزواجهن وبنيهن. ولو استطاع الرجل أن يرد عنهن مصيبة هذه الشعائر لردها ونهاها من فرط إشفاقه عليهن وتخصيصهن بالرحمة والمعروف.

هذا من الوجه المادى الذى جرى من قبل ومن بعد. وأما الوجه الأدبى وهو أهم ما يتطلبنه فى هذا العهد فقد وصلن إليه بعمومهن إلى درجة أسمى جداً من التى وصل إليها الرجل بعمومه. فنحن نجد على الغالب أن الرجل لا يحترم إلا إذا كانت له ميزة من مال أو علم ومن كان خلواً من هذين انتفت كرامته فلم يعتبره أحد، على خلاف المرأة، فإنه لا يطلب منها المال والعلم لتحترم من أجلهما، وإنما هى تحترم لأنثويتها فقط ويلتمس لها عذر إذا خلت من مال أو علم، وأما الرجل فلا يناله شىء من العذر لأن الطبيعة تطلب منه كل شىء ولا تعفيه من شىء.

ثم إن هذا الاحترام لا يصيب بعض النساء دون سائرهن، بل هو لهن بالعموم وإنما يختلف باختلاف المراتب التى لا سبيل لنكرانها أو المساواة بها. أى أنه لو ظهر رجل وامرأة فى حال واحدة ومرتبة واحدة لكان احترام المرأة أكثر منه، إن كان ثم ما يدعو إلى الاحترام، أو لم تحتقر مثله إن كان ما يدعو إلى الاحتقار.

وهذا الشأن محسوس نراه كل يوم. وإذا قالت المرأة إنها إنما تكون محترمة من الرجال من قبيل ظهورها لديهم بمظهر الضعف أو كونها من غير جنسهم القوى وإن النساء لايحترمنها كذلك، قلنا إن نتيجة الاحترام الحقيقى هو التعزية، والتعزية التى تطلبها المرأة إنما تكون من الرجل لأنه عنوان الدنيا وقويها ولا تكون التعزية من الضعيف.

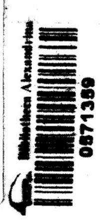
وعلى الجملة، فإن المرأة لو نظرت إلى نفسها بعين العدل والإنصاف لوجدت أنها منتصفة، وأن الطبيعة أو الرجل إذا كان قد منع عنها بعض الحقوق جرياً على سياسة الدنيا الواجبة فقد أعطاها مثل ما أخذ منها. وإذا كان الله تعالى قد خلقها ضعيفة البدن وحملها من شروط الطبيعة ما يقتضى السكون وعدم التعرض لجسيمات الأعمال التى ينال منها الفخر ويتم بها العلاء والمجد فما ذنب الرجل؟

الكسندره

"فليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها ولا يستبد فى تحريرنا كما استبد فى استعبادنا. إننا سئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس وإنما نخاف عينيه ولسانه، فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه وأن يكن لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا فى أمرنا وأمره".

"قطع رجال الإصلاح فى مصر شوطاً بعيداً للتنقيب عما يجعل الأمة المصرية فى مصاف الأمم الراقية، فلم يظفروا بضالتهم، وبعد لأى ألقوا الذنب فى تأخير الأمة المصرية على المرأة المسكينة، وقالوا: لو كانت المرأة المصرية راقية لأخرجت للعالم أبناء ناشطين، وأزواجاً حكماء، وأسراً منظمة، ووقفوا عند هذا الحد ينتظرون ما يقضيه لهم الدهر من ارتفاع شأن المرأة ورقيها، ويهيؤه لهم الاتفاق لصلاحها. كأن المرأة تلهم الإصلاح إلهاماً ولا تتعلمه تعليماً، ثم تقول لهم بما عجزوا عنه".

ملك حفنى ناصف





ملتقى المرأة والذاكرة